

وزارة التعليم العالي

المعهد العالي للدراسات الإسلامية

شعبة الدراسات الاجتماعية

دور دولة المماليك البحرية في معالجة الأزمات الاقتصادية في مصر والشام

(٦٤٨-٧٨٤هـ/ ١٢٥٠-١٣٨٢ م)

رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير

إعداد الباحث

حمادة إسماعيل كامل إسماعيل

إشراف

أ.د/ البيومي إسماعيل الشربيني

أستاذ ورئيس قسم التاريخ

كلية الآداب – جامعة دمياط

١٤٣٩هـ/٢٠١٨م



وزارة التعليم العالي

المعهد العالي للدراسات الإسلامية

شعبة الدراسات الاجتماعية

نموذج رقم (١)

صفحة لجنة الإشراف

عنوان الرسالة: **دور دولة المماليك البحرية في معالجة الأزمات الاقتصادية في مصر والشام (٦٤٨-٧٨٤هـ/١٢٥٠-١٣٨٢ م).**

اسم الباحث: **حمادة إسماعيل كامل إسماعيل.**

لجنة الإشراف

م	الاسم	الوظيفة	التوقيع
١	أ.د/البيومي إسماعيل الشربيني	أستاذ ورئيس قسم التاريخ كلية الآداب – جامعة دمياط	

رئيس القسم	وكيل الكلية للدراسات العليا والبحوث	عميد الكلية
أ.د/	أ.د/	أ.د/



وزارة التعليم العالي

المعهد العالي للدراسات الإسلامية

شعبة الدراسات الاجتماعية

نموذج رقم (٢)

صفحة السادة أعضاء لجنة المناقشة والحكم

عنوان الرسالة: **دور دولة المماليك البحرية في معالجة الأزمات الاقتصادية في مصر والشام (٦٤٨-٧٨٤هـ/١٢٥٠-١٣٨٢ م).**

اسم الباحث: **حمادة إسماعيل كامل إسماعيل.**

لجنة الإشراف

م	الاسم	الوظيفة	التوقيع
١	أ.د/البيومي إسماعيل الشربيني	أستاذ ورئيس قسم التاريخ كلية الآداب – جامعة دمياط	

لجنة المناقشة والحكم

م	الاسم	الوظيفة	التوقيع
١	أ.د/ محمد عيسى الحريري	أستاذ التاريخ الإسلامي وعميد كلية الآداب جامعة المنصورة الأسبق (مناقشاً ورئيساً)	
٢	أ.د/ منى حسن محمود	أستاذ التاريخ الإسلامي كلية الآداب جامعة القاهرة (مناقشاً وعضواً)	
٣	أ.د/البيومي إسماعيل الشربيني	أستاذ ورئيس قسم التاريخ كلية الآداب – جامعة دمياط (مشرفاً وعضواً)	

رئيس القسم **وكيل الكلية للدراسات العليا والبحوث** **عميد الكلية**

أ.د / **أ.د/** **أ.د/**



(إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ)

صَدَقَ اللهُ العَظِيم

سورة فاطر (الآية رقم: ١٠)



يطيب لي في تقديم هذه الدراسة أن أتقدم لأستاذي الفاضل الأستاذ الدكتور/ البيومي إسماعيل الشربيني أستاذ ورئيس قسم التاريخ كلية الآداب جامعة دمياط ، وافر الشكر وعظيم الإمتنان لتفضله بالإشراف على هذه الرسالة ، رغم ضيق وقته وكثرة مشاغله وأعبائه ، ولما أبداه من نصح وإرشاد وتوجيه ، وما تحمله من عناء في القراءة والتدقيق ، فترك أثر الأستاذ الطيب بتلميذه البار ، فكان دائماً معلماً ومرشداً ومخلصاً ، أفاض عليَّ الكثير من غزير علمه ، وفيض معرفته ، ونصائحه العلمية ، وتوجيهاته الصائبة ، فله وافر الشكر والاحترام والتقدير .

كما أتقدم بخالص الشكر والاحترام إلى الأستاذ الدكتور / محمد عيسى الحريري أستاذ التاريخ الإسلامي وعميد كلية الآداب جامعة المنصورة الأسبق لقبول سيادته مناقشة هذه الرسالة فله مني كل الشكر والعرفان .

والشكر موصول إلى الأستاذة الدكتورة / منى حسن محمود أستاذة التاريخ الإسلامي كلية الآداب جامعة القاهرة لقبول سيادتها مناقشة هذه الرسالة وتحملها عناء القراءة والسفر فلها مني كل الشكر والعرفان .

أيضاً أتوجه بخالص الشكر والتقدير لآسرة المعهد العالي للدراسات الإسلامية .

أيضاً أشكر الأخ والأب والصديق المحترم / الدكتور الحسن محمد ربيع خليل إبراهيم أستاذ التاريخ والحضارة كلية دار علوم المنيا علي مجهود وتوجيهات سيادته ، فله كل الود والشكر والإحترام والتقدير .

أيضاً أشكر كل من ساعدني في إتمام هذا العمل الجليل من الأهل والزملاء والأصدقاء ، وقدم لي نصيحة أو معلومة أو دعا لي دعوة بظهر الغيب لهم منى جزيل الشكر والتقدير .

الباحث

حمادة إسماعيل كامل إسماعيل

٢٦ من ربيع الأخر ١٤٤١ هجرياً / ٢٣ من ديسمبر ٢٠١٩ ميلادياً

فهرس الدراسة

تابع فهرس الدراسة

تابع فهرس الدراسة

تابع فهرس الدراسة

مقدمة:

الحمد لله الذي زين قلوب أوليائه بأنوار الوفاق، وسقى أسرار أحبائه شرابًا لذيذ المذاق، وألزم قلوب الخائفين الوجَل والإشفاق، فلا يعلم الإنسان في أي الدواوين كتب ولا في أيِّ الفريقين يساق، فإن سامح فبفضله، وإن عوقب فبعدلِه، ولا اعتراض على الملك الخلاق

وأشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، إلهٌ عزَّ مَن اعتز به فلا يضام، وذلَّ مَن تكبر عن أمره ولقي الآثام .

وأشهد أن سيدنا وحبيبنا وشفيعنا محمدًا عبد الله ورسوله، وصفيه من خلقه وحبيبه، خاتم أنبيائه، وسيد أصفيائه، المخصوص بالمقام المحمود، في اليوم المشهود، الذي يُجمع فيه الأنبياء تحت لوائه ، اللهم صل وسلم وزد وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيرا يا رب العالمين .

وبعد،،

عزمت بفضل الله أن أكتب بحثي هذا في التاريخ الإسلامي ولا خير في أمة لا تعرف ماضيها فمن الماضي نستفيد مما نقوم به الحاضر وجعلت بحثي هذا تحت عنوان: **دور دولة المماليك البحرية في معالجة الأزمات الاقتصادية في مصر والشام (٦٤٨-٧٨٤هـ/ ١٢٥٠-١٣٨٢ م).**

أسباب اختياري للموضوع:

١- حاجة الأمة إلى مراجعة تاريخها والاطلاع عليه والاستفادة منه.

٢- الاستفادة مما قامت به دولة المماليك من معالجة الأزمات، خاصة في هذا الزمان ونحن نعاني من نقص مياه النيل ونزاع الدول حول بناء سد النهضة، الذي يقلل حق "مصر الرائدة القائدة للعالم الإسلامي كله" من مياه النيل.

٣- الاستفادة من الاهتمام بالإداريات في الدولة المملوكية التي استطاعوا بها القضاء على الأزمات.

٤- أهمية الموضوع في بيان الطرق التي لجأت إليها دولة المماليك لمواجهة الأزمات الاقتصادية فيما ينعكس إيجاباً على أوضاعنا الراهنة.

٥- رفع ما يعانيه أبناء الأمة الإسلامية من جهل بتاريخ الدول السابقة التي سادت العالم شرقا وغرباً.

منهج البحث:

لقد اعتمدت في البحث والدراسة على عدد من مناهج البحث العلمي كان أبرزها المنهج التاريخي[١]، أولاً يليه مناهج أخري لها أهميتها في دراسة الموضوع مثل المنهج الإحصائي، والاستنباطي[٢]، والوصفي[٣]، والاستقرائي[٤]، مع العلم انه لا يمكن الاستغناء عن المناهج الأخرى في البحث والدراسة لكل باحث ودارس.

الدراسات السابقة:

قامت عدة أبحاث عن الأزمات الاقتصادية في عصر الدولة المملوكية، واجتهد كثيراً من الأساتذة والباحثين في هذا المجال، إلا أن كل باحث اختص بتوضيح المشكلة البحثية في زمن أو فترة معينة، أو بلد، أو منطقة بعينها، أو نوع معين من أنواع الأزمات الاقتصادية، في ذلك العصر، ويدل ذلك على مدى أهمية الدراسة والبحث في الأزمات الاقتصادية، لمعرفة مدى تأثيرها على المجتمعات، وكيفية مواجهتها، لتفادي الكثير من السلبيات التي تؤثر على المجتمعات، بل وفهم الأحداث، وعوامل تقدم المجتمعات وتأخرها، ومعرفة مواطن القوة والضعف في فترة الدراسة، وعلى سبيل المثال وليس الحصر أذكر بعض الأبحاث التي قامت على دراسة جانب أو فترة معينة، من الأزمات الاقتصادية في هذا العصر، ومنها:

١- **شلبي إبراهيم الجعيدي**: الأزمات الاقتصادية والأوبئة في مصر في عصر المماليك الجراكسة، منشأة المعارف – الإسكندرية ٢٠٠٢م.

---

(١) (المنهج التاريخي الذي نقوم فيه باسترداد الماضي تبعا لما تركه من آثار أياً كان) انظر عبد الرحمن: مناهج البحث العلمي، ط٣، الناشر وكالة المطبوعات، الكويت ١٩٧٧ ص ١٩.

(٢) هو: (الاستنتاج والاستخراج، أي استخراج فكرة معينة من فكرة أخرى أو استخراج نتيجة معينة من مقدمة أو عدة مقومات). انظر الشرقاوي: مناهج البحث والتفكير العلمي، دار الثقافة العربية – القاهرة، ١٩٩٧ م. ص ٥٨.

(٣) المنهج الوصفي هو: عبارة عن (طريقة لتوصيف الموضوع المراد دراسته من خلال منهجية علمية صحيحة وتصوير النتائج التي توصل إليها على هيئة أشكال رقمية يمكن تفسيرها. رجاء وحيد: البحث العلمي أساليبه النظرية وممارسته العلمية، ط١، دار الفكر – بيروت، ٢٠٠٢ م.

(٤) المنهج الاستقرائي هو: (الاهتداء إلى العلاقات التي تربط ظاهرة ما بسببها المباشر، أو بمجموعة الظروف التي لا بد من وجودها حتى تتحقق تلك الظاهرة) محمود قاسم: المنطق الحديث ومناهج البحث، ط٢، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٥٣ م، ص ٤٥.

وهذه دراسة بحثية كبيرة، يقدمها الباحث من خلال سرد صفحات التاريخ المملوكي، منذ قيام دولة المماليك الجراكسة، موضحاً أهم العوامل التي أثرت في كل مناحي الحياة الاقتصادية والاجتماعية والفكرية والسياسية في المجتمع المصري، والتي أدت إلى عجز مواجهة الأخطار المحيطة به، وسقوط مصر تحت سيطرة العثمانيين، الفارق بينه وبين بحثي أنه اختص بدراسة الأزمات الاقتصادية والأوبئة في مصر فقط عصر دولة المماليك الجراكسة، لكن بحثي اختص بدراسة الأزمات الاقتصادية في مصر وبلاد الشام في دولة المماليك البحرية فقط، ودور الدولة في معالجتها.

٢- **حامد زيان:** الأزمات الاقتصادية والأوبئة في مصر عصر سلاطين المماليك – المكتبة العالمية، القاهرة ١٩٧٦م.

أيضاً شملت هذه الدراسة نظرة عامة في تاريخ الأزمات الاقتصادية في مصر فقط عصر دولة المماليك، لكن بحثي اختص بدراسة الأزمات الاقتصادية في مصر والشام عصر دولة المماليك البحرية فقط، ومعالجة الدولة لها.

٣- **على السيد على محمود:** الفناء الكبير والموت الأسود – المجلة التاريخية، ج ٣٣، القاهرة ١٩٨٦م.

هذه دراسة اختصت بدراسة الأوبئة في القرن الرابع عشر الميلادي مقارنة بين الشرق والغرب، ولكن بحثي اختص بدراسة عامة للأزمات ومنها الأوبئة في مصر والشام عصر دولة المماليك البحرية فقط ومعالجتها من قبل السلطة الحاكمة.

٤- **عثمان على عطا:** الأزمات الاقتصادية في مصر في العصر المملوكي وأثرها السياسي والاجتماعي (٦٤٨-٩٢٣هـ/١٢٥٠-١٥١٧م)، دار العلوم، القاهرة ١٩٩٩م.

اختصت هذه الدراسة على الأزمات الاقتصادية في مصر فقط عصر المماليك، واختص بحثي بتناول الأزمات الاقتصادية في مصر وبلاد الشام في دولة المماليك البحرية فقط ومعالجة الدولة لها.

٥- **شيماء محمد جمعة عبد العال:** الأزمات والكوارث الاقتصادية في مصر عصر سلاطين المماليك وأثرها على الحياة العامة – المنيا ٢٠١٤م.

أيضاً شملت هذه الدراسة الأزمات والكوارث الاقتصادية في مصر فقط خلال عصر المماليك كاملاً، ولكن بحثي اختص بمعالجة الدولة للأزمات الاقتصادية في مصر وبلاد الشام في دولة المماليك البحرية.

٦- **فاطمة بنت محمد حسن المباركي:** الأزمات الاقتصادية في الحجاز خلال العصر المملوكي – جامعة أم القري ٢٠١٢م.

هذه دراسة في الأزمات الاقتصادية في الحجاز خلال العصر المملوكي كاملاً، ولكن بحثي شمل الأزمات الاقتصادية في مصر وبلاد الشام في دولة المماليك البحرية ومعالجة الدولة لها.

٧- **محمد حمزة محمد صلاح:** الكوارث الطبيعية في بلاد الشام ومصر (٤٩١-٩٢٣هـ/١٠٩٧ – ١٥١٧م) كلية الآداب، الجامعة الإسلامية بغزة، فلسطين ٢٠٠٩م.

هذه دراسة بحثية شاملة للأزمات والكوارث الطبيعية في مصر وبلاد الشام، من بداية عصر الحروب الصليبية إلى نهاية الدولة المملوكية، ولكن بحثي اختص بدراسة الأزمات الاقتصادية في مصر وبلاد الشام في دولة المماليك البحرية فقط ومعالجة الدولة لها.

٨- **فتحي سالم حميدي:** وباء الطاعون وأثره على مدينة القاهرة في العصر المملوكي، جامعة الموصل، ٢٠١٢م

أيضاً اختصت هذه الدراسة على وباء الطاعون فقط على مدينة القاهرة في عصر المماليك كاملاً، لكن بحثي اشتمل على دراسة الأزمات الاقتصادية في مصر وبلاد الشام في دولة المماليك البحرية فقط ومعالجة الدولة لها.

ونظراً لذلك فقد اهتمت تلك الدراسات برصد الأزمات الاقتصادية، ولم تول اهتماماً بالقدر الوافي بالخوض عن الحلول التي لجأت إليها الدولة لمواجهة هذه الأزمات، وهذا ما تناوله بحثي عن تلك الأزمات إبان عصر دولة المماليك البحرية.

أسأل الله التوفيق والسداد والرشد والصواب فهو وحده المستعان وعليه التكلان. أسأل الله أن ينفعني والمسلمين بهذا البحث.

الباحث،،

حمادة إسماعيل كامل إسماعيل

الفصل التمهيدي للدراسة

تمهيد:

الدولة المملوكية:

تعتبر فترة حكم المماليك من الفترات التاريخية المجهولة عند كثير من المسلمين، بل عند كثير من مثقفي المسلمين، وذلك قد يكون راجعًا لعدة عوامل. ولعل من أهم هذه العوامل أن الأُمَّة الإسلامية في ذلك الوقت كانت قد تفرقت تفرقًا كبيرًا، حتى كثرت جدًّا الإمارات والدويلات، وصغر حجمها إلى الدرجة التي كانت فيها بعض الإمارات لا تتعدى مدينة واحدة فقط! وبالتالي فدراسة هذه الفترة تحتاج إلى مجهود ضخم لمتابعة الأحوال في العديد من الأقطار الإسلامية .

أما تسمية الدَّولة المملوكيَّة أو السلطنة المملوكيَّة هي تسمية تاريخيَّة حديثة نسبيًّا ابتكرها الباحثون والمُؤرخون المُعاصرون، ولم تكن معروفة في عصر المماليك، وإنما عُرفت هذه الدولة بِتسمياتٍ مُختلفةٍ في زمنها، سمَّت المراجع العربيَّة المُعاصرة لِعهد المماليك البحريَّة هذه الدولة باسم «دولة الأتراك» أو «دولة التُرك» أو «الدولة التُركيَّة»[(١)]، وفي عهد المماليك البُرجيَّة سُميت الدولة باسم «دولة الجراكسة» أو «الدولة التُركيَّة الجركسيَّة»، على اعتبار أنَّ المماليك الشراكسة (الجراكسة) كانوا يتحدثون بِالتُركيَّة كونهم تربوا مُنذ استقدامهم إلى مصر في كنف المماليك التُرك[(٢)]، من التسميات الأُخرى التي اعتمدها المُؤرخ المُسلم قديمًا أيضًا، وإن نادرًا: «الدولة البحريَّة» و«الدولة البُرجيَّة»، في كُلِّ عهدٍ على حدة، وشاعت هذه التسميات في العصر الحالي لِلتمييز بين العهدين المملوكيين. كما عُرفت هذه الدولة في عهد الظاهر بيبرس وابناه السعيد ناصر الدين مُحمَّد والعادل بدر الدين سُلامش باسم «الدولة الظاهريَّة»، كما عُرفت باسم «الدولة المغوليَّة»، وذلك لِفترةٍ قصيرةٍ فقط من عُمرها، خِلال سلطنة العادل كتبغا كونه كان مغوليًّا. أيضًا، عُرفت الدولة طيلة عهد السُلالة القلاوونيَّة (٦٧٨ - ٧٨٤هـ \ ١٢٧٩ - ١٣٨٢م) باسم «دولة بني قلاوون» أو «دولة قلاوون» [(٣)] الدَّولَةُ المَملُوكِيَّةُ أو السَّلطَنَةُ المَملُوكِيَّةُ أو دَولَةُ المَمَالِيك أو سلطَنَةُ المَمَالِيك هي إحدى الدُول الإسلاميَّة التي قامت في مصر خِلال أواخر العصر العبَّاسي الرابع [(٤)]، وامتدَّت حُدُودها لاحقًا لِتشمل الشَّام والحجاز، ودام مُلكُها مُنذُ سُقُوط الدولة الأيوبيَّة سنة ٦٤٨هـ /

(١) القلقشندي: صبح الاعشى، ج٤، ص ٤٥٨؛ العبادي: قيام دولة المماليك، ص ٧٣ - ص ٩٧.

(٢) العبادي: قيام دولة، ص ١١؛ طقوش: تاريخ المماليك في مصر والشام، ص ١٥-١٦.

(٣) ابن تغرى: النجوم الزاهرة ، ج٧، ص ٢٨٨؛ سرور: دولة بنى قلاوون، ص ٢٣.

(٤) المقريزي: المواعظ والخطط ، ج٢، ص ١٩٤.

١٢٥٠م، [١] حتَّى بلغت الدولة العُثمانيَّة ذُروة قُوَّتها وضمَّ السُلطان سليم الأوَّل الديار الشَّاميَّة والمصريَّة إلى دولته بعد هزيمة المماليك في معركتي مرج دابق والريدانيَّة سنة ٩٢٣هـ المُوافقة لِسنة ١٥١٧م. يُقسم المُؤرخون الدولة المملوكيَّة إلى دولتين هُما: دولة المماليك البحريَّة ودولة المماليك البُرجيَّة. حكم المماليك البحريَّة من سنة ٦٤٨هـ / ١٢٥٠م إلى سنة ٧٨٤هـ / ١٣٨٢م، وكان أكثرهُم من التُرك والمغول[٢] .

وحكم المماليك البُرجيَّة من سنة ٧٨٤هـ / ١٣٨٢م إلى سنة ٩٢٣هـ / ١٥١٧م، وكانوا من الشركس. والمماليك أُصُولهم رقيقٌ مُحاربين، استقدمهم الخُلفاء العبَّاسيين الأوائل من تركستان والقوقاز وغيرها وجعلوهم حُرَّاسًا لهم وقادةً لِجُيُوش المُسلمين، وقد ازداد نُفُوذ المماليك بِمُرور الزمن وظهر المماليك بِمظهر مُنقذي العالم الإسلامي من الضياع والزوال، حتَّى أصبحوا يُهيمنون على الخِلافة وعلى مركز صناعة القرار، مُستفيدين من ضِعف الخُلفاء وتراجُع نُفوذهم. وحذا السلاطين والأمراء المُسلمين حُذو الخِلافة في بغداد، فكان لِكُلٍ منهم جماعةً من المماليك الأشدَّاء والأكفاء عسكريًّا، ومن هؤلاء السلاطين الأيُّوبيين الذين حكموا مصر والشَّام تحت الرَّاية العبَّاسيَّة. ولمَّا مات آخر سلاطين بني أيُّوب، وهو الملكُ الصَّالح نجمُ الدين أيُّوب، سنة ٦٤٧هـ / ١٢٤٩م، [٣] كتمت زوجته شجر الدُّر نبأ موته إلى أن حضر ابنه توران شاه من حصن كيفا في الجزيرة الفُراتيَّة إلى القاهرة. وحاول توران شاه أن يُقدِّم مماليكه الذين اصطحبهم معه من الجزيرة، فعيَّنهم في مناصب الدولة، فما كان من المماليك القُدماء في مصر إلا أن ائتمروا به وقتلوه، ثُمَّ نصَّبوا شجر الدُّر سُلطانة عليهم في سنة ١٢٥٠م، وهي أوَّل امرأة وُلِّيت شُؤون المُسلمين[٤]،

---

(١) العبادي: قيام دولة المماليك، ص ٩٧.

(٢) العبادي: قيام دولة المماليك ، ص ١١ ؛ طقوش: تاريخ المماليك في مصر والشام، ص ١٥-١٦ .

(٣) طقوش: تاريخ المماليك في مصر والشام ، ص ٣١ ؛ قاسم عبده: التاريخ السياسي، ص ٧ .

(٤) المقريزي: السلوك، ج١، ص ٤٥٩؛ طقوش: تاريخ المماليك في مصر والشام ، ص ٣٢.

نبذة عن دولة المماليك البحرية:

المماليك البحرية أو مماليك الترك، هي سلالة من المماليك، أغلبها من الأتراك القبجاق، التي حكمت مصر من عام (٦٤٨-٧٨٤هـ/١٢٥٠ – ١٣٨٢م)، ولفظ البحرية، تعنى "النهر" مشيرة إلى جزيرة الروضة في القاهرة التي عاش بها المماليك، وبنى بها السلطان الأيوبي الصالح نجم الدين أيوب قلعة الروضة [١]، وكان عدد حكام دولة المماليك البحرية يبلغ ٢٨ على رأسهم شجر الدر [٢] وقد بينا ذلك من خلال الملحق الأول[٣]:

١- نظام دولة المماليك البحرية السياسي:

شهدت الساحة السياسية تحولاً كبيراً في العصر المملوكي، اتسم حكمهم بانتهاج الجهاد الإسلامي للدفاع عن الإسلام، والأقطار الإسلامية ضد الهجمات التي تعرض لها العالم الإسلامي من أعداء الخارج كالصليبيين والمغول والتتار والصفويين وغيرهم[٤]، ويمكننا القول بأن "الدولة المملوكية من أغنى الدول بحكامها الأغنياء من أمثال بيبرس وقلاوون، والناصر محمد الذين أسسوا دولة واسعة الأرجاء قضت على بقايا الصليبيين، وأوقفت الزحف المغولي على بلا المسلمين، وخطب و دَّها ملوك أوربا وآسيا، وانتقل في عهدها مقر الخلافة العباسية من بغداد إلى القاهرة[٥]، وطبعت البلاط المملوكي بنظام خاص لم يكن موجودا من قبل، ولاشك أن الانتصارات الرائعة التي أحرزها المماليك تعود إلى إعداد جيد للجيش وتنظيم دقيق له وللقائمين عليه، ولعل الفضل في ذلك يعود إلى «الظاهر بيبرس» الذى أولى الجيش عنايته منذ ولى عرش «مصر»، فقد قام بنفسه بإعداد وتنظيم وتسليح أول جيش نظامي في مصر[٦] في العصور الوسطى يكون سنده في الحروب ووقت الشدة، فاستكثر من شراء المماليك وعنى بتربيتهم تربية دينية وعسكرية، وعين لكل فئة منهم فقيهًا يعلمهم القرآن، ومبادئ القراءة

---

(١)القلقشندي: صبح الأعشى، ج٤، ص ١٦ ؛ المقريزي: السلوك، ج١، ص ٤٤٣.

(٢) المقريزي: السلوك ، ج١، ص ٤٥٩.

(٣) انظر الملحق رقم (١) ص ١٥٠.

(٤) قاسم عبده: التاريخ السياسي، ص ٨.

(٥) العبادي: قيام دولة المماليك، ص١٧٩.

(٦)المقريزي: السلوك ، ج١، ص ٥٢٧.

والكتابة، حتى إذا وصلوا إلى سن البلوغ أوكلهم إلى من يدربهم ويمرنهم على الأعمال الحربية، فإذا أتموا ذلك وأجادوه ألحقوا بجيش السلطان لتبدأ حياتهم الجهادية في سبيل الله.

ولما ولى السلطان «قلاوون» مقاليد الأمور في سنة ٦٧٩هـ/١٢٨٠م ، زادت عنايته بشئون تدريب الجند المماليك، كما اعتنت تلك الدولة بإنشاء أسطول حربي، لحماية أطراف الدولة .

وكان الجهاز الإداري في «مصر» والشام يتكون من عدة دواوين حكومية، يشرف كل منها على ناحية معينة من نواحي الإدارة العامة، وكانت أهم هذه الدواوين في هذا العهد «ديوان الأحباس»، و «ديوان النظر»، و «ديوان الخاص»، و «ديوان الإنشاء». كانت هناك دواوين أخرى، أقل شأنًا من تلك الدواوين السابق ذكرها، مثل «ديوان الأهراء» (وهى شئون الغلال السلطانية)، و «ديوان الطواحين»، ويتولى صاحبه الإشراف على طحن الغلال، و «ديوان المرتجعات»، ويشرف صاحبه على الأمور الخاصة بتركات الأمراء، وكذلك كانت هناك دواوين أخرى ذكرها «القلقشندي» على أنها دواوين مستقلة، ولكنها لم تكن –في حقيقة الأمر– سوى إدارات تتصل اتصالا مباشرًا بالقصر السلطاني، أو بأحد الدواوين الرئيسية السابقة .

وذكر «القلقشندى»[١] منها –مثلاً– «ديوان الإصطبلات»، و «ديوان المواريث»، و «ديوان الخزانة» و «ديوان العمائر»، و «المستأجرات» ونظمت الدواوين، وحددت اختصاصات كبار الموظفين، وسارت على نسق واحد من حيث التنظيم الإداري، فكان على رأس كل ديوان موظف كبير هو «ناظر الديوان»، وكانت مهام عمله تشبه إلى حد كبير ما يقوم به الوزير حاليا، ويليه في المرتبة «مستوفى الصحبة»[٢]، يتحدث صاحبها في جميع أمور البلاد ويكتب التعليمات ليوقع عليها السلطان بما ينفع البلاد من الأعمال، و «مستوفى الدولة» يشارك الوزير في أمور البلاد ويكتب التعليمات تبعاً للوزير، ومن مهامهم أيضاً الإشراف على موظفي الدواوين المختلفة، ويلى هؤلاء طبقة الموظفين والكتاب وما يليهم[٣]، وهكذا كان تنظيم الدواوين في عهد الدولة المملوكية غاية في الدقة، ومظهرًا من مظاهر الرقى الحضاري الذى وصلت إليه هذه الدولة بما صنعته وحققته .

(١) صبح الأعشى، ج٤، ٢٩–٣٤.

(٢) الشربيني: النظم المالية، ص ١١٥ .

(٣) القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٤، ص ١٦ .

ومثلاً من أمثلة المتابعة الدقيقة التي آل سلاطين هذه الدولة على أنفسهم أن يتخذوها في مراقبة شئون الدولة؛ لتحقيق الاستقرار الداخلي، الذى ينعكس – بطبيعة الحال – على كل مناحي الحياة في الدولة. وحفل عهدها بقضاة ضربوا أروع الأمثال في الاعتدال بالرأي (١)، وبالنزاهة وطهارة الذمة وحسن السيرة، احترموا مركزهم القضائي، ولم يقبلوا تدخل أحد – مهما يعلُ مركزه – في أعمالهم، وكثيراً ما كانوا يطلبون إعفاءهم من مناصبهم – دون تردد – إذا ما حاول أحد تهديد كرامتهم، أو الاعتداء من قريب أو بعيد على استقلالهم، فقد كانوا لا يقبلون الرشوة ولا الهدية (٢)، لذا أصبحت لهم مكانتهم الكريمة ومقامهم المرموق في الدولة، وفي نظر السلاطين والأمراء، وجميع طبقات الشعب .

ولعل أبرز الأمثلة للتدليل عليهم: «القاضي عبدالعزيز» (٣)، المعروف بعز الدين بن عبدالسلام (سلطان العلماء)، و «القاضي تقى الدين عبدالرحمن الشافعي»(٤) ابن بنت «الأعز»، و «القاضي تقى الدين محمد بن دقيق العيد»(٥)، وغيرهم، فقد كانوا أمثلة عظيمة وواضحة لما يجب أن يكون عليه القاضي العادل والشريف، أيضاً اعتنوا بالإفتاء وهو يلى القضاة في الأهمية «مفتو دار العدل»، وقد كانوا أربعة يمثلون المذاهب الإسلامية الأربعة، كانت مهمتهم شرح وتوضيح أحكام الشرع فيما يُسألون عنه من المسائل الفقهية، كل حسب مذهبه. أيضاً المحتسب كانت مهمته النظر فيما يتعلق بالجنايات والنظام العام، وكان عليه الفصل فيها على وجه السرعة، وقد عهد إليه بالإشراف على نظام الأسواق، وكان له نواب يطوفون فيها ويفتشون أماكنها، ويشرفون عليها، وقد ارتقى نظام الحسبة وشمل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر(٦).

---

(١) ابن اياس: بدائع الزهور، ج٣، ص ٢٤؛ طقوش: تاريخ المماليك، ص ٩.

(٢) عبدالرازق: البذل والبرطلة، ص ٩٨ .

(٣) القاضي عز الدين أبو محمد عبد العزيز ابن عبد السلام (٥٧٧هـ/٦٦٠هـ) انظر:ابن تغرى: النجوم، ج ٧، ص ٢٠٨.

(٤) القاضي تاج الدين أبومحمد عبد الوهاب بن خلف بن بدر بابن نت الأعز انظر: ابن تغرى: النجوم، ج٧، ص ١٢٣.

(٥) القاضي تقى الدين محمد بن على بن دقيق العيد (٦٢٥هـ/٧٠٢هـ) انظر: ابن تغرى: النجوم، ج٧، ص ١٢٣.

(٦) القلقشندي: صبح الاعشى، ج٤، ٣٧ ؛ طقوش: تاريخ المماليك، ص ٩.

نظام دولة المماليك البحرية الاقتصادي:

الواقع التاريخي كان يشهد للفتوحات العربية على مر العصور أنها لم تكن فتحاً عسكرياً فحسب، بل كانت فتحاً دينياً ولغوياً وثقافياً تتغير مع أوضاع البلاد سياسياً واقتصادياً واجتماعياً، لأن العرب كانت لهم سياسة واحدة متبعة في تطبيق أحكام الإسلام في المجال الاقتصادي وهى تخفيف عبء الضرائب إلى أبعد الحدود عن الطبقات الفقيرة المستضعفة . [١]

ومما لا شك فيه أن الحالة الاقتصادية لأي أمة من الأمم تمثل العمود الفقري لها، فإذا كان الاقتصاد قويا وأحسن استغلاله في تيسير حاجات البلاد، وبناء نهضتها، وتشييد حضارتها؛ كان ذلك أداة إلى التقدم والازدهار في جميع المجالات [٢]، ووقوف البلاد في صفوف الأمم المتقدمة ذات السيادة العالمية. أما إذا كان اقتصاد أي بلد عكس ذلك، فإنه يكون أداة للظلم والقهر والسلب، وخذلان البلاد ووقوفها في ذيل قائمة البلاد المتقدمة، منتظرة قراراتها في تسيير أمورها وشئونها الخاصة، ولا تتوافر لهذه الأمم الضعيفة القدرة على اتخاذ القرار فيما يخصها، وتصبح فريسة للتدخل الأجنبي، وطمع المستعمرين .

ولقد كان المماليك من القوة الاقتصادية لدرجة أن دولتهم بلغت حداً من الثراء لم تُؤثر عليه الحروب العديدة التي خاضوها، بالإضافة إلى الإنشاءات والإصلاحات التي قامت بها في طول البلاد وعرضها [٣]، إذ تعددت مصادر الثروة التي زخرت بها خزائن المماليك، فبالإضافة إلى ضرائب الخراج، والتركات التي لا وارث لها كانت هناك مصادر أساسية وثابتة لزيادة موارد الدولة ؛ إذ اهتم المماليك بالزراعة والصناعة والتجارة، وأقاموا مقاييس للنيل، وطَهروا الترع، وأنشئوا الجسور ونظموا الري وحسَّنوا وسائله[٤]

أيضاً اعتنوا بصناعة المنسوجات، ونشطوا في اكتشاف واستخراج المعادن، التي كان من أهمها: «الزمرد» و «الشب» و «النطرون»، فكان «الشب» يُستخرج من الوجه القبلي والواحات، ويُحمل إلى «قوص» أو إلى «أسيوط» و «أخميم» و «البهنسا»، ثم ينقل منها عن طريق النيل إلى «الإسكندرية» وفيها يباع للأوربيين، وخصصت الحكومة ثلث ثمنه لدفع رواتب الأمراء، ولتوفير بعض احتياجات الجيش الكثيرة؛ لكثرة حروبهم في ذلك الوقت، وكانت التجارة – بحق – أعظم مصادر الثروة في العهد

(١) مني حسن محمود: قاعدة نربونة، ص ٥٩ .

(٢) المقريزي: المواعظ، ج٣، ص ٢٨ .

(٣) المقريزي: المواعظ، ج٣، ص ٢٩؛ القلقشندي: صبح الأعشى، ج٣، ص ٤٣٦.

(٤) المقريزي: السُلوك، ج١، ق٣، ص ٨٤٢ – ٨٤٤ ؛ عاشور: مصر في عصر المماليك، ص ٢٨٣ .

المملوكي؛ إذ قاموا بتشجيعها، وعقدوا التحالفات والاتفاقات التجارية مع إمبراطور «القسطنطينية»، وملوك «إسبانيا»، وأمراء «نابلس»، و «جنوة»، و «البندقية» وسلاجقة «آسيا الصغرى»، وكاد المماليك أن يحتكروا تجارة «الهند» – خاصة التوابل – بالاتفاق مع أمراء الموانئ الإيطالية، فكان لذلك أكبر الأثر في نمو ثروات البلاد وزيادتها (١)، خاصة بعد أن بسط المماليك سلطانهم على «مكة» و «جدة»، وأصبحت «مكة» من أشهر الأسواق التجارية في الشرق فانتعشت حالة البلاد الاقتصادية وازدهرت، ويدل على ذلك كثرة الإنشاءات المعمارية والتجهيزات الحربية في ذلك الحين (٢) إلا أن لحالة الركود – التي كانت تصيب الاقتصاد أحيانًا نتيجة لظروف القلق وما يصاحبها من السلب والنهب – أثراً على خزينة الدولة، ومع ذلك لم يكن تأثيرها خطيرًا؛ لأن الدولة سرعان ما كانت تتدارك الأخطاء وتعالج العيوب، وتعمل على سد النقص في اقتصادها .

ولعل أخطر الأحداث الاقتصادية التي كان لها أكبر الأثر في سقوط دولة المماليك هو تحول طرق التجارة بين «أوربا» و «الشرق» عن طريق «مصر» إلى طريق «رأس الرجاء الصالح» الذى اكتشفه «فاسكو دي جاما» البرتغالي سنة ١٤٩٨م ، فأحدث هذا الاكتشاف انقلابًا خطيرًا في عالم التجارة، وكارثة حقيقية على دولة المماليك التي كانت تعتمد بصورة كبيرة على ما يسمي بتجارة الترانزيت، التجارة التي تحولت من حوض «البحر الأبيض المتوسط» إلى «المحيط الأطلسي» وفرغت خزائن «مصر» من الأموال التي كانت تأتيها من تجار «البندقية» و «جنوة»، الذين كانوا ينقلون تجارتهم من «الشرق» إلى «أوربا» عن طريق «مصر» ويدفعون لها الضرائب عن دخول تجارتهم وخروجها منها، فكان لذلك أثره على كساد التجارة والزراعة، ولم تعد «مصر» تنتج للأسواق الخارجية كثيرًا، فقلت موارد البلاد، وهددتها المجاعات، وانحط شأن «الإسكندرية»، وقل عدد الأجانب بها، وتأخرت الصناعات الحيوية، وتدهورت الحالة الفنية؛ لقلة الأموال اللازمة، فهيأ هذا الوضع الفرصة للسلب والنهب الذى قام به بعض أفراد المماليك(٣)، فدب الضعف في أوصال الدولة، وبدأت تأخذ طريقها إلى الضعف والتلاشي؛ لأن موارد البلاد لم تعد كافية لسد احتياجاتها الضرورية، وزاد الأمر سوءًا في نهاية عصر المماليك إذ كثرت الدسائس والمؤامرات، وحوادث السلب والنهب، وتعرضت «مصر» للمجاعة والاضطراب في عهد

---

(١) ابن الفُرات: تاريخ ابن الفُرات، ج٧. ص ١٩٨– ٢٠٠ ؛ عاشور: العصر المماليكي، ص ٢٩٠.

(٢) المقريزي: المواعظ، ج٣، ص ٢٩–٣٠ .

(٣) عاشور: العصر المماليكي، ص ٣٣٦ .

«السلطان برقوق»[١] و «السلطان شيخ المؤيد» و «السلطان قايتباي»، وزادت الاضطرابات في أنحاء البلاد، ولا تكاد تستقر حتى تعود إليها الفوضى ثانية؛ بسبب الفتن التي زادت حدتها في عهد المماليك البرجية على وجه الخصوص، لدرجة أن «خاير بك» أحد أمراء المماليك البرجية هو الذى ساعد العثمانيين – بخيانته – على الدخول إلى «مصر» والشام[٢]، قد انتهت دولة المماليك بعد أن ظلت مدافعة عن العالم الإسلامي حقبة دامت أكثر من قرنين ونصف القرن .

شهد العالم الإسلامي خلالها حضارة زاهرة مازالت آثارها باقية حتى الآن، ونعم المسلمون فيها بالرخاء والازدهار، إذ عُرف المماليك بالتطور وحب العمران، كما عرفوا بمهاراتهم الفائقة في الفروسية والقتال، فهم الذين ردوا المغول ودحروا الصليبيين، وتاريخهم المجيد يشهد لهم بذلك، وعلى الرغم مما حدث من هنات في بعض فترات حكمهم، فإن الحكم النهائي على أية دولة لا يكون إلا على ما خلَّفته، ومما لاشك فيه أن المماليك قاموا بدور لا يمكن تجاهله أو نسيانه، وخدموا المسلمين في كل مكان على الأرض، وأنشأوا حضارة راسخة، وشجعوا العلم والعلماء والمتعلمين، وكونوا جيشًا قويا، وبنوا أسطولاً عظيماً، وساعدوا الفقراء والمحتاجين، وشيدوا المدارس والجوامع والأسبلة والقلاع والمستشفيات والقصور، وعاشوا مع أهل البلاد في أمان وسلام، وذابوا في وحدة العالم الإسلامي، وبنوا له حضارته، ودافعوا عن أرضه، ورفعوا من شأنه، وأخذوا بيده إلى القمة في صدر صفوف دول العالم المتقدمة آنذاك[٣].

نظام دولة المماليك البحرية العلمي:

أصبحت مصر في عصر سلاطين المماليك محوراً لنشاط علمي كبير، فقصدها العلماء وطلاب العلم من مختلف الأقطار شرقها وغربها، وخير دليل على هذا ما خلفه علماء ذلك العصر من تراث ضخم في مختلف العلوم والفنون، ولم يقتصر هذا النشاط العلمي على العلماء وطلاب العلم فحسب، بل تجاوزوه إلى الأمراء وسلاطين المماليك، فقد عُرف عن كثير من السلاطين حبُّهم للعلم وشغفهم بسماعه، والجلوس إلى جانب العلماء في مجالسهم وحلقاتهم العلمية، واعتنوا بمؤرخين أغنوا المكتبة الإسلامية بنتاجهم الغزير، وأثْرت بالكثير من مؤلفاتها التي شهد لها التاريخ[٤]، وأما من ناحية التأليف والتدوين، فربما كانت

(١) عاشور: المجتمع المصري، ص ٣٢ .

(٢) طقوش: المماليك في مصر والشام، ص ٥٥٦.

(٣) طقوش: المماليك في مصر والشام، ص ٥٥٧ .

(٤) عاشور: المجتمع المصري في عصر المماليك، ص ١٥٧.

هذه المرحلة أغنى أوقات التدوين، وخير ما يدل على ذلك عظم الثروة العلمية التي وصلتنا من ذلك العصر بالذات، وما زالت دور الكتب في كافة أنحاء العالم تُثير بمئات المخطوطات التي ترجع إلى ذلك العصر، والتي تناولت معظم ألوان المعرفة: الأدب والتاريخ والجغرافيا والعلوم الدينية والطب والفلاحة والمعارف العامة وغيرها، فبرز في العلوم، الدينية مشاهير العلماء أمثال: النووي[١]، والعز بن عبدالسلام[٢]، وابن بنت الأعز[٣]، وابن دقيق العيد[٤]، وابن جماعة[٥]، وأبى شامة المقدسي[٦]، وأعداد كبيرة يصعب حصرهم، كما برز في الأدب واللغة علماء أمثال ابن مالك الطائي النحوي[٧]، وأما التاريخ فقد كان أبرز العلوم، في عهد سلاطين المماليك، برز فيه أعلام كثيرة مثل ابن عبد الظاهر[٨]، وابن كثير[٩] ، وابن الأثير[١٠] وابن حجر العسقلاني[١١]، وغيرهم، وفي العلوم، التجريبية والتطبيقية والطبيعية وعلم الحيوان و الهندسة والعلوم، والفلك، وغيرهم[١٢].

---

(١)أبو زكريا يحيى بن شرف النووي الشافعي(٦٣١-٦٧٦هـ/١٢٣٣-١٢٧٧م)انظر: الصقاعي: وفيات الأعيان ص ،٦١.

(٢) أبو محمد عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام الشافعي (٥٧٧هـ- ٦٦٠هـ/١١٨١م -١٢٦٢م) انظر: الصقاعي: وفيات الأعيان ص، ٩٥ .

(٣)القاضي تاج الدين بن الأعز بن خلف(٦٠٤- ٦٦٥هـ/١٢٠٧-١٢٦٧م)انظر: الصقاعي: وفيات الأعيان ص، ١٢٥.

(٤) محب الدين أبوالحسن على بن محمد القشيري بن القوصي(٦٥٧-٧١٧هـ/١٢٥٩-١٣١٧م)انظر:الصقاعى: تالى كتاب الوفيات، ص ١٠٥ .

(٥) بدر الدين بن جماعة أبو عبد الله الكناني الحموي، (٦٣٩ - ٧٣٣هـ/١٢٤١- ١٣٣٣م) انظر : الصقاعى: تالى كتاب الوفيات، ص ١٠٤ .

(٦) شهاب الدين عبد الرحمن المقدسي المعروف بأبي شامة (٥٩٩-٦٦٥هـ/١٢٠٣ - ١٢٦٧م) انظر: الصقاعي: تالى كتاب الوفيات، ص ٩٩ .

(٧)جمال الدين محمد بن محمد بن عبد الله بن مالك صاحب الفية ابن مالك في النحو (٦٠٠- ٦٧٢هـ/١٢٠٤-١٢٧٣م) انظر: الصقاعي: تالى كتاب الوفيات، ص ١٤٢-١٤٣.

(٨) محيي الدين أبو الفضل عبد الله بن رشيد الدين ابن نشوان ابن عبد الظاهر السعدي المصري (٦٢٠-٩٢هـ/١٢٢٣-١٢٩٢م) انظر: الصقاعي: تالى كتاب الوفيات، ص ١١٨ .

(٩) عماد الدين أبو الفداء اسماعيل بن عمر بن كثير بن ضوء القرشي الدمشقي (٧٠١ - ٧٧٤هـ/١٣٠١-١٣٧٢م) انظر: ابن حجر: الدرر الكامنة، ص ٣٧٤ .

(١٠) عز الدين أبي الحسن على بن محمد بن عبد الكريم ابن الأثير الجزري الموصلي الشيباني (٥٥٥-٦٣٠هـ/١١٦٠١٢٣٣) للمزيد انظر: ابن خلكان: وفيات الأعيان ، ج٣، ص ٣٤٨ .

(١١) شهاب الدين أبو الفضل أحمد العسقلاني ثم الشافعي (٧٧٣هـ - ٨٥٢هـ/١٣٧١- ١٤٤٨ م) انظر: ابن حجر: الدرر الكامنة، ج٤، ص ٤٩٢ .

(١٢) القلقشندي: ج ٣ ص ٣٦٧- ٣٧١؛ ابن تغري برد ي: النجوم، ج ٧ ص ١٨٢.

نظام الإقطاع في دولة المماليك البحرية:

في عصر سلاطين المماليك ظهرت أثار النظم الغربية التي أتت من غرب أوربا إلى الشرق عن طريق الحروب الصليبية وحقيقة أن نظام الإقطاع الذى عرفته مصر في عصر الأيوبيين ثم المماليك ترجع أصوله إلى السلاجقة والأتابكة(١)، وأن المماليك لم يستعملوا كثيراً من الاصطلاحات الخاصة بالإقطاع التي استعملها الصليبيون، ولكنهم مع ذلك تأثروا إلى حد كبير بالقواعد والنظم اللاتينية التي اقتبسوها من جيرانهم الصليبيين .

فقد عاش المماليك في مصر طبقة منفصلة ممتازة عن سائر السكان، وساعد ذلك على قيام نظام طبقي تميزت فيه كل طبقة حسب مركزها ونوع نشاطها ولاحظ العلماء المعاصرون هذه الفوارق، ويتضح من كل ذلك أن المماليك كانوا الطبقة العسكرية الممتازة التي سيطرت على البلاد وأهلها، ولهم في أصلهم ونشأتهم وطريقة تربيتهم وأسلوبهم الخاص في الحياة سياج يحيط بهم ويجعل منهم طبقة ذات خصائص تعزلها عن المحيط التي تعيش فيه، وكان مصدر ثروتهم من الإقطاعات السخية التي يجريها السلطان على الأمراء والجند كل حسب درجته ورتبته(٢)، وبلغ متوسط إقطاع الأمير مساحه تتراوح بين زمام قرية وعشر قري، أما المملوك السلطاني فيتراوح إقطاعه بين زمام قرية ونصف قرية، في حين لم يقل إقطاع جندي الحلقة(٣)عن نصف زمام قرية وقدر القلقشندي(٤) إقطاع الأمير الكبير بمئتي ألف دينار وهكذا كل حسب كل رتبته .

وكان السلطان يتولى بنفسه –عادة– توزيع الإقطاعات، وظلت القاعدة العامة أن يكون الإقطاع شخصياً بحتاً، لا دخل لحقوق الملكية أو لأحكام الوراثة فيه، وكان الإقطاع على نوعين، الأول أن يكون للمقطع الحق المطلق في استغلاله، والثاني أن يكون المقطع مقيدا بشروط خاصة بانتزاعها أثناء التمتع بإقطاعه، وفي جميع الأحوال لم يتعدى المقطع حدوده المحددة له، ويتضح من ذلك أن ذلك النظام لم يحدث من الآثار مثلما أحدث في الغرب الأوربي (عصر النضج الإقطاعي) الذي تطور فيه الإقطاع إلى التوريث، الذي أثر على الحياة الاجتماعية آنذاك ولم تكن الإقطاعات المصدر الوحيد لثروة الأمراء وأرزاقهم، بل

---

(١) طرخان: النظم الإقطاعية، ص ٢٣ –٣٠؛ طقوش: تاريخ المماليك في مصر، ص ٢١.
Dozy- R: supplement aux Dictlonnaires Arabes t.2 – p380.

(٢) طرخان: النظم الإقطاعية، ص ٦٤–٦٥ .

(٣) هم أرباب الإدراك وملتزمي خيل البريد وغيرهم انظر القلقشندي: صبح الأعشى، ج٣، ص ٤٥٨ .

(٤) صبح الأعشى، ج٤، ص ٥٠.

رتب السلطان للأمراء الرواتب الجارية، وقد تمتع المماليك بمكانة كبيرة في المجتمع ومنزلة رفيعة عند السلاطين، كما يبدو هذا الأمر جلياً في العهد الصادر عن السلطان المنصور قلاوون إلى ولده الأشرف خليل، وفيه يوصيه برعاية الأمراء " فهم السور الواقي، وهم ذخائر الملوك، وجواهر السلوك، فكن لجنودهم متحبباً، ولمصالحهم وآرائهم مستصوباً، وفي شكرهم مسهباً"(١) وليس غريباً أن يحدث أن تطغي نفوذ الأمراء على نفوذ سلطان المماليك في الشئون العامة، فضلاً عن الشئون السلطانية الخاصة، وذلك حال قيام سلطان صغير السن في منصب السلطنة(٢)، ولعزلة المماليك التي عاشوها جعلتهم يشعرون بأنهم أغراب عن أهل البلاد(٣).

مقدمة عن الأزمات الاقتصادية:

أَقْدَم العرب المسلمون على فتْح مصر وهُم يُدركون حقيقةَ قدراتها العظيمة، وخيراتها الوفيرة، ولا شكَّ أنَّ مصر الإسلامية كانت تتمتَّع بقسط وافر من الغنى والرخاء، لكنَّ رخاء مصر لم يَسْلم من بعض الأزمات الاقتصاديَّة التي كانت تقطع حَبلَ ذلك الرخاء من وقت لآخر، وقد أصاب المقدسيُّ -إلى حدٍّ بعيد- حينما قال عن مصر: "هذا إقليم إذا أقبلَ، فلا تسأل عن خصبه ورخصه، وإذا أجدبْ فنعوذ بالله من قَحْطه"(٤)، وعبارة المقدسي -على إيجازها- تعبِّر عن حال مصرَ أبلغَ تعبير، إذ بلغت بعضُ الأزمات الاقتصاديَّة فيها -رغم رخائها- شوطًا بعيدًا في حدِّتها وقسوتها، وامتدت لبضع سنين.

وبعد، فسوف نحاول أن نستقصيَ بعض تلك الأزماتِ الاقتصادية التي حَدَثت في عصر المماليك البحرية، وسنعمل على إبراز أسبابها، وكيفية تفاقمها، وكيفية علاجها وتأثيراتها على النواحي الاقتصاديَّة والاجتماعيَّة.

(١) القلقشندي: صبح الأعشى، ج١٠، ص ١٦٦- ١٧٣.

(٢) العيني: عقد الجمان، حوادث ٧٠٣، ج٤، ص ٢٩٧؛ ابن تغري: النجوم، ج٨، ص ١٧٥ -٢٧٥.

(٣) ابن تغري بردي: النجوم، ج٨، ١٨٥.

(٤) المقدسي : أحسن التقاسيم ، ص ٢٠٢ .

وقبل الحديث عن أسباب وعوامل الأزمات الاقتصادية فلابد من التعريف بالأزمة الاقتصادية.

مفهوم الأزمة الاقتصادية حسب النظم الحديثة:

١– المنظمة الدولية للحماية المدنية:

"هي حادثة كبيرة تنجم عن خسائر كبيرة في الأرواح والممتلكات وقد تكون أزمة طبيعية (Natural crisis) مردها فعل الطبيعة (فيضان، سيول، زلازل، عواصف، جفاف، آفات، وباء، طاعون) وقد تكون أزمة بشرية (Human crisis) مردها فعل الإنسان سواء كان إرادياً –عمداً– أم لا (صناعية، فنية) وتكون إرادياً بالإهمال، وتتطلب لمواجهتها معونة الأجهزة الدولية كافة"(١) وبهذا التعريف أخذت جامعة الدول العربية(٢).

٢– تعريف هيئة الأمم المتحدة:

"هي حالة مفجعة يتأثر من جرائها نمط الحياة اليومية فجأة، ويصبح الناس بدون مساعدة ويعانون من ويلاتها ويصيرون في حاجة إلى حماية وملابس وملجأ وعناية طبية واجتماعية واحتياجات الحياة الضرورية الأخرى.

٣– تعريف المنظمة الأمريكية لمهندسي السلامة:

"التحول المفاجئ غير المتوقع في أسلوب الحياة العامة بسبب ظواهر طبيعية أو من فعل إنسان، تتسبب في العديد من الإصابات والوفيات أو الخسائر المادية الكبيرة"(٣).

٤– تعريف مجلس الشورى المصري:

"هي حدث ينجم عنه خسائر كبيرة في الأرواح والممتلكات وتلوث للبيئة، وقد تكون إرادية أو غير إرادية، ويتطلب لمواجهتها جهد الدولة وفقاً لحجم الأزمة أو مدى الخسائر التي تنجم عنها"(٤).

---

(١) منظمة الإغاثة الإسلامية: فعاليات البرنامج التدريبي، ص ٣؛ موقع ندوة إدارة الكوارث.
http://disasters.momra.gov.sa.

(٢) منظمة الإغاثة الإسلامية: فعاليات البرنامج التدريبي، ص ٣؛ جميل، الدليل المرجعي للشباب العربي في. مجال الحفاظ على البيئة، جامعة الدول العربية، ص ٢٧٤.

(٣) محمد: الكوارث المفهوم –التصنيف–الخصائص، ص ٦٠؛ موقع ندوة إدارة الكوارث.
http://disasters.momra.gov.sa.

(٤) محمد: الكوارث المفهوم، التصنيف، الخصائص، ص ٦٠.

٥- تعريف المركز الوطني للمعلومات-اليمن:

"اضطراب مأساوي مفاجئ في حياة مجتمع ما، يقع بمنذرات بسيطة أو بدون إنذار، ويتسبب في أو يهدد بوفاة أو إصابات خطيرة أو تشريد أعداد كبيرة من أفراد هذا المجتمع تفوق قدرة وإمكانات أجهزة الطوارئ المختصة والسلطات المحلية حين التعامل معها في الحالات العادية، ومن ثم تتطلب تحريك وحدات مماثلة لها من أماكن أخرى لمساعدتها في مواجهة الأزمة والسيطرة عليها [١].

بعد تعريف الأزمة الاقتصادية ننتقل إلى أسباب هذه الأزمة وهي عبارة عن أسباب طبيعية وأسباب بشرية:

والأسباب أو العوامل الطبيعية كالاتي:

يقصد بالعوامل الطبيعيَّة تلك العوامل التي لم تَكن من صُنْع البشر، وإنَّما هي محصلة ظروف بيئيَّة لم يكن في استطاعة المصريِّين -في حدود قدراتهم المتاحة آنذاك- أن يتحكَّموا فيها، أو يُسيطروا عليها، كان منتهى قدرتهم إزاءَها أن يُخفِّفوا من حدتها، أو يُعالجوا بعضَ آثارها، وقد تعدَّدت تلك العوامل الطبيعيَّة وتنوَّعت، وتفاوتت في مدى خطورتها، وفي حجم تأثيرها كما سيتبين لنا من خلال الفصل التالي:

(١) منظمة الإغاثة الإسلامية: فعاليات البرنامج التدريبي، ص ٣؛ موقع ندوة إدارة الكوارث.
http://disasters.momra.gov.sa.

الفصل الأول

الأسباب الطبيعية للأزمات الاقتصادية

وجهود الدولة في معالجتها

الأول: فيضان النيل وقصوره، وموقف الدولة في معالجته.

الثاني: هجوم الجراد والآفات على الزراعات، وموقف الدولة في معالجتها.

الثالث: الأوبئة والطواعين، وموقف الدولة في معالجتها.

الأول

فيضان النيل وقصور حد الوفاء

لا يوجد نهر في الدنيا له من الفضل على اقليم، ما لنهر النيل من الفضل على مصر وساكنيها، فالتربة المصرية التي تعد من أخصب أنواع التربة في العالم منقول جلها أو كلها من فوق جبال الحبشة البركانية بواسطة فيضان النهر السنوي[١]، ومن ثم فان وادى النيل في شطره المصري – من أسوان حتى البحر المتوسط – تكوين رسوبي حمله النهر من فوق جبال الحبشة ليلقيه في الصحراء مكونا ذلك الوادي الخصيب الذى شهد مولد حضارةٍ من أقدم حضارات الأرض بل أعرقها، صارت منبعاً وأصلاً لكل الحضارات التالية، وكان واضحاً أن هذه الحضارة المبكرة في النضوج والرقى ازدهرت ونمت بفضل نهر النيل، ولا غرابة إذن أن يصبح النهر محط اهتمام المصريين وغيرهم ممن سكن البلاد أو حكمها منذ أقدم العصور حتى يومنا هذا.

ويأتي قصورُ فيضان النيل في مقدِّمة العوامل الطبيعيَّة المسببة للأزمات الاقتصاديَّة، بل وأشدها خطورةً على الإطلاق، فنهر النيل – كما هو معروف – هو المانح الأول للحياة على ذلك الشَّريط الأخضر الملاصِق لضفَّتيه على طولِ مجراه، من أقصى جنوب مصر، حتى مصبِّه شمالاً في البحر المتوسط، وبعيدًا عن الجدل بين مَن يقول بأنَّ مصر هبة النيل، ومن يقول بأنها هِبة المصريِّين، فمما لا شكَّ فيه هو أنَّ اقتصاد مصر الإسلامية كان – في المقام الأوَّل – اقتصادا زراعيًّا، يعتمد اعتمادًا حياتيًّا على الرَّيِّ من ماء النيل، يقول القضاعي فيما نقله عنه ياقوت الحموي[٢]: "ومن عجائب مصرَ النيل، جعله الله لها سقيًا يزرع عليه، ويُستغنى به عن مياه المطر"

النيل وعلاقته بالأزمات الاقتصادية:

كان هبوط النيل عن حد الوفاء وهو ستة عشر ذراعاً، غامرها وعامرها[٣] أو زيادته عن المنسوب العادي للفيضان يمثل خطراً حقيقياً على الحياة المصرية آنذاك، وكارثة قومية يخشى الجميع حدوثها، فإن زاد عن حده العادي أغرق البلاد، فالفيضانات تدمر المزارع والممتلكات، وتزهق الأرواح، وتجرف التربة

---

(١) قاسم عبده: النيل والمجتمع، ص ٧ .

(٢) معجم البلدان، ج٥، ص ٣٣٤.

(٣) المقريزي: المواعظ، ج١، ص ١٧٥ .

السطحية المنتجة، وتُخرب قوام التربة ونسجيها، وتضيف أعباء كبيرة على المزارع عندما يعيد أرضه إلى سابق عهدها، كما أن الفيضانات تُدمر نُظم الري والطرق، وقد تنفق بسببها آلاف رؤوس الماشية(١).

واذا قصر عن الوفاء فات أوان الزراعة، وتأخرت الزراعة، وتقلق الناس وانتابتهم المخاوف من حدوث المجاعات نتيجة لعدم زراعة المحاصيل، ويسارعون في تخزين الغلال التي لديهم ضماناً لقوتهم أثناء الأزمة المتوقعة، أيضاً يسارع التجار إلى تخزين الغلال طمعاً في الحصول على أرباح أكثر عن طريق رفع الأسعار، ولذلك يشتد الإقبال على شراء الغلال بينما يقل المطروح من البضائع في الأسواق ويشتد تزاحم الناس على الأفران وحوانيت بيع الغلال، وكل ما يباع ويشترى من مأكول وملبوس ومشروب(٢)

وينتج ذلك بطبيعة الحال تصعيد خطير في الأسعار ويظهر إلى الوجود ما نعرفه اليوم باسم (السوق السوداء) على حد تعبيرنا المعاصر، ويؤدى ذلك بدوره إلى ارتفاع أجور العمال والمهن والصناع، وكأن هبوط مياه النيل وتعطل الزراعة كارثة قومية تقض مضاجع كل الطبقات ، وبطبيعة الحال يتزايد عدد الفقراء، عقب هذه المجاعات، إذ يضطر الناس لبيع ممتلكاتهم لشراء ما يقتاتون به ومن ثم يدخلون في عداد المعدومين(٣) وتزدحم العاصمة بالوافدين من القرى بحثاً عن الطعام الذى يوزع في القاهرة أحياناً خلال هذه الأزمات(٤). وبالإضافة إلى هذه الفوضى الاقتصادية، كانت نظم الدولة السياسية ترتبك في غالب الأحوال، وأثارت الفتن بين الأمراء من ناحية، وظلم الولاة من ناحية أخرى(٥).

ويمكن القول إن هذا النهر العظيم هو قوام الحياة المصرية وعليه مدارها، فإذا كانت المياه كافية لري الأراضي الزراعية "مرت تلك السنة على خير" أما إذا هبطت مياه النيل انتشرت حالة من الفوضى وحل شبح المجاعات والغلاء، ولكن الغلاء أو المجاعة وما يتبعها من مظاهر الفوضى والاضطراب على شتى المستويات لم تكن هي وحدها في جميع الأحوال ناجمة عن هبوط النهر أو غرق الأراضي الزراعية، بل أن هناك من الأسباب ما يتصل بالأحوال السياسية والاقتصادية والاجتماعية.

---

(١) أبو سمور والخطيب: جغرافية الموارد المائية، ص ١٤٠؛ – موقع ندوة إدارة الكوارث محمد المصطفى، السيول والفيضانات، موقع شخصي:

http://disasters.momra.gov.sa; http://khalidabdallamohamed.jeeran.com.

(٢) المقريزي: اغاثة الأمة، ص ٤١–٤٣ ؛ قاسم عبده: النيل والمجتمع، ص ٥٣–٥٤.

(٣) المقريزي: السلوك، ج٤، ص ٣٧٤– ٣٧٥.

(٤) المقريزي: السلوك، ج٤، ص ٣٧٤– ٣٧٥؛ اغاثة الامة، ص ٣٣ –٣٥.

(٥) المقريزي: اغاثة الامة، ص ٣٧ –٣٨ ؛ عبد الرازق: البذل والبرطلة، ص ٧٢ .

١) الأزمات في مصر:

وفى عهد سلاطين المماليك تكررت المجاعات بمصر والشام، وكانت غالبية هذه المجاعات مرتبطة بنهر النيل وفيضانه السنوي الذي تعتمد عليه الزراعة في البلاد، ويمكن القول بأن تلك الفترة من أهم الفترات المؤثرة في تاريخ مصر والشام.

أولاً: الجفاف في مصر:

وما حدث من مجاعة أو غلاء سنة ٦٦٢هـ / ١٢٦٤ م في عصر السلطان بيبرس البندقداري[١] "إذ توقفت زيادة النيل وتبع ذلك ارتفاع الأسعار وقل الخبز وأكل الناس حشائش الحقول وأوراق اللفت والكرنب حتى دخلت السنة الجديدة محصولاتها فأخذت الأسعار في الهبوط وزالت الازمة "[٢].

ولكن هذه الأزمة لم تكن شيئا يذكر إذا قورنت بالمجاعة التي ألمت بالبلاد فيما بين عامي ٦٩٤- ٦٩٥هـ/١٢٩٥ – ١٢٩٦م التي حدثت أثناء حكم السلطان العادل كتبغا[٣] "عندما قصر النيل عن حد الوفاء، وحلت بالبلاد كارثة المجاعة التي أعقبها الوباء الذى أسكن الألوف التراب كما وصفها بعض أحداثها ابن اياس[٤] فقال "فقد كثر الشح، ووقفت الأحوال واشتد البكاء، وعظم الضجيج في الأسواق من شدة الغلاء، ووصل الأمر بالناس إلى أكل الكلاب والقطط والحمير والبغال، ولم يبقى عند أحد شيء وقيل أن الكلب السمين صار يباع بخمسة دراهم، والقط بثلاثة دراهم وليت الأمر اقتصر على ذلك فقد تساقط الناس صرعى الجوع في الطرقات، وجافت الطرق بجثث الموتى حيث أن المجاعة سرعان ما كانت تجر الوباء وراءها الذى قضى على عدد كبير من السكان" وقد عاصر ابن أيبك الدواداري[٥] هذه المجاعة وأورد لنا وصفا لبعض أحداثها فقال " كان يقول الانسان الفقير لبابة لله، لبابة لله ويموت مكانه، وعادوا يخرجون إلى الكيمان يلتقطون ما يكون مدفونا بها من حبة قمح أو شعير أو فول أو ما أشبه

---

(١) الملك الظاهر ركن الدين بيبرس العلائي البند قداري الصالحي النجمي لقب بأبي الفتوح. سلطان مصر والشام ورابع سلاطين الدولة المملوكية ٦٢٠هـ – ٦٧٦هـ/١٢٢٣- ١٢٧٧م؛ انظر ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج٤، ص ١٥٥.

(٢) النويري: نهاية الأرب، ج٣٠، ص ٥٩-٦٠ ؛ المقريزي: السلوك، ج ٢ ص ٥-٦؛ العيني: عقد الجمان، حوادث سنة ٦٦٢هـ، ج١، ص ٣٧٤-٣٧٦ ؛ ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة، ج٧، ص ٢١٣ .

(٣) الملك العادل زين الدين كتبغا بن عبد الله المنصوري التركي المغلي (٦٤٢ – ٧٠١هـ/١٢٤٥- ١٣٠٢) انظر: النويري: نهاية الارب، ج٣١، ص ١٨٥-١٨٦؛ المقريزي: السلوك، ج١ ق ٣ص ٨١٤ .

(٤) بدائع الزهور، ج١، ق ١، ص ٣٩١.

(٥) كنز الدرر، ج٨، ص ٣٦٣.

ذلك، ولقد نظرت بعيني برا باب البرقية ظاهر القاهرة في الخندق برا السور جماعة كبيرة شبه الوحوش الضارية قد تغيرت عنهم معالم الانسانية، وكل جماعة عندهم قدر يتنظرون الميتات التي تخرج وترمى بكيمان البرقية فيأخذونها بالضراب بينهم من قوى على صاحبه فيطبخونها ويأكلونها " وذكر أيضاً ابن أيبك والمقريزي [١] "أن الناس صارت تأكل القطط والكلاب، بل صار الناس يأكلون بعضهم البعض ويأكلون الأطفال أيضاً" ورغم الحذر الشديد في قبول مثل هذه الأقوال لما قد يكون فيها من المبالغة إلا أنها في النهاية تعطينا انطباعاً عن ما يمكن أن تصير إليه الأمور أثناء تلك الازمات.

ومن أسباب تفاقم الأمور أثناء المجاعة التي حدثت سنة ٦٩٤هـ /١٢٩٥م أن السلطان الأشرف بن قلاوون كان قد فرق المخزون من الغلال على الأمراء قبل موته، فلما قصر النيل على الوفاء، اشترى الوزير الغلال الموجودة في الأسواق لسد حاجة السلطان ومماليكه، وكانت النتيجة أن ارتفعت أسعار القمح بدرجة تتجاوز المنطقي والمعقول، وتكالب الناس على شرائه[٢] .

وعندما حدث جفاف ومجاعة في بلاد الشام ومصر سنة ٦٩٤- ٦٩٥هـ/١٢٩٥-١٢٩٦ م ، أدى ذلك إلى إلحاق أضرار كبيرة بالمزروعات، فقد تلفت كميات كبيرة منها بسبب شح المياه، ومات بسبب المجاعة عدد كبير من الفلاحين، مما كان له أكبر الأثر على انخفاض الإنتاج الزراعي، وزيادة حدة المجاعة[٣] أيضاً في سنة ٧٠٩هـ/١٣٠٩م (عصر السلطان ركن الدين بيبرس الجاشكنير) حدثت مجاعة عقب توقف مياه النيل عن الزيادة.. ولكنها كانت أخف وطأة من المجاعة التي حدثت في عهد السلطان كتبغا، ولكنها كانت من بين أسباب فشل حكم بيبرس الجاشنكير الذي تشاءم الناس بحكمه لما لزمه من هبوط مياه النهر والغلاء[٤]. وفي سنة ٧٣٦هـ/١٣٣٥ م حدثت مجاعة في مصر، ويبدو أن ذلك يرجع إلى حدوث جفاف في مصر في ذلك الوقت[٥]. وقد وصف المقريزي[٦] حالة الناس في هذه

---

(١) السلوك، ج٢، ص ٢٦٧؛ كنز الدرر، ج٨، ص ٣٦٣ .

(٢) الذهبي: دول الاسلام، ج٢، ص ٢٢١ ؛ المقريزي: السلوك، ج٢، ص ٢٦١ ؛ السيوطي: حسن المحاضرة، ج٢، ص ٣٦٧؛ ابن آيبك: كنز الدرر، ج٨، ٣٥٦.

(٣) بيبرس المنصوري: مختار، ص ١٠١- ١٠٢؛ النويري: نهاية الأرب، ج ٣١، ص ١٨٢؛ ابن الجزري: تاريخ، ج ١، ص ٢٨٠ – ٢٨٣ ؛ الذهبي: دول الإسلام ،ج ٢، ص ٢٢١-٢٢٢؛ ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ١٩٦-٢١١؛ المقريزي: السلوك، ج٢، ص ٢٦٨؛ ابن أيبك: كنز الدرر، ج ٨، ص ٣٦٣ – ٣٦٤.

(٤) المقريزي: السلوك، ج٢، ص ٤٣١؛ ابن ايبك: الدر الفاخر، ص ١٦٦؛ قاسم: النيل والمجتمع، ص ٥٦ .

(٥) ابن الجزري: تاريخ، ج ٣، ص ٨٦٤ – ٨٦٥ ؛ اليوسفي: نزهة الناظر، ص ٢٩٤ –٣٠١.

(٦) اغاثة الامة، ص٣٤.

المجاعة بقوله: "وعدم القمح من الأسواق، وصار على كل دكان من دكاكين الخبازين عدة من الناس، وصار الخبز كالكسب من السواد، فرتب الوالي[1] على كل حانوت أربعة من أعوانه معهم المطارق لدفع الناس عن حوانيت الخبز لئلا ينهب"

وفي سنة ٧٧٥هـ/١٣٧٣ م انخفض مستوى ماء نهر النيل، فحدث جفاف في مصر، وقلق الناس لذلك، وخرج القضاء والفقهاء وغيرهم إلى جامع عمرو وتضرعوا إلى الله لزيادة النيل، وخرجت الناس إلى رباط الآثار النبوية، خارج مدينة مصر، وقرأوا القرآن الكريم، وتضرعوا إلى الله تعالى مرةً أخرى، ثم عادوا، واستمر الجفاف حتى جفت الخلجان من الماء، فارتفعت الأسعار، وغلب اليأس على الناس، فنودى بين الناس بالتوبة عن المعاصي، وصيام ثلاثة أيام تضرعاً إلى الله تعالى، الإثنين، والثلاثاء، والأربعاء، وخرج الناس في آخر أيام هذا الشهر إلى قبة النصر – خارج القاهرة – وترك الكثير أعمالهم، ومعهم الأطفال، ونصب هناك منبراً، ونزل الأمير أقتمر عبد الغنى النائب[2]، في عدة من الأمراء، فخطب ابن القسطلاني خطيب جامع عمرو خطبة الاستسقاء، وصلى صلاة الاستسقاء، وكشف رأسه عند الدعاء، فكشف الناس جميعاً رءوسهم، وتضرعوا بالدعاء إلى الله وارتفعت أصواتهم بالاستغاثة، وفاضت أعينهم بالبكاء، فكان مشهداً عظيماً، فلم يسقوا وعادوا خائبين واستمر عدم وجود الغلال[3]،

ولما استهلت سنة ٧٧٦هـ/١٣٧٤-١٣٧٥ م حدثت المجاعة في مصر واشتد الغلاء وظهر الوباء، وقد وصف المقريزي [4] حالة الناس في هذه المجاعة بقوله: " وكثُر موت الفقراء والمساكين بالجوع ، فكنت أسمع الفقير يصرخ بأعلى صوته: للّه، لبابه قدر شحمة أذني، أشمها وخذوها فلا يزال كذلك حتى يموت، هذا وقد توقفت أحوال الناس من قلة المكاسب، لشدة الغلاء، وعدم وجود ما يقتات به "، وفي سنة ٧٨٧هـ/١٣٨٥ م انخفض مستوى مياه نهر النيل، فحدث الجفاف في مصر[5].

---

(١) يتحدث في أمور البلاد مع السلطان ويصدر التحكم في مكان ولايته انظر: القلقشندي: صبح الأعشى، ج٤، ص ٢٣.

(٢) نائب السلطة في إمرة ٣٠٠٠ جندي وتولى نيابة مصر ثم الشام انظر: ابن حجر: الدرر الكامنة، ج١، ص ٣٩٢.

(٣) المقريزي: السلوك، ج٤، ص ٣٦٢-٣٦٣.

(٤) السلوك، ج ٤، ص ٣٧٣ – ٣٧٤.

(٥) المقريزي: السلوك، ج ٥، ص ١٧٩؛ ابن شاهين: نيل الأمل، ج ٢، ص٢٣٢.

ثانياً: الفيضان في مصر:

تعرضت مصر خلال مدة الدراسة لعدد كبير من السيول والفيضانات، وذلك بسبب عدم وجود سدود على نهر النيل وتمكن الدولة فيه، مثلما حدث بعد بناء السد العالي حديثاً، وجهود الدولة في التحكم في نهر النيل.

في شهر جمادى الأولى سنة ٦٩٨هـ/١٢٩٩ م هطلت الأمطار بغزارة على مدينة القاهرة، فحدث سيل بها، أدى إلى إتلاف قبور عدة في منطقة القرافة وباب النصر، وألحق أضراراً متفاوتة في الأملاك والعمائر المجاورة(١) وفي شهر محرم سنة ٧١٦هـ/١٣١٦ م هطلت الأمطار بغزارة على مدينة بلبيس(٢)، فحدث بها سيل عظيم أغرق أماكن عدة فيها وكان بسبب هدة عظيمة شبه الصاعقة(٣)

وفي شهر رجب سنة ٧١٧هـ/١٣١٧ م فاض نهر النيل، فتسبب في هلاك بعض الأشخاص، وأغرق أماكن عدة، وألحق أضراراً متفاوتة في المنشآت والممتلكات والبساتين، وقطع الطريق في القاهرة ومصر في عدة مواضع، حتى أمر السلطان قطع الخلجان التي عادتها تقطع عيد الصليب(٤)، وكان من عادة قطعها ينقص نهر النيل، ولكن لم ينقص واستمر في الزيادة وعم فساده لعدم الاهتمام بالجسور(٥) وفي يوم السبت ١٧ رمضان سنة ٧٢٣هـ/١٣٢٣ م فاض نهر النيل، وأغرق أماكن عدة في الصعيد، فألحق أضراراً متفاوتة في المنشآت والممتلكات، وكثر الخوف من غرق القاهرة، واشتد الاحتراس وهم السلطان لاستدعاء المهندسين لعمل جسر يحمى القاهرة من الغرق(٦)

وفي شهري شعبان ورمضان سنة ٧٢٤هـ /١٣٢٤ م فاض نهر النيل، وأغرق أماكن عدة، فألحق أضراراً متفاوتة في المنشآت والممتلكات وخاصة في منطقة الفيوم لانقطاع جسرها، فغرقت

---

(١) المقريزي: السلوك، ج ٢، ص ٣١١؛ العيني: عقد الجمان، ج ٣، ص ٤٥٩.

(٢) مدينة بينها وبين فسطاط مصر عشرة فراسخ على طريق الشام يسكنها عبس بن غيض. انظر: ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج١، ص ٤٧٩.

(٣) المقريزي: السلوك، ج ٢، ص ٥١٥.

(٤) عيد يحدث عند المسيحين في السابع عشر من شهر توت وهو من الأعياد المحدثة وسببه عندهم ظهور الصليب على يد هيلانة أم قسطنطين؛ انظر: المقريزي: المواعظ، ج١، ص ٧٣٨ .

(٥) النويري،: نهاية الأرب: ج ٣٢، ص ١٩٤؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج ١٤، ص ٩٣؛ المقريزي: السلوك،. ج ٢، ص ٥٢٤.

(٦) المقريزي: السلوك، ج ٣، ص ٦٧.

الاقصاب والمعاصر، وشون الغلال، وصارت السفن لا تجد برا تضرب فيه الوتد من قوص إلى القاهرة(١) وفي شهر رمضان سنة ٧٢٥هـ/١٣٢٥ م هطلت الأمطار بغزارة على مدينة القاهرة، وحدث سيل عظيم صب معظمه في نهر النيل، وأدى ذلك إلى تلوثه، واصفرار لونه(٢) وفي يوم عيد الأضحى الأحد ١٠ ذي الحجة سنة ٧٢٧هـ/١٣٢٧ م هطلت الأمطار بغزارة على مدينة بلبيس، فحدث بها سيل عظيم، مما جعل الناس يهربون من شدته، وتعطلت شعائر صلاة عيد الأضحى، وذبح الأضحية في ذلك اليوم، وقد ألحق هذا السيل بالممتلكات أضراراً فادحة (٣) وفي شهر شوال سنة ٧٢٨هـ /١٣٢٨ م هطلت الأمطار بغزارة على مصر، وكان أشدها ما حدث بمدينة بلبيس والقاهرة، فحدثت بهما سيول عظيمة، لم يعهد مثلها، مما أدى إلى تلف عامة السقوف(٤).

وفي ليلة الاثنين ١٢ ربيع الثاني سنة ٧٣٨هـ/١٣٣٧ م هطلت الأمطار بغزارة على مدينة القاهرة استمر لمدة ستة أيام متوالية، فحدث بها سيل عظيم، فهدم عدة أماكن، وسال الجبل وأعقب المطر رياحا عاصفة، واشتد البرد على خلاف العادة، وسقط الثلج وكثر تسخير الناس للعمل في عمائر السلطان بالقلعة، وكثرت الاستغاثة من الظلم والعناء(٥). وفي شهر رمضان سنة ٧٣٨هـ/١٣٣٨م فاض نهر النيل، وأغرق أماكن عدة خاصة في منطقة بولاق، وألحق أضراراً متفاوتة في المنشآت(٦) وفي شهر ربيع الأول سنة ٧٤٤هـ/١٣٤٣ م فاض نهر النيل، فأغرق أماكن عدة، وتقطعت الجسور، وفسدت الأقصاب، والمخازن وسائر المزروعات الصيفية، فاهتم الوالي لعمل الجسور(٧) لحماية القاهرة .

وفي سنة ٧٤٥هـ/١٣٤٤ م هطلت الأمطار بغزارة على مصر، واستمرت لمدة خمسة أيام متواصلة، وتسببت بإلحاق أضرار فادحة بالمزروعات(٨) وفي شهر ذي القعدة سنة ٧٤٦هـ/١٣٤٦ م

(١) ابن كثير: البداية والنهاية، ج ١٤، ص ١٢٩؛ المقريزي: السلوك، ج ٣، ص ٧٥.

(٢) المقريزي: السلوك، ج ٣، ص ٨٢؛ السيوطي: حسن المحاضرة، ج ١، ص ٣١٦.

(٣) الذهبي: دول الإسلام، ج ٢، ص ٢٧١؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج ١٤، ص ١٤٩.

(٤) المقريزي: السلوك، ج ٣، ص ١١١.

(٥) المقريزي: السلوك، ج ٣، ص ٢٤٢.

(٦) المقريزي: السلوك، ج ٣، ص ٢٤٤.

(٧) المقريزي: السلوك، ج ٣، ص ٤٠٠-٤٠١.

(٨) المقريزي: السلوك، ج ٣، ص ٤٢١؛ السخاوي: الذيل التام، ج ١، ص ٦٩؛ ابن شاهين: نيل الأمل، ج ١، ص ١٠٣-١٠٥.

هطلت الأمطار بغزارة على مصر، حتى وصلت إلى الاسكندرية والبحيرة والغربية والشرقية والمنوفية وأفسد من الدور والزروع شيئا كثيراً سيما الفول، فإنه تلف عن آخره[١]

وفي شهر جمادى الأولى سنة ٧٤٩هـ/١٣٤٨ م فاض نهر النيل، فأغرق أماكن عدة، حتى غرقت المقاتي، والتقى البحر برأس الخليج الذي استجد فيه الماء، ثم علا الماء على الجسر حتى كاد أن يقطعه [٢] وفي سنة ٧٥٥هـ/١٣٥٤ م فاض نهر النيل، فأغرق أماكن عدة في كافة نواحي مصر، وخاصة في مدينة القاهرة والفيوم، وألحق أضراراً فادحة بالمزروعات والممتلكات والمنشآت، ومن شدة هذا الفيضان كان الناس ينتقلون من مكان لآخر بالمراكب، وفسدت الأقصاب والنيلة، وتقطعت الجسور، وغرقت البساتين، والأجران والمخازن، وتهدمت دور كثيرة مما يجاور النيل والخلجان، وكانت " لمطرية والأميرية والمنيا وشبرا مع جميع الضواحي ملقة[٣] واحدة متصلة بالنيل"[٤] وفي سنة ٧٥٦هـ/١٣٥م هطلت الأمطار بغزارة على مدن الوجه البحري، فحدث بها سيول، قتل عدد كثير من الاغنام، وهلك الزراعات، وأغرقت عدة مراكب[٥]، وفي شهر ربيع الأول سنة ٧٧٣هـ/١٣٧١ م فاض نهر النيل مما أدى إلى غمر المناطق المجاورة له بالمياه[٦] وتقطع طرق المواصلات، وتأخرت الزراعة .

وفي شهر ربيع الأول سنة ٧٧٨هـ/١٣٧٦ م فاض نهر النيل، فأغرق أماكن عدة في الحسينية[٧] ما يقرب من ألف دار، وكان السبب في ذلك أن أحمد بن قايماز[٨] قد أخذ مكان جعله بحيرة، وغفل عنها فتسببت في الغرق[٩] وفي سنة ٧٧٩هـ/١٣٧٧ م هطلت الأمطار بغزارة على مدينة القاهرة، فحدث سيل فيها، ولم تذكر المصادر مدى الأضرار التي أحدثها[١٠] وفي شهر جمادى الثاني سنة

---

(١) المقريزي: السلوك، ج ٤، ص ١٨؛ السخاوي: الذيل التام، ج ١، ص ٧٨؛ ابن شاهين: نيل الأمل، ج ١، ص ١٢١.

(٢) المقريزي: السلوك، ج ٤، ص ٧٥– ٧٨؛ ابن شاهين: نيل الأمل: ج ١، ص ١٦٩.

(٣) (الملقة) (الصفاة الملساء وما استوي من الأرض) انظر : المعجم الوسيط: ج ٢، ص ٦٩١.

(٤) المقريزي: السلوك، ج ٤، ص ٢١٤؛ ابن شاهين: نيل الأمل، ج ١، ص ٢٧٦ – ٢٧٧.

(٥) المقريزي: السلوك، ج ٤، ص ٢٢٢؛ ابن قاضي شهبة: تاريخ، ج ٢، ص ٧٨؛ ابن شاهين: نيل الأمل، ج ١، ص ٢٨٥.

(٦) المقريزي: السلوك، ج ٤، ص ٣٤٥.

(٧) الحسينية تقع بجوار قناطر الأوز والخليج الكبير بالقاهرة انظر: المقريزي: السلوك، ج ٥ ص ٣.

(٨) ا المصرى الأستادار مات في ربيع الأول سنة ٧٣٨ انظر: ابن حجر: الدرر الكامنة، ج١، ص ٢٣٧.

(٩) المقريزي: السلوك، ج ٥ ص ٣؛ السخاوي: الذيل التام، ج ١، ص ٢٨٨؛ ابن شاهين: نيل الأمل، ج٢، ص ١١٠.

(١٠) المقريزي: السلوك، ج ٥ ص ٣٢؛ ابن شاهين: نيل الأمل، ج ٢، ص ١٢٧.

٧٨١هـ/١٣٧٩ م فاض نهر النيل، فأغرق أماكن عدة، وعدة بساتين، وألحق أضراراً فادحة بالممتلكات والمزروعات[١] وفي شهر رجب سنة ٧٨٣هـ/١٣٨١ م فاض نهر النيل، فأغرق أماكن عدة، وألحق أضراراً فادحة بالمزروعات[٢] وفي شهر رمضان سنة ٧٨٣هـ/١٣٨١م هطلت الأمطار بغزارة على مدينة القاهرة، فحدث سيل عظيم فيها، وبلغ ارتفاع المياه إلى حد أن الخيول خاضت فيه إلى بطونها، وقد أحدث هذا السيل أضراراً فادحة بالمزروعات[٣] وفي شهر رجب سنة ٧٨٥هـ ١٣٨٣ م فاض نهر النيل، فأغرق أماكن عدة، وألحق أضراراً فادحة بالممتلكات وانتدب بعض الأمراء لسد مقاطع الماء[٤].

٢) الأزمات في الشام:

شهدت بلاد الشام خلال مرحلة الدراسة موجات عنيفة من الجفاف والتي تلاها في أحيان كثيرة حدوث المجاعات بسبب الجفاف والآفات الزراعية.

أولاً: الجفاف في الشام:

في سنة ٦٦٠هـ/١٢٦٢ اشتد غلاء الأسعار في بلاد الشام بشكل كبير جداً، وانتشرت المجاعة، وخاصة في المدن الرئيسية في الشام[٥] كدمشق وحلب وحماة، وهلك في هذه المجاعة أعداد كبيرة من الناس، وفي سنة ٦٧٤هـ/١٢٧٥م حدث جفاف في مدينة دمشق، واستسقى أهلها مرتين فلم يسقوا[٦] وفي سنة ٦٩٤هـ/١٢٩٥ م انحبست الأمطار في بلاد الشام وحصل جفاف، أدى إلى ارتفاع أسعار المواد الغذائية بشكل كبير، واستمر هذا الجفاف إلى شهر صفر ٦٩٥هـ/١٢٩٥ م حيث نزلت الأمطار بشكل كبير ومتواصل، ومن أهم المناطق التي تعرضت للجفاف بشكل كبير دمشق وحوران و القدس ونابلس والمناطق الساحلية [٧]، قال ابن الجزري[٨] واصفاً هذا الجفاف: "وفيها تأخر المطر بدمشق وبلاد حوران

(١) المقريزي: السلوك، ج ٥، ص ٦٨؛ ابن شاهين: نيل الأمل، ج ٢، ص ١٥٦.

(٢) المقريزي: السلوك، ج ٥، ص ١٢٣؛ ابن شاهين: نيل الأمل، ج ٢، ص ١٨١.

(٣) المقريزي:السلوك، ج ٥، ص ١٢٧؛ ابن حجر: إنباء الغمر،ج٢، ص٥٧؛ السيوطي: حسن المحاضرة، ج١ ص ٣١٧.

(٤) المقريزي: السلوك، ج ٥، ص ١٥٤ .

(٥) النويري: نهاية الأرب، ج ٣٠، ص ٣٩؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج ١٣ .

(٦) ابن كثير: البداية والنهاية ، ج ١٣، ص٣١٥.

(٧) النويري: نهاية الأرب، ج ٣١، ص ١٨٢ ؛ الذهبي: دول الإسلام، ج ٢، ص ٢٢٢ .

(٨) حوادث الزمان، ج ١، ص ٢٨٠– ٢٨٣ .

في هذا العام، بحيث دخل فصل الشتاء، والناس في ضيق عظيم، وتألم، وضيق في الأسعار وغلاء وزيادة، لا سيما في بلاد القدس ونابلس، والقرى في حوران في شدة أيضاً من أمر المياه وقلتها، بحيث بلغنا أن الرجل المسافر يريد أن يسقي دابته بدرهم ويشرب بربع درهم...، وظهر القحط في الأرض، وقل العشب والمرعى في أرض الشام" وقال المقريزي(1): "وتأخر المطر ببلاد القدس والساحل حتى فات أوان الزرع، وجفت الآبار، ونضبت عين سلوان بالقدس .

وفي بلاد الشام حيث تأخر المطر إلى أن دخل فصل الشتاء في السادس من صفر وجفت المياه فتزايدت الأسعار في سائر بلاد الشام ثم أن الشيخ شرف الدين أحمد بن إبراهيم بن سباع الفزاري قرأ صحيح البخاري تحت قبة النسر بالجامع الأموي بدمشق في التاسع من صفر فسقط المطر في تلك الليلة واستمر عدة أيام وعقبه ثلج، فسر الناس ذلك، إلا أن الأسعار تزايدت ثم انحطت "وفي سنة ٦٩٧هـ /١٢٩٧ م حدث جفاف في بلاد الشام، وكان أشده الذي حدث في مدينة دمشق والقدس والخليل(2)، ونتيجة لاشتداد أمر هذا الجفاف "غارت الأعين والآبار ونقصت مياه الأنهر بدمشق(3) فقد حدث انخفاض في مستوى مياه نهر ثورا بحيث أصبحت المياه فيه في بعض الأماكن لا تصل إلى" ركبة الإنسان"، أما نهر بردى فإنه لم " يبق فيه مسكة(4) ماء ولا يصل إلى جسر جسرين"(5) ولم تخف حدة هذا الجفاف إلا في أوائل سنة ٦٩٨هـ/١٢٩٨ م عندما نزل الغيث لمدة سبعة أيام متصلة(6) .

وفي سنة ٧٠٤هـ/١٣٠٤ م انحبست الأمطار، " فأجدبت الشام من الغور إلى العريش، وجفت المياه(7) وكانت " بعض الضياع لم يوجد بها ماء لمشرب أهلها"(8)، وقد استمر هذا الجفاف إلى بداية

---

(١) السلوك، ج٢، ص ٢٦٨ .

(٢) ابن الجزري: تاريخ حوادث الزمان، ج ١، ص ٣٩٤؛ ابن كثير: البداية، ج ١٣، ص ٤١٧؛ المقريزي: السلوك، ج ٢، ص ٢٩٢.

(٣) ابن الجزري: تاريخ حوادث الزمان، ج ١، ص ٣٩٤.

(٤) و المسكة: (البقية، يقال ما في سقائه مسكة من ماء قليل منه) انظر : المعجم الوسيط: ج ٢، ص ٦٦٠.

(٥) جسرين: (بكسر الجيم والراءِ من قرى غُوطة دمشق، وهي قرية بالقرب قرية سقبا) انظر: ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٢، ص ١٦٣؛ ابن طولون: ضرب الحوطة، ص ١٥٥.

(٦) ابن الجزري: تاريخ، ج ١، ص ٤٢٤.

(٧) المقريزي: السلوك، ج ٢، ص ٣٨٣-٣٨٤.

(٨)) بيبرس المنصوري: التحفة المملوكية فى الدولة التركية، ص ١٧٦.

سنة ٧٠٥هـ/١٣٠٥ م [١] وفي أواخر سنة ٧٠٦هـ/١٣٠٧ م انحبست الأمطار مرة أخرى في بلاد الشام، "فما خرج مطر ولا نبع عيون"[٢]، ولم ينقطع هذا الجفاف إلا في السنة التالية في رمضان ٧٠٧هـ/١٣٠٨م) عندما أرسل الله الغيث المتتابع[٣].

وفي سنة ٧١٩هـ/١٣١٩ م كانت نسبة الأمطار المتساقطة قليلة مما أدى إلى حدوث جفاف في بلاد الشام، وقد جفت جراء ذلك قناة زملكا[٤]، وجف وادي مرج شعبان[٥] واستسقى الناس في دمشق، حتى أغاثهم الله بالمطر الغزير[٦]. و لم تحدد المصادر تاريخ توقف الجفاف، وفي سنة ٧٢٣هـ/١٣٢٢ م انحبست الأمطار في بلاد الشام، وأجدبت المنطقة الممتدة من دمشق إلى حلب، وأدى ذلك إلى جفاف الينابيع[٧] " ولم ينبت شيء من الزراعات إلا القليل النادر، واستسقى الناس في هذه البلاد، فلم يسقوا"[٨]، ولم تحدد المصادر تاريخ نهاية الجفاف، وفي سنة ٧٤٧هـ/١٣٤٦ م انحبست الأمطار في كافة بلاد الشام فحدث جفاف في المنطقة [٩]، ولم تحدد المصادر تاريخ نهاية هذا الجفاف .

وفي سنة ٧٤٨هـ/١٣٤٧ م انحبست الأمطار في بلاد الشام، وحدث جفاف وقلت الغلال، وكانت أشد المناطق المتأثرة بهذا الجفاف مدينتي دمشق والقدس[١٠].

وقال ابن كثير[١١] وهو يصف هذا الجفاف: "وإذا سافر أحد يشق عليه تحصيل الماء لنفسه ولفرسه ودابته، لأن المياه التي في الدرب كلها نفدت" وفي سنة ٧٥٤هـ/١٣٥٣ م انحبست الأمطار في عامة بلاد الشام، وحدث جفاف في المنطقة ولم تحدد المصادر تاريخ نهاية الجفاف[١٢]، وفي أواخر سنة (٧٦٠هـ/١٣٥٩ م) انحبست الأمطار ببلاد الشام، وحدث جفاف شديد، وانخفض منسوب مياه الأنهار،

---

(١) المقريزي: السلوك، ج ٢، ص ٤٠٢.

(٢) الدويهي: الأزمنة، ص ١٦٤.

(٣) ابن كثير: البداية، ج ١٤، ص ٥٢.

(٤) زملُكا: (قرية كبيرة بغوطة دمشق شرابها من نهر ثور) انظر: ابن طولون: ضرب الحوطة، ص ١٥٧.

(٥) الذهبي: العبر فى خبر من غبر، ج ٤، ص ٥٢.

(٦) ابن كثير، البداية والنهاية، ج ١٤، ص ١٠٦.

(٧) شيخ الربوة: نخبة الدهر، ص ٨٤– ٨٥.

(٨) أبو الفداء: المختصر، ج ٢، ص ٤٣٩.

(٩) المقريزي: السلوك، ج ٤، ص ٤٠.

(١٠) ابن الوردي: تاريخ ابن الوردي، ج ٢، ص ٣٣٧.

(١١) البداية والنهاية، ج ١٤، ص ٢٥٨.

(١٢) المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج ٤، ص ١٨٦.

وحدث نقص حاد في المياه، وخاصة في دمشق وحوران، ووصف ابن كثير[١] هذا الجفاف بقوله: "ولا يحصل لأحد من الناس سقي إلا بكلفة عظيمة ومشقة، ومبلغ كثير، حتى كاد الناس يقتتلون عليه بالأيدي والدبابيس"[٢] ولم تحدد المصادر تاريخ نهاية الجفاف، وفي سنة (٧٧٧هـ/١٣٧٥ م) حدثت مجاعة في بلاد الشام، وبشكل خاص في مدينة دمشق وحلب، ومع شدة الغلاء اضطر الناس لأكل الميتات والقطط والكلاب، بل ذكر المؤرخون[٣] أن بعض الناس أكل لحم البشر من شدة الجوع، وباع بعض الفقراء أولادهم ليحصلوا من ثمنهم لقمة تسد رمق جوعهم، ولا يتصور حدوث مثل هذه المجاعة إلا بسبب حدوث جفاف في المنطقة، ومما يؤكد صحة ذلك أنه كان هناك غلاء في الأسعار في مصر والحجاز[٤] في ذلك الوقت. ومما يؤكد ذلك أيضاً أن السنوات من سنة (٧٧٥ – ٧٧٧هـ/١٣٧٣ – ١٣٧٥ م) كانت توجد موجة جفاف عام في المنطقة[٥]، ولم تحدد المصادر تاريخ نهاية هذه المجاعة، وفي سنة (٧٨٢هـ/١٣٨٠ م) حدث جفاف في عامة بلاد الشام بسبب انحباس الأمطار، وعانت منه مدينة دمشق والقدس بشكل خاص، إذ غلت أسعار القمح فيهما بشكل كبير[٦] ولم تحدد المصادر تاريخ نهاية هذا الجفاف.

---

(١) البداية والنهاية، ج ١٤، ص ٣٠٧ .

(٢) الدبوس: (عمود على شكل هراوة مدملكة الرأس) المعجم الوسيط، ج ١، ص ٢٧٠ .

(٣) ابن العراقي: الذيل على العبر، ج ٢، ص ٤٠٢؛ المقريزي: السلوك، ج ٤، ص ٣٩١؛ ابن حجر: إنباء الغمر، ج ١، ص ١٠٤ ؛ السخاوي: الذيل: ج ١، ص ٢٨١ ؛ ابن شاهين: نيل الأمل، ج ٢، ص ١٠٦ .

(٤) ابن قاضي شهبة: التاريخ، ج ٢، ص ٤٧٨ ؛ ابن حجر: إنباء الغمر، ج ١، ص ١٥٤ .

(٥) المقريزي: السلوك ج ٤ ص ٣٦٣– ٣٧٥ .

(٦) ابن قاضي شهبة: التاريخ، ج ٣، ص ٣٩؛ ابن حجر: إنباء الغمر، ج ٢، ص ٢١٩ .

ثانياً: الفيضان في الشام.

في سنة ٦٤١هـ/١٢٤٣ م حدث فيضان في مدينة دمشق، ووصلت مياهه إلى مسجد العقيبة[(١)]، وقد وصف الذهبي[(٢)] هذا الفيضان بقوله: " وفيها جاءت بدمشق الزيادة الكبرى التي ما سمع بمثلها فوصلت إلى حائط جامع العقيبة "، ولم تحدد المصادر أي الأنهار فاض .

وفي سنة ٦٥٣هـ/١٢٥٥م حدث سيل في مدينة دمشق، وقد بلغ ارتفاع الماء في منطقة سوق الفاكهة بمنطقة الصالحية ستة أذرع[(٣)]، وفي يوم الأحد ١٢ شوال ٦٦٩هـ/٢٣ مايو ١٢٧١م حدث سيل عظيم في مدينة دمشق [(٤)] في حين أن هناك رواية أخرى ذكرها بيبرس المنصوري [(٥)] ترجع تاريخ السيل إلى ٩ شوال من العام نفسه، ويذكر ابن أيبك والنويري[(٦)] أن سبب حدوث هذا السيل ذوبان الثلوج فوق جبال بعلبك- سلسلة جبال لبنان الشرقية- بفعل هطول كميات كبيرة من الأمطار فوقها، مما جعل الثلوج تذوب ويحدث سيل في المنطقة وهلك عشرة ألاف نفس .

وفي شهر شعبان سنة ٦٨٣هـ/١٢٨٤ م ، هطلت الأمطار بغزارة على مدينة دمشق، فزادت مياه نهر بردى، ففاضت، وأغرقت عدداً كبيراً من الناس والحيوانات والعتاد العسكري، فقد كان يخيم في المنطقة المجاورة للنهر مجموعة من أفراد الجيش المملوكي [(٧)] وقد أسهب المؤرخون في وصف هذا الفيضان والسيول الناتجة عنه، قال بيبرس المنصوري [(٨)] " فجاء سيل حتى أغرق البساتين والدور، ومات خلق لا يحصى " وقال النويري[(٩)]: "أمطرت السماء، في أول الليل، وتوالى المطر وهطل وكثر، واشتد صوت الرعد، وتوالى البرق طول الليل إلى أول النهار، ثم أقبل السيل وارتفع، حتى بلغ إلى حد السيل

---

(١) جامع العقيبة يقع بحي العقيبة بمدينة دمشق انظر: الذهبي: دول الإسلام: ج ٢، ص ١٥٦.

(٢) دول الإسلام: ج ٢، ص ١٥٦.

(٣) ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج ٥، ص ٢٦٠.

(٤) ابن عبد الظاهر: الروض، ص ٣٨٤-٣٨٥ ؛ الصقاعى: وفيات الأعيان: ص ٧٠ ؛ الذهبي: تاريخ الاسلام، ج ٤٩، ص ٥٥؛ دول الاسلام، ج٢، ص ١٩٠؛ المقريزي: السلوك، ج ٢، ص ٧٢؛ ابن سباط: تاريخ، ج١، ص٤٣٢.

(٥) مختار الأخبار، ص ٤٥.

(٦) نهاية الأرب، ج ٣٠، ص ١١٤ ؛ كنز الدرر، ج ٨، ص ١٦٠.

(٧) الذهبي،: تاريخ الإسلام، ج ٥١، ص ١١؛ دول الإسلام، ج ٢، ص ٢٠٧؛ المقريزي: السلوك، ج ٢، ص ١٨٥؛ ابن أيبك: كنز الدرر، ج ٨، ص ٢٦٥؛ ابن العماد الحنبلي: شذرات، ج ٧، ص ٦٦٦.

(٨) مختار الأخبار: ص ٨٤ .

(٩) نهاية الأرب، ج ٣١، ص ٨٠ .

الذي ذكر في سنة تسعة وستين وستمائة، وحمل جميع أثقال من برز ثقله من الأمراء المصريين والجند، وحمل الخيل والجمال والصناديق وغير ذلك، وصدم السيل باب الفراديس، فكسر أقفاله، وما خلفه من المتاريس، ودخل الماء إلى المدرسة المقدمية [١] وبقي كذلك حتى ارتفع النهار " وقد تكرر هطول الأمطار بغزارة على مدينة دمشق، بعد يوميين من هذه الحادثة في الجمعة ٢٢ شهر شعبان ٦٨٣هـ/١٢٨٤ م ، فحدث سيل جديد في المدينة ، وخاصة في منطقة الصالحية، وأدى ذلك إلى هدم مساكن عدة في المدينة، وتلوث الأنهار بالأتربة وغيرها [٢]

وفي سنة ٦٨٥هـ/١٢٨٦ م هطلت الأمطار بشكل غزير على مدينة دمشق، فحدثت سيول عدة في المدينة، وخاصة في منطقة الصالحية، ولم تفصل المصادر في ذكر هذه الحادثة [٣] وفي شهر صفر سنة ٦٩٢هـ/١٢٩٣ م هطلت الأمطار بغزارة على مدينة الرملة، فحدث بها سيل عظيم، وزادت المياه في نهر العوجا [٤] ففاض وأحدث أضراراً متفاوتة، وتكسرت أحجارها، وقد قضى السيل على ١١ أسداً [٥] وفي شهر رجب سنة ٦٩٢هـ/١٢٩٣ م هطلت الأمطار والثلوج بشدة على مدينة بعلبك، فوقع فيها سيول " خارجة عن الحد " وقد أحدثت هذه السيول أضراراً متفاوتة بالمدينة [٦]. وفي سنة ٦٩٩هـ/١٢٩٩ م حدث سيل في قرية قرتيا بفلسطين، وأدى إلى إتلاف مجموعة كبيرة من العتاد العسكري للجيش المملوكي المتواجد في تلك المنطقة جرت هذه الحادثة خلال المناوشات العسكرية بين دولة المماليك والتتار بقيادة غازان الذي هاجم بلاد الشام في ذلك الوقت [٧] وقد وصف العيني [٨] هذا السيل بقوله: "واتفق في تلك المنزلة أمر غريب من مجيء سيل عظيم من رءوس الجبال في ضحوة النهار على غفلة فأخذ من

---

(١) المدرسة المقدمية الجوانية: (تقع داخل باب الفراديس الجديد، و منشئها الأمير شمس الدين محمد بن المقدم) انظر: النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس، ج ١، ص ٤٥٦.

(٢) النويري: نهاية الأرب، ج ٣١، ص ٨٠؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، ج ٥١، ص ١٢؛ ابن الفرات: تاريخ، ج ٨، ص ٧-٨ ؛ المقريزي: السلوك، ج ٢، ص ١٨٥.

(٣) ابن كثير: البداية والنهاية، ج ١٣، ص ٣٦١، و ص ٢٠٩٠.

(٤) نهر العوجا: (نهر بين أرسوف والرملة في فلسطين). ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٤، ص ١٨٨.

(٥) المقريزي: السلوك، ج ٢، ص ٢٤٠؛ ابن الفرات: تاريخ، ج ٨، ص ١٥٤.

(٦) ابن الجزري: تاريخ، ج ١، ص ١٥٢ ؛ المقريزي: السلوك، ج ٢، ص ٢٤١ .

(٧) ينظر: بيبرس المنصوري: مختار، ص ١١٦؛ ابن أيبك: كنز، ج ٩، ص ٤٥-٤٦؛ المقريزي: السلوك، ج ٢، ص ٣١٧-٣١٨ .

(٨) عقد الجمان، ج ٤، ص ٨ .

الجمال، والخيم والأثقال شيئاً كثيراً، فوقعت ضجة عظيمة في العسكر،...، فاستمر ذلك إلى وقت العصر من ذلك اليوم، وافسد حال جماعة كبيرة من العسكر، ومنهم من أصبح فقيراً لا يملك شيئاً " وفي شهر صفر سنة ٧٠٠هـ /١٣٠٠ م هطلت الأمطار بغزارة على بلاد الشام، فذابت الثلوج على قمم الجبال القريبة لمنطقة نهر العوجا، ونتيجة لذلك زادت مياه النهر وفاض، وألحق أضراراً فادحة بالجيش المملوكي الذي كان متواجداً في المنطقة آنذاك (١)؛ وفي شهر صفر سنة ٧١٦هـ/١٣١٦ م هطلت الأمطار بغزارة على بلاد الشام، وحدث جراء ذلك سيول، وخاصة على جبال قارا وبعلبك وعلى مدينة حلب وحماة وحمص، وكان أشده السيل الذي حدث في مدينة حمص، والذي ألحق أضراراً متنوعة فيها، فقد أهلك قرية كاملة فيها، وقتل جميع سكانها إلا خمسة أفراد ثلاثة رجال وصبي وصبية (٢) وفي سنة ٧١٧هـ/١٣١٧ م ، شهدت بلاد الشام حدوث سيول عدة، كان أشدها في مدينة بعلبك وحلب، **نذكر منها الاتي:**

في يوم الثلاثاء ٢٧ صفر سنة ٧١٧هـ/١٣١٧ م هطلت الأمطار بغزارة على مدينة بعلبك، فحدث سيل عظيم فيها، هدم أسوارها ودور المدينة، وهلك فيها أرواح كثيرة خارج من هم تحت الردم(٣) وفي يوم الأربعاء ١٣ ربيع أول ٧١٧هـ/١٣١٧ م هطلت الأمطار بغزارة على مدينة حلب وأعمالها، فحدث بها سيل عظيم أحدث أضراراً متفاوتة فيها، وأهلك عدداً كبيراً من الناس والحيوانات والأشجار(٤) وقد وصف النويري وأخرين(٥) ما حدث بقوله: "واجتمع من المطر سيل عظيم مر على وادي العسل وهو واد كبير فيه الدرب السلطاني، يسلكه المارون من مدينة حلب إلى جميع إقليم جبل سمعان، وإلى أعمال حارم وغيرها، فامتلأ وغرق ما مر عليه من الناس والدواب" وفي يوم السبت رمضان سنة ٧١٩هـ/١٣١٩م هطلت الأمطار بغزارة على مدينة دمشق والمناطق المجاورة لها، فحدث سيل عظيم

(١) المقريزي: السلوك، ج ١، ق٢، ص ٩٠٧؛ العيني: عقد الجمان،ج ٤، ص ٨ ؛ ابن أيبك: كنز الدرر، ص ٤٥-٤٦.
(٢) أبو الفداء: المختصر، ج ٢، ص ٤٢٣؛ النويري: نهاية، ج ٣٢، ص ١٧٨؛ المقريزي: السلوك، ج ٢، ص ٥١٥.
(٣) ابن أيبك: كنز الدرر، ج ٩، ص ٢٩٠؛ الذهبي: دول الاسلام، ج٢، ص ٢٥٤؛ ابن حبيب: تذكرة النبيه، ج٢، ص ٨٠-٨١ ؛ المقريزي: السلوك، ج٢، ص ٥٢٣.
(٤) ابن حبيب: تذكرة النبيه، ج ٢، ص ٨١؛ ابن أيبك: كنز الدرر، ج ٩، ص ٢٩١؛ المقريزي: السلوك، ج٢، ص ٥٢ .
(٥) النويري: نهاية، ج ٣٢، ص ١٩١-١٩٢؛ ابن حبيب: تذكرة، ج٢، ص٨٠-٨١؛ المقريزي: السلوك، ج٢، ص٥٢٦ .

فيها، وارتفع مقدار قامة، وألحق أضراراً متفاوتة بالمدينة وكان جريانه من جبل عربا وآيل السوق [(١)]ووادي هريرة والحسينية، وحمل السيل ما كان أمامه حتى سد عين الفيجة، وقد أسهب المؤرخون في وصف هذا السيل، ومن ذلك قول النويري [(٢)] وآخرين: "جاء سيل ظاهر مدينة دمشق وارتفع على وجه الأرض مقدار قامة وكان جريانه من جبل عربا وآبل السوق ووادي هريرة والحسينية وأمطرت هذه الأماكن مطراً عظيماً وسال منه هذا السيل وحمل ما كان أمامه من الحجارة حتى سد عين الفيجة وانقطع جريان الماء منها يومين وليلتين "، وفي يوم الأربعاء ٢٢ ذي القعدة سنة ٧٢٨هـ/١٣٢٨ م هطلت الأمطار بغزارة على بلاد الشام، مما أدى إلى حدوث سيل عظيم في مدينة عجلون، ألحق بها أضراراً فادحة بالممتلكات، وقُدرت الخسائر بما قيمته مليون درهم، وقيل ٥٠٠ ألف درهم وقيل ٢٧٠ ألف درهم [(٣)]

وفي يوم السبت ٩ محرم سنة ٧٣٢هـ/١٣٣١ م حدث سيل عظيم في مدينة حمص، وقد أدى إلى مقتل ما يقارب من مائتي نفس، أغلبهم من النساء اللاتي كن يغتسلن في حمام الأمير تنكز الحسامي، فداهمهم السيل فلم يستطيعوا الفرار، فضلاً عن الخلائق التي هلكت والدواب والدور والبساتين وكثرة الموتى من الناس[(٤)]، ولم تذكر المصادر سبب حدوث هذا السيل، وإن كان من المرجح أن يكون قد حدث نتيجة هطول الأمطار الغزيرة، فقد كان فصل الشتاء في بدايته، وفي شهر شعبان سنة ٧٣٢هـ/١٣٣٢ م حدث فيضان في نهر الفرات، فألحق أضرار فادحة [(٥)]، وفي يوم الخميس ٣ ربيع الثاني سنة ٧٣٤هـ/١٣٣٣ م حدث سيل في مدينة دمشق، أدى إلى إلحاق بعض الأضرار بالبيوت المجاورة لسوق الغنم ودار البطيخ وأخذ ما كان أمامه من أخشاب وغيرها ثم لطف الله تعالى ونقص أخر

---

(١) يقال لها عربين وهى قرية جامعة وشربها من نهر ثورا واليها ينسب العنب البلدي واللوز وخرج منها جماعة من أهل الحديث انظر: ابن طولون: ضرب الحوطة، ص ١٥٩ .

(٢) النويري: نهاية الأرب، ج ٣٢، ص ٢٣٣؛ الذهبي: دول الإسلام، ج ٢، ص ٢٥٧ – ٢٥٨؛ ابن كثير: البداية والنهاية،. ج ١٤، ص ١٠٤؛ ابن طولون: اللمعات البرقية، ص ٥ .

(٣) النويري: نهاية الأرب، ج ٣٣، ص ٢٠٢ –٢٠٦؛ ابن الجزري: تاريخ، ج٢، ٢٧٣–٢٧٤؛ ابن حبيب: تذكرة، ج ٢، ص ١٨١.

(٤) الذهبي: دول الإسلام، ج ٢، ص٢٧٥، ابن الجزري: تاريخ، ج ٢، ص ٥١٥ –٥١٦، ابن حبيب: تذكرة، ج ٢، ص ٢١٩.

(٥) ابن الجزري: تاريخ، ج ٣، ص ٥٢٦–٥٢٧ .

النهار [١]، وفي شهر رجب سنة ٧٣٨هـ /١٣٣٨ م هطلت الأمطار بغزارة على مدينة دمشق مما أدى إلى حدوث سيول بها، كان ضره أكثر من نفعه، وكان علوه شبران، وأخرب بيوتا كثيرة، ورمى أشجار كثيرة بغوطة دمشق وقطع الطرقات [٢]، وفي شهر رمضان سنة ٧٤٥هـ /١٣٤٥ م سقط الثلج من السماء على دمشق، حتى خرج عن العادة، وأنفق عليه ليزول من فوق الأسطح، والطرقات، وأغلقت الطرقات،، وقد أدى إلى مقتل عدد كبير من الناس، وعقبته عاصفة خربت عدة بيوت، وألحق ذلك أضرار في بعض الممتلكات [٣] و حدث في الوقت نفسه فيضان في نهر العاصي – نهر حماة–، فألحق بعض الأضرار في منازل مدينة حماة، وألحق بعض الأضرار في بساتين مدينة شيزر، وأضاع الولاة عمل الجسور، والجراريف، حتى غرقت كثير من البلاد [٤] ويصف ابن حبيب [٥] هذا الفيضان بقوله: " وفيها زاد نهر حماة المعروف بالعاصي، وعلا على رؤوس البروج والصياصي (الحصن)وخرب كثيراً من دورها، وأتلف ما لا يحصى من جنانها وقصورها، وخفض المرفوع من بنائها، وأزعج خواطر أهلها وسكانها وحمل على شيزر فهدم سكرها [٦]، وقابله بعد الصفو بالكدر، وفرق شمل الحجارة شذر مذر، وأيبس العروش والشجر، وساق إلى ملاكها أنواع الضرر ".

وفي شهر ربيع الأول سنة ٧٥٢هـ/١٣٥١ م حدث سيل عظيم في مدينة حماة، لم يعهد مثله، وخرب السيل أماكن كثيرة [٧]، ولا تقدم المصادر سبباً واضحاً لحدوث هذا السيل ، وفي شهر ذي الحجة سنة ٧٥٣هـ/١٣٥٣ م هطلت الأمطار بغزارة على مدينة غزة، فحدثت بها السيول التي أدت إلى هدم عدد كبير من المنازل، وقتل فيها جماعة كبيرة من الناس، وسقط نصف دار النيابة، وسكن النائب بجامع

---

(١) ابن الجزري: تاريخ، ج ٣، ص ٦٦٨؛ ابن الوردي: تاريخ، ج ٢، ص ٢٩٥؛ ابن كثير: البداية والنهاية،. ج ١٤، ص ١٩٠.

(٢) ابن الجزري: تاريخ، ج ٣، ص ١٠٢٣.

(٣) ابن حبيب: تذكرة، ج ٣، ص ٦٣؛ المقريزي: السلوك، ج ٣، ٤٢١؛ السخاوي: الذيل التام، ج ١، ص ٦٨؛ ابن شاهين: نيل الأمل، ج ١، ص ١٠٤.

(٤) ابن الوردي، تاريخ: ج ٢، ص ٣٢٩؛ ابن حبيب: تذكرة،. ج ٣، ص ٦٩ ؛ ابن قاضي شهبة: تاريخ، ج ١، ص ٤١٧.

(٥) تذكرة النبيه: ج ٣، ص ٦٩.

(٦) أي سد النهر المحكم بناؤه الجزيل حباؤه العميم نفعه المكين صنعه انظر القاموس المحيط .

(٧) المقريزي: السلوك، ج ٤، ص ١٣٦؛ ابن شاهين: نيل الأمل، ج ١، ص ٢١٣.

الجاولي، وتلف كثير من الزرع وغيرها[١] وفي شهر ذي الحجة سنة ٧٦١هـ/١٣٦٠ م هطلت الأمطار بغزارة على بلاد الشام، فحدثت السيول في مناطق عدة، منها مدينة دمشق وبعلبك وحلب، وكان أشده ما حدث في مدينة بعلبك وحلب، وألحق بالممتلكات بهما أضراراً متفاوتة، وأدى إلى مقتل عدد كبير من الناس [٢].

وفي شهر جمادى الأول سنة ٧٦٤هـ/١٣٦٣ م حدث فيضان في نهر بردى بدمشق، وقد استمرت المياه مدة طويلة وهي تغمر المنطقة المجاورة للنهر، حتى أن الناس تنقلوا فيها بواسطة المراكب، وأدى هذا الفيضان إلى هدم عدد من البنايات، وتعطلت طواحين عدة بسبب غمر المياه لها [٣] وفي سنة ٧٦٩هـ/١٣٦٧ م حدث سيل في مدينة حلب، أدى إلى إلحاق أضرار متفاوتة بمنازل المدينة، وقضى على الكثير من المواشي، وأتلف كميات كبيرة من المزروعات [٤] وفي شهر ربيع الأول سنة ٧٧٤هـ/١٣٧٢ م حدث فيضان في نهر بردى بدمشق، فألحق بعض الأضرار بالممتلكات، وأدى إلى تعطل العمل ببعض الطواحين والحمامات في المدينة وفي شهر ذي الحجة سنة ٧٧٥هـ/١٣٧٤ م حدث سيل عظيم في مدينة حلب، وألحق أضراراً فادحة في المنازل والطواحين [٥] وفي أواخر شهر محرم سنة ٧٨٦هـ/١٣٨٤ م حدث سيل عظيم في مدينة دمشق، ألحق أضراراً كبيرة في المساكن والبنايات[٦].

ثالثاً: موقف دولة المماليك البحرية في معالجة فيضان النيل أو قصوره:

ونظراً لما سبق من نقص أو فيضان النيل نجد أن نهر النيل قد حظى باهتمام الحكام المماليك فأقاموا المقاييس، والقناطر والبرك على شواطئه، حيث كان حد الوفاء متغيراً، ولم يكن ثابتاً عبر العصور المختلفة بتقادم الزمن، بسبب ترسيب الطمي أو إهمال حفر الترع وتعميقها، وذلك حتى يتمكنوا من القضاء على الآثار الوخيمة لنقصان مياه النيل، أو زيادتها زيادة مفرطة، أو على الأقل التخفيف من

---

(١) المقريزي: ج٤، ص ١٧٢؛ ابن شاهين، نيل الأمل: ج ١، ص ٢٤٦.

(٢) السخاوي: الذيل التام، ج١، ص ١٧٢.

(٣) ابن كثير: البداية والنهاية، ج ١٤، ص ٣٤٢؛ ابن قاضي شهبة: تاريخ، ج ٢، ص ٢١٩.

(٤) ابن حبيب: تذكرة، ج ٣، ص ٣١٣.

(٥) ابن العراقي: الذيل على العبر، ج ٢، ص ٣٦٩؛ المقريزي: السلوك، ج ٤، ص ٣٦٨؛ ابن قاضي شهبة: تاريخ، ج ٢، ص ٤٣٥؛ ابن حجر: إنباء الغمر، ج ١، ص ٦٢؛ ابن شاهين، نيل الأمل، ج ٢، ص ٦٨.

(٦) المقريزي: السلوك، ج ٥، ص ١٦٣؛ ابن الصيرفي: نزهة النفوس، ج ١، ص ٩١؛ ابن شاهين: نيل الأمل، ج ٢، ص ٢١٢.

وقوعها، إلا أن الحذر لا يمنع من نزول القدر، كما عملت الدولة على بناء الجسور منها جسر من بولاق إلى منية الشيرج (١) وتعاملت الدولة مع حوادث الجفاف والفيضانات بكل جدية ومسؤولية، فقد حاولت الحد من أضرارها، وتخفيف معاناة الناس من آثارها، عبر قيامها بإجراءات عدة، فقد كانت الدولة تكلف ولاتها في المناطق بكتابة تقارير عن حجم الأضرار التي خلفتها هذه الأزمات، لتقدير حاجتها للإعمار والإصلاح، ومن ثم تقوم بإعادة إعمار المناطق المتضررة ومساعدة أهلها، **من أهمها:**

١- تكليف الدولة ولاتها بحصر حجم الأضرار التي خلفها فيضان النيل والعمل على إصلاحها:

وفي شهر صفر سنة ٦٩٢هـ/١٢٩٣ م هطلت الأمطار بغزارة على مدينة الرملة، فحدث بها سيل عظيم، وزادت المياه في نهر العوجا:(٢)، ففاض وأحدث أضراراً متفاوتة، وتكسرت أحجارها، وقد قضى السيل على ١١ أسداً، قامت الدولة بتكليف والي الرملة غرس الدين بن شاور بعمل تقارير حول حجم الضرر الذي وقع جراء الزلازل والسيول في مدينة الرملة، ولا يتصور إهمال الدولة تكليف والي المدينة بكتابة تقارير حول الأضرار التي أحدثتها هذه السيول (٣)

ولما حدث سيل سنة ٧١٧هـ/١٣١٧ م في مدينة بعلبك (٤)، أرسلت الدولة جمال الدين بن الشريشي وكيل بيت المال إلى بعلبك، لكي يقوم بكتابة تقارير عن حجم الأضرار التي خلفها هذا السيل (٥) وعندما حدث فيضان نهر النيل شهر رجب سنة ٧١٧هـ/١٣١٧ م، انتدب والي مدينة القاهرة لإصلاح السدود التي تهدمت بسبب الفيضان (٦) وعندما حدث فيضان نهر النيل في ١٧ رمضان سنة ٧٢٣هـ/١٣٢٣ م أمرت الدولة ولاة الأقاليم بمصر بأن يعملوا على تصريف المياه الزائدة نتيجة الفيضان إلى البحر المتوسط وذلك عن طريق فتح السدود والترع، وأمرت الدولة بصنع سد جديد يحجز المياه عن مدينة القاهرة كي لا تغرق، وانتدبت مجموعة كبيرة من الأمراء مع عمالهم لهذه المهمة حتى تم انجاز هذا السد خلال ٢٠ يوماً، وألزم كذلك أصحاب الأملاك المطلة على نهر النيل بعمل الأرصفة- الزرابي-

---

(١) المقريزي: المواعظ، ج٣، ص٢٩٤؛ السلوك، ج٥، ص٣٢ ؛ ابن شاهين: نيل الأمل، ج٢، ص١٢٧.
(٢) (نهر بين أرسوف والرملة في فلسطين) انظر: ياقوت الحموى: معجم البلدان، ج٤، ص ١٦٧.
(٣) ابن الفرات: تاريخ، ج ٨، ص ١٥٤ ؛ المقريزي: السلوك، ج ٢، ص ٢٤٠ .
(٤) النويري: نهاية الأرب، ج ٣٢، ص ١٩٠-١٩١ ؛ ابن أيبك: كنز، ج ٩، ص ٢٩١.
(٥) النويري: نهاية الأرب، ج ٣٢، ص ١٩٠-١٩١.
(٦) النويري: نهاية الأرب، ج ٣٢، ص ١٩٤؛ المقريزي: السلوك، ج ٢، ص ٥٢٤.

التي تصد تيارات النيل المائية التي تعرض التربة للانهيار (١) وعندما حدث فيضان نهر النيل في شهر جمادى الأولى سنة ٧٤٩هـ/١٣٤٨ م قام الأمير منجك (٢)بإعادة إعمار ما تهدم من السدود (٣) وعندما حدث فيضان نهر النيل في سنة ٧٥٥هـ/١٣٥٤ م تهدمت سدود عدة في مدينة القاهرة والفيوم، فانتدب الأمير علاء الدين على بن الكوراني والي القاهرة (٤) والأمير قشتمر الحاجب (٥)، لإنشاء سد جديد بالقرب من الحسينية (٦) وانتدب مجموعة من الأمراء لإعادة إعمار سد الفيوم، ومنهم الأمير ناصر الدين محمد بن (المحسنى)(٧) والأمير عمر شاه(٨) كاشف الجسور (٩).

٢- توجيه الدولة الناس لأداء صلاة الاستسقاء عند حدوث حالات الجفاف:

لما حدث جفاف سنة ٦٩٤ - ٦٩٥هـ/١٢٩٥ م في بلاد الشام، دعت الدولة ووجهت إلى أداء صلاة الاستسقاء لرفع الجفاف لطلب الغيث من الله عز وجل، فقد خرج الناس في دمشق ومعهم نائب السلطنة عند مسجد القدم (١٠)، وصلوا صلاة الاستسقاء (١١) ولما حدث جفاف سنة ٧١٩هـ/١٣٢٠ م في

---

(١) المقريزي: السلوك، ج ٣، ص ٦٧-٦٨.

Levanoni: Aturning point in Mamluk History 1995.p.170.

(٢) منجك بن عبد الله اليوسفي، كان أحد الأمراء الكبار في عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون، وولى القاهرة سنة ٧٤٨هـ/١٣٤٧ م) وبنى مسجد منجك الكبير بالقاهرة سنة (٧٥١هـ/١٣٥٠ م) ومات في سنة (٧٧٦هـ/١٣٧٤ م) انظر: المقريزي: السلوك، ج٤، هامش رقم (٣) ص ٧٠ ؛ ابن حجر: الدرر الكامنة، ج ٤، ص ٢٢٠-٢٢١ .

(٣) المقريزي: السلوك، ج ٤، ص ٧٥-٧٨ ؛ ابن شاهين: نيل الأمل، ج ١، ص ١٦٩ .

(٤) تولى ولاية القاهرة سنة (٧٤٩هـ/١٣٤٨ م) واستمر فيها إلى سنة (٧٦٤هـ/١٣٦٢ م) انظر: المقريزي: السلوك، ج ٤، ص ٦٩؛ ٢٦٨.

(٥) كان قشتمر من جنود الناصر محمد ومات مقتولا سنة ٧٧٠هـ، انظر : ابن حجر: الدرر، ج٣، ص ١٤٩ - ١٥٠ .

(٦) الحسينية: (احدى ضواحي مدينة القاهرة) انظر المقريزي: السلوك ج٤، ص ٢١٤.

(٧) ناصر الدين محمد بن بيليك المحسني، تولى ولاية القاهرة ثم عزل وتنقلت به الأحوال ثم استقر مشير الدولة في سنة (٧٥٤هـ/١٣٥٣ م) انظر : ابن حجر: الدرر الكامنة، ج ٣، ص ٢٥٠.

(٨) عمر شاه التركي: (ولي نيابة حماة مرة بعد أخرى وقبض عليه في أيام الناصر حسن ثم أطلق بعده ثم أُمر تقدمة في دمشق وعمل حاجب الحجاب بصرامة وشهامة فوقع بينه وبين القضاة فقام عليه تاج الدين السبكي إلى أن عزل وأعيد إلى نيابة حماة وعزل وعاد إلى دمشق فمات بها في صفر سنة (٧٧١هـ/١٣٦٩ م). انظر : ابن حجر: الدرر الكامنة، ج ٣، ص ١١ .

(٩) المقريزي: السلوك، ج٤، ص ٢١٤؛ ابن شاهين: نيل الأمل، ج ١، ص ٢٧٦ - ٢٧٧ .

(١٠) قرية كبيرة قبلي الصبيات بها جامع وهى عذبة يقال أن فيها قدم موسي وقيل أن فيها قدم النبي (ص) وهو كذب وبالقرب منها الكثيب - انظر: ابن طولون: ضرب الحوطة، ص ١٦٠.

(١١) ابن الجزري: تاريخ، ج١، ٢٥٠ ؛ ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، م ٨، ص ١٩٦.

بلاد الشام، وجهت الدولة الناس للخروج لصلاة الاستسقاء، قال ابن كثير: (١) " نُودي بالبلد بصوم الناس لأجل الخروج إلى الاستسقاء، وشرع في قراءة البخاري وتهيأ الناس ودعوا عقيب الصلوات وبعد الخطب، وابتهلوا إلى الله في الاستسقاء"'

وفي١٣ من شهر ربيع الأول سنة ٧٧٥هـ/١٣٧٣ م انخفض مستوى ماء نهر النيل، فحدث جفاف في مصر، وصفه المقريزي بقوله (٢) "وقلق الناس لذلك في اليوم السابع عشر، وخرج القضاة والفقهاء وغيرهم إلى جامع عمرو وتضرعوا إلى الله في اجراء النيل، وفي الجمعة الموافق العشرين من نفس الشهر خرج القضاة والناس إلى رباط الآثار النبوية، خارج مدينة مصر، وغسلوها في النيل بالمقياس، وقرأوا القرآن الكريم، وتضرعوا إلى الله تعالى في إجراء النيل، ورد ما نقص، ثم عادوا، فنزل حتى جفت الخلجان من الماء، فارتفعت الأسعار، وغلب اليأس على الناس، فنودى في الناس بالتوبة والإقلاع عن المعاصي، وصيام ثلاثة أيام تضرعا إلى الله تعالى، الإثنين، والثلاثاء، والأربعاء، وخرج الناس في يوم الخميس السادس والعشرين من هذا الشهر إلى قبة النصر – خارج القاهرة – وهم حفاة بثياب مهنتهم، ومعهم أطفالهم، ونصب هناك منبراً، ونزل الأمير آقتمر عبد الغنى النائب، في عدة من الأمراء، فخطب ابن القسطلانى خطيب جامع عمرو خطبة الاستسقاء، وصلى صلاة الاستسقاء، وكشف رأسه عند الدعاء، وحول رداءه، فكشف الناس جميعاً رءوسهم، وضجوا بالدعاء إلى الله وارتفعت أصواتهم بالاستغاثة، وهملت أعينهم بالبكاء، فكان مشهداً عظيماً، فلم يسقوا وعادوا خائبين فعز وجود الغلال ".

٣–فتح مخازن الدولة، وبيع الغلال منها بأسعار مخفضة:

فعندما حدثت مجاعة سنة ٦٦٢هـ/١٢٦٣ م في مصر (٣)، وبلغ الأردب القمح في القاهرة مائة وخمسة دراهم، وفي الإسكندرية بلغ ثلاثمائة وعشرين درهما، حتى أكل الناس ورق اللفت والكرنب ونحوه، فقامت الدولة المملوكية بإخراج الغلات من مخازنها، وأمر السلطان بيبرس بأن يباع منها يومياً ٥٠٠ أردب، وأن يكون البيع بكميات محددة ما بين ويبتين وأقل، لكي لا يخزن أحد شيئاً من الغلال، وأمر بإلغاء التسعير، ونودى للفقراء فاجتمعوا تحت القلعة، وكتبوا أسماءهم (٤)، وأعطى لكل أمير جماعة على

(١) ابن كثير: البداية والنهاية ، ج ١٤، ص ١٠٦ ؛ المقريزي: السلوك، ج٣، ص ١٥ .

(٢) المقريزي: السلوك ، ج٤ ، ص ٣٦٢-٣٦٣ .

(٣) بيبرس المنصوري: مختار، ص ٢٦ – ٢٧.

(٤) النويري: نهاية الأرب، ج ٣٠، ص ٥٩ – ٦٠.

قدر عدته، وأن، يعطى لكل فقير كفايته مدة ثلاثة أشهر ووزع الفقراء على التجار والأغنياء كل على قدر حاله، وأمر أن يفرق من الشون السلطانية على أرباب الزوايا كل يوم نحو مائة أردب، ثم قال السلطان " هؤلاء المساكين قد جمعناهم اليوم وانقضى نصف النهار، فادفعوا لكل منهم نصف درهم يتقوت به خبزا، ومن غد يتقرر الحال " ولم يبقى من الخواص ولا من الطواشي ولا من الحجاب، ولا من الولاة وأرباب المناصب وذوى المراتب، وأصحاب المال، حتى أخذ جماعة من المساكين، واستمر الحال إلى أن دخل شهر رمضان، ودخل المغل الجديد وانحل السعر في يوم واحد أربعين درهما (٢)، ولما حدثت مجاعة سنة ٦٩٤- ٦٩٥هـ/١٢٩٥ -١٢٩٦ م في مصر، قامت الدولة بإخراج الغلات من مخازنها، وأمر السلطان كتبغا بأن تفرق على المخابز والأفراد (٣)، وعندما حدثت مجاعة سنة ٧٣٦هـ/١٣٣٥ م في مصر، قامت بفتح مخازنها وبيع الغلال منها بأسعار مخفضة لا تتجاوز ٣٠ درهماً للأردب من القمح (٤).

(١)

٤- لجوء الدولة إلى جلب وتوفير المواد الغذائية الأساسية، إما عن طريق جلبها من المناطق الخاضعة لسيطرة الدولة أو من الدول الإسلامية المجاورة أو الاستيراد من الدول الأجنبية:

لما حدثت مجاعة سنة ٦٦٠هـ/١٢٦٢ م في بلاد الشام، قامت الدولة بجلب القمح من مصر إلى غزة عبر البحر ومنها إلى مختلف أنحاء البلاد، محاولة للتخفيف من الضائقة الاقتصادية فيها (٥)، ولما حدث جفاف ومجاعة سنة ٦٩٤- ٦٩٥هـ/١٢٩٥ - ١٢٩٦ م في مصر، قامت الدولة بجلب الغلال من بلاد الشام، وقُدرت الكميات المجلوبة بمائة وعشرين ألف غرارة قمح (٦) واستوردت ثلاثمائة ألف أردب قمح من جزيرة صقلية والقسطنطينية وأوروبا (٧)، ولما هاجمت أسراب الجراد بلاد الشام سنة ٧٢٤هـ/١٣٢٣ م أتلفت الكثير من المزروعات، فقامت الدولة بجلب الغلات من مصر، وقُدرت الكميات

---

(١) المقريزي: السلوك، ج ٢، ص ٥-٦ .

(٢) بيبرس المنصوري: مختار، ص ٢٦ -٢٧؛ العيني: عقد الجمان، ج١، ص ٣٧٤-٣٧٦.

(٣) النويرى: نهاية الارب ج٣١ ص ١٨٥-١٨٦ ؛ ابن أيبك: كنز الدرر ج٨ ص ٣٦٣ – ٣٦٥ ؛ المقريزي: إغاثة الأمة، ص ٢٧- ٣٣ ؛ المقريزي: السلوك ج١ ق ٣ص ٨١٤ .

(٤) ابن الجزري: تاريخ، ج ٣، ص ٨٦٤-٨٦٥ ؛ اليوسفي: نزهة الناظر، ص ٢٨٦ -٣٠٠.

(٥) النويري: نهاية الأرب، ج٣٠، ص ٣٩-٤٠ ؛ المقريزي: السلوك، ج١، ق٢، ص٤٦٦.

(٦) ابن الجزري: تاريخ، ج ١، ص ٢٨٠- ٣٨٥؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، ج ٥٢، ص ٣٩.

(٧) العيني: عقد الجمان، ج ٣، ص ٢٧٦.

المجلوبة بعشرين ألف أردب [١]، ولما حدثت مجاعة سنة ٧٣٦هـ/١٣٣٥ م في مصر، قامت الدولة بجلب الغلال من بلاد الشام ومن الصعيد، وقامت بتوزيعها على الناس، وكان المجلوب من الشام ٤ آلاف غرارة قمح، ومن الصعيد ١٢٠٠ أردب من القمح [٢].

٥- مراقبة ومتابعة عملية بيع المواد الغذائية، وتعزير المحتكرين وبائعي لحوم الميتات والكلاب والحمير، وآكلي لحوم البشر، عند حدوث حالات الجفاف والمجاعات.

من الطبيعي أن يلجأ التجار إلى استغلال ظروف الأزمة أو المجاعة فيرفعون السعر، وتزداد أرباحهم زيادة فاحشة، فقد زادت أرباح الواحد من التجار أثناء مجاعة ٦٩٤-٦٩٥هـ /١٢٩٥-١٢٩٦م في عهد السلطان العادل كتبغا، ما بين مائة ومائتي درهم، [٣] وحدث سنة ٧٩٨هـ /١٣٩٥م أن ارتفعت الأسعار بسبب قصور النيل، وقل الخبز حتى اقتتل الناس على أبواب الأفران في القاهرة، ثم وصلت مراكب الغلال من الوجه القبلي إلى ساحل بولاق، فهبطت الأسعار، ولكن التجار الذين أتوا بالقمح أدركوا أنهم سيخسرون إذا باعوا بهذه الأسعار – لأنه لم يحصل لهم رأسمالهم وما غرموه في السفر – فامتنعوا عن البيع وواصلوا إبحارهم شمالاً تجاه الإسكندرية ومن ثم اشتدت الأزمة واضطربت أحوال الناس[٤]، وحين توقف النيل عن الزيادة عام ٧٨٩هـ/١٣٨٧م قبض تجار القمح أيديهم عن البيع، وأكثروا من التخزين، طمعا في زيادة أرباحهم عن طريق رفع الأسعار، ولكن النيل أوفى فهبطت الأسعار، فخاب ظنهم وما أملوه [٥]، وكانت أرباح العطارين والأطباء وغيرهم من أصحاب المهنة والصناع تتزايد بما لم يسمع بمثله في هذا الزمان [٦]، أثناء المجاعات والأوبئة نظراً لاشتداد الطلب على الأدوية وغيرها، ففي أزمة ٦٨٥-٦٩٤هـ/١٢٨٦- ١٢٩٤م بلغت مبيعات أحد العطارين من الأدوية في يوم واحد اثنان وثلاثين ألف درهم ومتوسط الطبيب مائة درهم [٧]، ونتيجة لارتفاع الأسعار وانعدام الأقوات في أثناء الغلاء أو المجاعة تتوالى – بالتداعي – حوادث أخري اذ ينعدم علف الحيوان الذي هو القوة المحركة

(١) ابن كثير: البداية، ج ١٤، ص ١٣٠؛ المقريزي: السلوك، ج ٣، ص ٧٢.

(٢) اليوسفي: نزهة الناظر، ص ٣٠٠-٣٠٢.

(٣) المقريزي: اغاثة الأمة، ص ٣٦.

(٤) ابن الفرات: تاريخ، ج٩، ص ٤٣٤ -٤٣٥.

(٥) ابن الفرات: تاريخ، ج٩، ص ٩.

(٦) المقريزي: اغاثة الأمة، ص ٤١-٤٣.

(٧) المقريزي: اغاثة الأمة، ص ٣٥-٣٦.

والمعول في بناء الجسور وسائر أعمال ضبط النهر فتوقف أعمال صيانة الجسور وأعمال الري، [١]، بجانب الأعمال الزراعية وبالتالي تتوقف سائر مصالح البلاد، أيضاً يؤدي هبوط النيل إلى قلة حركة الملاحة وقلة مجيء مراكب الغلال من الوجه القبلي فترتفع الأسعار [٢]، و كانت سوق النقد تتأثر أيضاً بحالة الفيضان مما ينتج عنه تذبذب الأسعار، وغش النقود، واحتكار الغلال، وأكل وبيع لحوم الميتات والكلاب والقطط وأيضاً لحوم البشر، [٣]

وكانت هناك أسباب أخري تتسبب في وجود الغلاء والمجاعات – رغم وجود الغلال، زيادة الماء، كثرة الزرع – وكان سبب ذلك كثرة الفتن بضواحي مصر من العربان، وخروج العساكر مرة بعد مرة، وكل مرة يحصل الفساد في الزرع ويقل الأمن في الطرقات، ومهاجمة السفن التي تحمل الغلال والبضائع في النيل فلا يقع الجلب للغلال كما كان مخططاً له [٤]. ونتيجة ذلك ترتفع الأسعار ويحل الغلاء. كذلك كثرة الفتن والمنازعات الداخلية وحروب الشوارع تساعد بشكل أو بآخر في خلق هذه الفوضى الاقتصادية. أيضاً الشائعات بموت أحد السلاطين، أو ركوب الأمراء بالسلاح للاقتتال فترتبك أحوال الناس وتغلق الأسواق، ويلزم الناس بيوتهم. كما حدث عام ٦٩٣هـ/١٢٩٣م حين وردت الأخبار بمقتل الأشرف خليل بن قلاون فقد خلت الطرقات تماماً من الناس لتكون ميدانا للاقتتال المنتظر بين طوائف المماليك، وبطبيعة الحال اختفي الخبز وقلت الأقوات [٥]. أيضاً كانت سياسة الاحتكار التي سارت عليها الدولة في ذلك العصر، واحتكار تجارة الغلال وتوفيرها في شون السلطان والأمراء على حساب العامة، وبيعها للناس بما حددوا من الأثمان يمكن القول بأن سوء تدبير الحكام وإغفالهم مصالح الناس كان من بين الأسباب التي تخلق هذه الأزمات زد على ذلك أن الرشوة [٦] انتشرت بين المماليك ومن ثم كان الولاة والحكام يضعون نصب أعينهم أن يعوضوا ما دفعوه من هذه الرشاوي قبل توليهم الوظائف ومن ثم يكثر طمعهم في أخذ أموال الناس.

---

(١) ابن تغري بردي: النجوم ، ج٧، ص ١٨٢.

(٢) المقريزي: السلوك ، ج٢، ق٣، ص٧٢٨ .

(٣) المقريزي: السلوك، ج٢ ، ص ٢٦٧ .

(٤) ابن حجر: أنباء الغمر، ج٢ ، ص ٨٤.

(٥) المقريزي : السلوك ، ج٢ ، ص ٢٥٦.

(٦) عبد الرازق: البذل والبرطلة ، ص ٨٨ .

ونظراً لما سبق أن هذا يمكن أن يكشف لنا أن بعض الحكام بسياستهم التي اهتمت بحيازة الامتيازات لأنفسهم وتكوين ثروات خاصة بهم وبالمقربين منهم وكانوا يتسببون في خلق مثل هذه الأزمات، أو يزيدون من حدة المجاعة وضراوتها[١] ، بل أن بعض السلاطين كانوا يشترون الغلال من الأسواق وهي رخيصة ويخزنونها طمعاً في أن يهبط النيل ويحققون لأنفسهم مكسباً مالياً سريعا، وهي فكرة شبيهه بما يحدث الآن من سيطرة بعض رجال الأعمال الكبار على بعض الصناعات واحتكارها والتحكم في أسعارها حسب ما يشتهون!.

وفي نهاية هذا الاستعراض نتوقف عند ما توصل إليه المقريزي وهو يعرض ويستعرض تاريخ الأزمات الاقتصادية والمجاعات والغلاء في مصر، فقد أدى به البحث إلى أن السبب الحقيقي لما ينزل بالناس من أزمات اقتصادية ومجاعات وغلاء في الأسعار، إنما هو سوء تدبير الملوك والحكام وتقصيرهم[٢] في أداء واجبهم وخيانتهم للأمانة التي اختاروا حملها والقيام بها ، هذا هو السبب وليس نقص النيل أو قلة المطر فقط، ولا غضب الله على أهل مصر. وهذا تخريج اقتصادي يمكن أن يستند إلى أسس ومقدمات منطقية ، ولا يعتمد على التأويلات الخرافية أو التفسيرات الغيبية للظواهر الإنسانية[٣].

وجدير بالذكر أن نهر النيل كان محور الحياة المصرية في عصر المماليك بشتى نواحيها: الاقتصادية والسياسية والاجتماعية، والحقيقة أننا لا يمكن أن نفصل بين تأثير النهر على اقتصاديات البلاد، وبين تأثيره في عادات الشعب الاجتماعية ، أو أمورهم السياسية، لأن كلاً من هذه النشاطات تؤثر في الأخرى بقدر ما، وبطريقة يصعب معها التحديد القاطع لكل منها ؛ ومن الطبيعي أن يكون لهذه المجاعات أثرها في أخلاقيات الناس وتصرفاتهم اليومية[٤]، حيث ينكشف حال كثير من الناس في صور مختلفة، في محاولة الحصول على القوت، سواء بالسرقة أو النهب أو الخطف أو بالغش أو بالاستغلال أو الاحتكار سواء من الحكام أو الأمراء أو من التجار أو العامة وغيرهم[٥].

---

(١) عبد الرازق: البذل والبرطلة، ص ٧٢-٧٣ .

(٢) المقريزي: اغاثة الأمة ص ٤٣.

(٣) السبكي: معيد النعم، ص ٢١.

(٤) السبكي: معيد النعم، ص ٢٤ .

(٥) السبكي: معيد النعم، ص ٤٠-٤١.

الثاني

هجوم الجراد والآفات الزراعية على الزراعات

أدت الأزمات الطبيعية إلى إلحاق أضرار كبيرة بالثروة الزراعية، فقد أدت إلى انخفاض الإنتاج الزراعي بدرجة كبيرة جداً، وقد راح ضحية بعضها الآخر عدد كبير من الفلاحين الذين هم عماد هذا المنشط الاقتصادي وتعرضت مصر خلال مرحلة الدراسة لأخطار الآفات الزراعية المختلفة، من إغارات أسراب الجراد وبعض الطيور، وهجوم قطعان الفئران والدود، والتي تؤثر على المحاصيل والغلال وتترك الأرض خراباً، فهي تسبب المجاعات ومن ثم تسبب الأمراض. (١)

أولاً: الآفات الزراعية في مصر:

في سنة ٦٩٦هـ/١٢٩٦ م ظهر بأرض مصر فأر كثير أتلف الزرع، حتى لم يترك منه إلا اليسير(٢) وفي سنة ٦٩٨هـ/١٢٩٨ م وقع بأرض مصر آفة عظيمة من الفأر(٣).

وفي سنة ٧٠٥هـ/١٣٠٥ م هاجمت قطعان الفئران المحاصيل الزراعية في منطقة الصعيد وكان مباشروا شونة أم القصور يأتون ليلا خوفاً على الغلة من الفأر، فباتوا يقتلون في الفأر إلى الصباح فكان جملة ما قتلوه ثلاثمائة وسبعة عشر أردباً(٤) ، وفي سنة ٧١٥هـ/١٣١٥ م هاجمت قطعان الفئران منطقة الصعيد(٥) ، وفي سنة ٧٢٨هـ/١٣٢٧ م هاجم الدود المحاصيل الزراعية، وأتلف محاصيل كثيرة(٦) ، وفي سنة ٧٣٨هـ/١٣٣٧ م هاجمت قطعان الفئران المحاصيل الزراعية، بمنطقة منفلوط وأتلفت كمية كبيرة منها، وخاصة محصول الفول، وكانت أعداد الفئران كثيرة جداً، حيث قام السكان بعمليات قتل لها استمرت لمدة شهرين، ووصف لنا المقريزي(٧) ما حدث بقوله: "وخرج ببلاد منفلوط فأر عظيم جداً فحصد الزرع حصداً، وأتلف جرون الغلال، بحيث كان يذهب ربع الجرن في ليلة واحدة، فصار الناس يبيتون

---

(١) انظر الملحق رقم (٢) ص ١٥٣.

(٢) ابن الفرات: تاريخ، ج ٨، ص ٢٣١؛ المقريزي: السلوك، ج ٢، ص ٢٨٠.

(٣) المقريزي: السلوك، ج ٢، ص ٣١٥.

(٤) العيني: عقد الجمان، ج ١، ص ٣٢٣- ٣٢٤.

(٥) المقريزي: السلوك، ج ٢، ص ٥١٠ .

(٦) المقريزي: السلوك، ج ٣، ص ١١١.

(٧) السلوك، ج ٣، ص ٢٤٧- ٢٤٨.

بالمشاعل على طول الليل، وهم يقتلون الفأر ثم يتولى أمر النهار طائفة أخري وهم لا يْفترون عن قتله، ثم يحمل ما قتل منه في شباك، ويحرق بالنار على بعد، وفيهم من يلقيه إلى النيل، فأقاموا مدة شهرين يحملون في الشباك كل يوم نحو مائة حمل"

ثانياً: الآفات الزراعية في الشام:

تعرضت بلاد الشام خلال مرحلة الدراسة لأخطار الآفات الزراعية المختلفة، من إغارات أسراب الجراد وبعض الطيور، وهجوم قطعان الفئران والدود ولما هاجم الجراد بلاد الشام سنة ٦١٩هـ/١٢٢٢ م)، أتلف كميات كبيرة جداً من المحاصيل الزراعية(١) وعندما هاجمت الفئران منطقة حوران والجولان وأعمالهما سنة ٦٥٩هـ/١٢٦١ م تسببت في أكل معظم الغلال وخاصة القمح، وقد ذكرت المصادر أنه تم إفناء ثلاثمائة ألف غرارة من القمح غير الشعير(٢) وفي سنة ٦٦٠هـ/١٢٦٢م اشتد غلاء الأسعار في بلاد الشام بشكل كبير جداً، وانتشرت المجاعة، وخاصة في المدن الرئيسية في الشام كدمشق وحلب وحماة، وهلك في هذه المجاعة أعداد كبيرة من الناس(٣).

ولعل أهم أسباب حدوث هذه المجاعة هو ما حدث من هجوم الفئران الشرس على الغلات الزراعية في السنة الماضية، إضافة إلى الأوضاع السياسية التي كان سائدة في المنطقة آنذاك كانت بلاد الشام تعاني في تلك الفترة من الهجوم المتكرر للتتار، مما اضطر كثير من السكان إلى النزوح إلى مصر وغيرها من البلاد، ومن أهم الفئات النازحة الفلاحين وعوام الناس مما أثر على الإنتاج الزراعي(٤) وفي سنة ٦٩٩هـ/١٢٩٩ م هاجم جراد "سد الأفق" منطقة قرتيا(٥)، وفي سنة ٧٠١هـ/١٣٠٢ م هاجمت أسراب الجراد بلاد الشام، وكانت مدينة دمشق أشدها تضرراً (٦) فقد" ترك غالب الغوطة عصياً مجردة،

---

(١) أبي شامة: الذيل على الروضتين، ص ١٩٩؛ ابن كثير: البداية، ج ١٣، ص ١١٥.

(٢) ابن أيبك: كنز الدرر، ج ٨، ص ٨٥؛ المقريزي: السلوك، ج ١، ص ٥٢٥.

(٣) اليونيني: ذيل مرآة الزمان، ج ١، ص ٢٢٠؛ النويري: نهاية الأرب، ج ٣٠، ص ٣٩؛ ابن كثير: البداية: ج ١٣، ص ٢٧٢؛ المقريزي: السلوك، ج ١، ص ٥٤١.

(٤) ابن كثير، البداية، ج ١٣، ص ٢٧٢؛ المقريزي: السلوك، ج ١، ص ٥٤١–٥٤٥.

(٥) بلد قرب بيت جبرين من نواحي بيت المقدس بفلسطين . انظر: ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٤، ص ٣٦٣ ؛ ابن صصري: الدرة المضيئة في الدولة الظاهرية ، ص ٣ ؛ المقريزي: السلوك، ج ٢، ص ٣١٨.

(٦) ابن كثير: البداية، ج ١٤، ص ٢٢؛ ابن حبيب: تذكرة، ج ١، ص ٢٣٩ ؛ المقريزي: السلوك، ج ٢، ص ٣٤٨.

ويبست أشجار لا تحصى"[١] وعادت أسراب الجراد في السنة التالية ٧٠٢هـ/١٣٠٣ م لمهاجمة جبل لبنان، "وكان قليل الأذى إلا أن فرخه ارتعى الكرم"[٢] وفي سنة ٧٠٣هـ/١٣٠٤ م عادت أسراب الجراد لمهاجمة المناطق الساحلية في بلاد الشام[٣] وفي سنة ٧١٨هـ/١٣١٨ م هاجمت أسراب الجراد مدينة حلب وضواحيها، وألحقت أضراراً فادحة بالمزروعات[٤] وفي سنة ٧٢٤هـ/١٣٢٣ م هاجمت أسراب الجراد بلاد الشام، وألحقت أضراراً فادحة بالمزروعات[٥].

وفي شهر جمادى الثاني سنة ٧٢٧هـ/١٣٢٦ م عادت أسراب الجراد لمهاجمة بلاد الشام، وكانت مدينة دمشق أشد المناطق المتضررة منه[٦]، وفي سنة ٧٣٠هـ/١٣٢٩ م هاجمت الدودة أشجار الزيتون بغوطة دمشق، وألحقت بها أضراراً بالغة [٧]، وفي سنة ٧٤٣هـ/١٣٤٢ م هاجمت أسراب الجراد بلاد الشام، وانتشر بشكل خاص في حلب ودمشق والقدس وغزة، ووصف المقريزي[٨] هذه الأسراب بقوله: "جراد عظيم سد الأفق، ومنع الناس من كثرته رؤية السماء وأكل جميع الأشجار حتى خشبها"، وفي سنة ٧٤٧هـ/١٣٤٦ م هاجمت بلاد الشام أسراب الجراد، وكانت أهم المدن التي انتشر بها مدينة دمشق والبلقاء[٩]، وأحدث بالمزروعات أضراراً كبيرة، أما مدينة حلب فكان أذاه قليلاً بحمد الله[١٠].

وفي سنة ٧٤٨هـ/١٣٤٧ م تكالبت الكوارث على بلاد الشام، من جفاف وهجوم لأسراب الجراد وقطعان الفئران. ففي شهر محرم سنة ٧٤٨هـ/١٣٤٧ م هاجمت أسراب الجراد بلاد الشام، وبخاصة المنطقة الممتدة بين منبج والباب [١١]، وانتشر أيضاً في المنطقة الممتدة من بعلبك إلى

---

(١) الذهبي: دول الإسلام، ج ٢، ص ٢٣٣.
(٢) الدويهي: الأزمنة، ص ١٦٢.
(٣) المقريزي: السلوك، ج ٢، ص ٣٧٠.
(٤) ابن أبي الفضائل: النهج السديد، ص ٥.
(٥) المقريزي: السلوك، ج ٣، ص ٧٢.
(٦) ابن الجزري: تاريخ، ج ١، ص ١٨١.
(٧) ابن الجزري: تاريخ، ج ٢، ص ٤٠٣.
(٨) السلوك، ج ٣، ص ٣٧٩.
(٩) البلقاء: (من أعمال دمشق بين الشام ووادي القرى قصبتها عمان وفيها قرى كثيرة) انظر: ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ١، ص ٥٧٩- ٥٨٠.
(١٠) المقريزي: السلوك، ج ٤، ص ٢٦؛ ابن الوردي: تاريخ، ج ٢، ص ٣٣٢.
(١١) الباب: (يعرف بباب بزاعة. بليدة من طرف وادي بطنان من أعمال حلب بينها وبين منبج نحو ميلين إلى حلب عشرة أميال) انظر : ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ١، ص ٣٦٠.

البلقاء[١]، وهاجمت قطعان الفئران حوران والجولان[٢] فأكلت زروعها وخاصة محصول القمح[٣] وفي شهر ربيع الثاني سنة ٧٤٨هـ/١٣٤٧ م هاجمت أسراب من الطيور منطقة كركر [٤] وغيرها من الأماكن التي لحق بها الضرر[٥]، وفي سنة ٧٥٢هـ/١٣٥١ م هاجمت أسراب الجراد بلاد الشام وألحقت أضراراً فادحة بالمزروعات[٦]، وفي سنة ٧٥٦هـ/١٣٥٥ م هاجمت أسراب الجراد بلاد الشام، فأهلكت الكثير من الثمار والأشجار حتى فزع الناس من غائلته[٧] وفي سنة ٧٦٥هـ/١٣٦٣ م هاجمت أسراب الجراد بلاد الشام حتى تلف الزرع وغلت الأسعار وانتشرت الأمراض الحادة والطواعين[٨]، "وعظم الخطب بسببه، وأتلف شيئاً كثيراً من الغلات والثمار والخضروات"[٩]

وفي سنة ٧٦٦هـ/١٣٦٤ م عادت أسراب الجراد لمهاجمة بلاد الشام، وألحقت بالمزروعات أضراراً كبيرة[١٠] وفي سنة ٧٧٠هـ/١٣٦٩ م تكرر هجوم الجراد على بلاد الشام، وكان مصدره من شبه الجزيرة العربية، وقد تركز هجومه على مدينة حوران وعجلون، ففي حوران " أكل الأشجار والأخشاب وأبواب الدور وما وصل إليه من الأصبغة والقماش وسدت أعين الماء خوفاً من أن يفسدها" أما في عجلون فقد "امتلأت منه المدينة وغلقت الأسواق وطبقت أبواب الدكاكين والطاقات وسدت الأبواب وحضروا لصلاة الجمعة فملأ عليهم الجامع وترامى على الخطيب على المنبر حتى شغله عن الخطبة وكذلك حير الناس حتى خرجوا من الجامع يخبون فيه خباً إلى الركب وأنتنت لكثرة ما قتل منه حتى

---

(١) ابن الوردي: تاريخ ابن الوردي، ج ٢، ص ٣٣٤ ؛ المقريزي: السلوك ج٤ ص٤٦ ؛ ابن شاهين: نيل الأمل، ج ١، ص ١٤٤.

(٢) الجولاَنُ: (بالفتح ثم السكون، قرية وقيل جبل من نواحي دمشق ثم من عمل حوران) انظر: ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٢، ص ٢١٩.

(٣) ابن شهبة: التاريخ، ج ١، ص ٥٠٢.

(٤) (بالفتح ثم السكون وكاف أخرى وراء، وهو حصن قرب ملطية بينها وبين آمد، وكركر أيضاً حصن بين سميساط، وحصن زياد) انظر : ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٤، ص ٥١٥ .

(٥) ابن الوردي: تاريخ ابن الوردي، ج ٢، ص ٣٣٤؛ المقريزي: السلوك ج٤، ص ٤٦ .

(٦) المقريزي: السلوك، ج ٤، ص ١٣٦؛ ابن شاهين: نيل الأمل، ج ١، ص ٢١٢.

(٧) السخاوي: الذيل، ج ١، ص ١٤٤.

(٨) ابن كثير: البداية والنهاية، ج ١٤، ص ٣٥١؛ المقريزي: السلوك، ج ٤، ص ٢٧٤ ؛ ابن شاهين: نيل الأمل، ج ١، ص ٣٦٢.

(٩) ابن كثير: البداية والنهاية، ج ١٤، ص ٣٥١ ؛ السخاوي: الذيل، ج ١، ص ٢٠٤.

(١٠) ابن كثير: البداية والنهاية، ج ١٤، ص ٣٥٦؛ المقريزي: السلوك، ج ٤، ص ٢٨٠؛ ابن شاهين: نيل الأمل، ج ١، ص ٣٧١.

صار أهل البلد يشمون القطران[١] ليغطي رائحته"[٢] وخرج ببلاد الشام جراد مضر، وكثر بها الفأر فتلفت الغلال، وكثر الخوف، وترافق هجوم الجراد مع تسلط الفئران على المزروعات، وقد أتلفت كميات كبيرة من الغلال[٣].

ثالثاً: موقف دولة المماليك البحرية في معالجة هجوم الجراد والآفات الزراعية على الزراعات ومحاولة إيجاد حلول وطرق لمكافحة الآفات الزراعية، وتعويض المزارعين عن خسائرهم:

كان هناك جلب نوع معين من الطيور يسمى السمرمر إلى البلاد، ولهذا الطائر قدرة فائقة على القضاء على الجراد، ومن الطرق التي يتم جلب هذا الطائر فيها إلى المنطقة المنكوبة من الجراد، أن تُحمل كميات من المياه من مناطق محددة قال ابن الوردي[٤]: "عين شيرم: وهي بين أصفهان وشيراز، بها مياه مشهورة وهي من عجائب الدنيا، وذلك أن الجرادة إذا نزلت ووقعت بأرض، يحمل إليها من تلك العين ماء في ظرف أو غيره فيتبع ذلك الماء طيور سود تسمى السمر مر، ويقال لها السودانية، بحيث إن حامل الماء لا يضعه إلى الأرض ولا يلتفت وراءه، فتبقى تلك الطيور على رأس حامل الماء في الجو كالسحابة السوداء إلى أن يصل إلى الأرض التي بها الجراد"، وهذه المياه يتجمع حولها هذا الطائر، فتم جلب كميات من هذا الماء، وتعليقها في قوارير وآنية في المناطق التي ينتشر فيها الجراد، فتجمع حولها هذا الطائر، وقام باصطياد الجراد المنتشر في المنطقة .

ولما هاجمت أسراب الجراد بلاد الشام سنة ٧٦٦هـ/١٣٦٤ م [٥] قام الأمير منكلي[٦] بغا الشمسي (ت ٧٧٤هـ/١٣٧٢م) بانتداب بعض الأفراد لإحضار هذا الماء، "فلما جيء به (وعلق كثر

---

(١) القطران: (عصارة شجر الأرز يستخدم في الطهي لأنه شديد الاشتعال، ومادة سوداء سائلة لزجة تستخرج من الخشب والفحم ونحوهما بالتقطير الجاف وتستعمل لحفظ الخشب من التسوس والحديد من الصدأ) انظر : المعجم الوسيط: ج ٢، ص ٤٠٥.

(٢) المقريزي: السلوك، ج٣، ق١، ص ١٧٣؛ ابن اياس: بدائع الزهور، ج١، ق٢، ص ٨٤-٨٥ .

(٣) المقريزي: السلوك، ج ٤، ص ٣٢٧ ؛ ابن شاهين: نيل الأمل، ج ١، ص ٤٢٧.

(٤) ابن الوردي: خريدة العجائب وفريدة الغرائب، ج ١، ص ٦٨.

(٥) ابن كثير: البداية، ج ١٤، ص ٣٥٦ ؛ المقريزي: السلوك ، ج ٤، ص ٢٨٠؛ ابن شاهين: نيل الأمل، ج ١، ص ٣٧١.

(٦) للمزيد عن ترجمته انظر: ابن حجر: الدرر، ج ٤، ص ٣٦٧.

السمرمر بدمشق، وأفنى ما كان الجراد هناك، حتى لم يبق منه شيئ"(١) ولما هاجمت قطعان الفئران المحاصيل الزراعية سنة ٧٠٥هـ/١٣٠٥ م في منطقة الصعيد بمصر، قامت الدولة بتعيين موظفين مختصين أوكل إليهم مهمة قتل الفئران، "فباتوا يقتلون في. (الفأر إلى الصباح، فكان جملة ما قتلوه سبعة عشر أردباً وكسوراً بالكيل المصرى"(٢) و لما هاجمت قطعان الفئران منطقة الصعيد بمصر سنة ٧١٥هـ/١٣١٥ م قام الموظفون المختصون بعملية قتل لهذه الفئران، حيث "قتلوا في أيام قلائل من الفأر مبلغ ثلاثمائة وسبعة عشر أردباً ينقص ثلث أردب، واعتبروا أردباً فجاء عدة ثمانية آلاف وأربعمائة فأر، وكل ويبة ألف وأربعمائة فأر"(٣) ولما هاجمت أسراب الجراد بلاد الشام سنة ٧٤٨هـ /١٣٤٧ م قامت الدولة بتجنيد مجموعة كبيرة من الجنود لقتل هذا الجراد(٤) ولما هاجمت أسراب الجراد بلاد الشام سنة ٧٢٤هـ/١٣٢٣ م قامت الدولة بإلغاء الضرائب المترتبة على الغلال في تلك السنة للتخفيف من شدة الضائقة الاقتصادية(٥) وقامت الدولة بدفع تعويضات للفلاحين المتضررين من هجوم هذه الآفات: فعندما هاجم الدود المحاصيل الزراعية سنة ٧٢٨هـ/١٣٢٧ م في مصر، أمرت الدولة المملوكية ولاة المناطق المتضررة، بكتابة تقارير عن مدى الأضرار الواقعة في المحاصيل الزراعية لتعويض المزارعين فوجد قد تلف في بعض البلاد نصف الزرع، وما دونه في غيرها(٦) فعملت الدولة على تعويض المزارعين ورفع الأضرار عنهم.

---

(١) المقريزي: السلوك، ج ٤، ص ٢٨٠.

(٢) العيني: عقد الجمان، ج ١، ص ٣٢٣ – ٣٢٤.

(٣) المقريزي: السلوك، ج ٢، ص ٥١٠.

(٤) ابن الوردي: تاريخ ابن الوردي، ج ٢، ص ٣٣٤؛ ابن شاهين: نيل الأمل، ج ١، ص ١٤٤.

(٥) أبو الفداء: المختصر، ج ٢، ص ٤٤٠؛ المقريزي: السلوك، ج ٣، ص ٧٢.

(٦) المقريزي: السلوك، ج ٣، ص ٢٢٣.

الثالث

الأوبئة والطواعين والموتان في مصر والشام ومعالجة الدولة لها

أدت الأزمات الطبيعية بالوباء والطاعون إلى إلحاق أضرار كبيرة بالإنسان، فقد أدت إلى انخفاض عدد السكان، بدرجة كبيرة جداً، وقللت بصورة كبيرة دخل كثير من الإقطاعات المصرية [1]، وقد راح ضحية بعضها عدد كبير من الخلق الذين هم عماد هذه الحياة وتعرضت مصر والشام خلال مرحلة الدراسة لأخطار الأوبئة والطواعين والموتان بأنواعها المختلفة، والتي تؤثر على الحياة وتترك الأرض خراباً، فهي تسبب الأمراض والمجاعات والغلاء. [2]

أولاً: الأوبئة والطواعين والموتان في مصر:

في سنة ٦٧٢هـ/١٢٧٣م تفشى الوباء في مصر[3]، وهلك فيه عدد كبير من الناس وخاصة الأطفال والنساء ولم تقدم المصادر معلومات وافية حول هذا الوباء، وفي سنة ٦٨٥هـ/١٢٨٦ م تفشى الموتان بالأبقار في مصر، ويضرب المقريزي[4] مثالاً على شدة هذا الموتان بقوله: "أن شخصاً واحداً نفقت جميع أبقاره البالغة ٣٤٠ رأساً" وفي سنة ٦٩٤هـ/١٢٩٥ م حدثت مجاعة ورافقها انتشار الوباء في مصر، واستمرت هذه المجاعة و الوباء إلى سنة ٦٩٥هـ/١٢٩٦ م ولعل من أهم أسبابه الرئيسة انتشار الجثث الملقاة في الشوارع، وتعفنها وبالتالي حدوث الوباء .

بدأ هذا الوباء بالانتشار في شهر ربيع الأول٦٩٤هـ/١٢٩٥ م ، ويصف المقريزي[5] شدة فتك هذا الوباء بالأرواح بقوله: "ووقع في شهر ربيع الأول من هذه السنة بديار مصر كلها وباء، وعظم في القاهرة ومصر، وتزايد حتى كان يموت فيهما كل يوم ألوف، ويبقى الميت مطروحاً في الأزقة والشوارع ملقى في الممرات والقوارع اليوم واليومين لا يوجد من يدفنه، لاشتغال الأصحاء بأمواتهم والسقماء

---

(1) Lapidus. i. M: Muslim cities in the later Middle Ages.C Cambridge university 1984 Levanoni: op.cit –p 135.

(٢) انظر الملحق رقم (٣) ص ١٥٣ .

(٣) المقريزي: السلوك، ج ٢، ص ٨٧؛ العيني: عقد الجمان، ج ٢، ص ١٢٠.

(٤) السلوك، ج ٢، ص ١٩٦.

(٥) الذهبي: تاريخ الإسلام، ج ٥٢، ص ٣٧-٤٢؛ السلوك، ج ٢، ص ٢٦١- ٢٦٧؛ العيني: عقد الجمان، ج ٣، ص ٢٧٥ -٢٧٨.

بأمراضهم " وازدادت حدة الوباء في شهر ذي الحجة ٦٩٤هـ/١٢٩٥ م حيث قُدرت ضحاياه في هذا الشهر بنحو عشرين ألف نسمة[١]، وفي مستهل سنة ٦٩٥هـ/١٢٩٦ م ازدادت حدة الوباء بشكل كبير جداً، وأُحصي من مات في شهر صفر ٦٩٥هـ/١٢٩٥ م بحوالي ١٢٧ ألف نسمة [٢]، وقد وصف المقريزي[٣] ازدياد حدة هذا الوباء بقوله: "وتزايد الوباء بحيث كان يخرج من كل باب من أبواب القاهرة في كل يوم ما يزيد على سبعمائة ميت، ويغسل في الميضأة من الغرباء الطرحاء في كل يوم نحو المائة والخمسين ميتاً، ولا يكاد يوجد باب أحد من المستورين بالقاهرة ومصر إلا ويصبح على بابه عدة أموات قد طرحوا حتى يكفنهم، فيشتغل نهاره، ثم تزايد الأمر فصارت الأموات تدفن بغير غسل ولا كفن، فإنه يدفن الواحد في ثوب ثم ساعة ما يوضع في حفرته يؤخذ ثوبه حتى يلبس لميت آخر، فيكفن في الثوب الواحد عدة أموات، وعجز الناس عن مواراة الأموات في القبور لكثرتهم وقلة من يحفر لهم، فعملت حفائر كبار ألقيت فيها الأموات من الرجال والنساء والصبيان حتى تمتلئ الحفرة، ثم تُطم بالتراب، ورمي كثير من الأموات في الآبار حتى تُملأ ثم تُردم، ومات كثير من الناس بأطراف البلاد فبقي على الطرقات حتى أكلته الكلاب"، وقد بدأت حدة هذا الوباء تخف في شهر ربيع الأول ٦٩٥هـ/١٢٩٦ م ، ثم وقع الرخص وزال الجوع بالكلية من الديار المصرية في شهر جمادى الثاني٦٩٥هـ/١٢٩٦ م [٤].

وفي أواخر عام ٦٩٩هـ/١٢٩٩ م تفشى الموتان في الأبقار، وأدى إلى نفوق أعداد كبيرة جداً منها، وخاصة في دمياط والصعيد، وقد استمر هذا الوباء فيها إلى بداية سنة ٧٠٠هـ/١٣٠٠م [٥] وقد وصف العيني[٦] شدة فتك هذا الوباء بالأبقار بقوله: "وفيها أصاب الفناء الأبقار دون غيرها من المواشي حتى تعطلت الدواليب والسواقي، وغلت أسعارها غلواً لم يسمع بمثله، وبيع رأس البقر بألف درهم وما يقاربها، واستعمل الناس الخيل والجمال والحمير عوضاً عنها، فما أجدت في الحرث، ولقد حكي عن شيخ

(١) الذهبي: تاريخ الإسلام، ج ٥٢، ص ٣٧ ؛ ابن كثير: البداية، ج ١٣، ص ٤٠١؛ المقريزي: السلوك، ج ٢، ص ٢٦٢ العيني: عقد الجمان، ج ٣، ص ٢٧٦ .

(٢) ابن الجزري: تاريخ، ج ١، ص ٢٨٢؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، ج ٥٢، ص٤٠؛المقريزي: السلوك، ج ٢، ص ٢٦٨.

(٣) السلوك، ج ٢، ص ٢٦٧– ٢٦٨ .

(٤) الذهبي: تاريخ الإسلام، ج ٥٢، ص ٤٠–٤٢؛ ابن كثير: البداية، ج ١٣، ص٣٤٣ ؛ المقريزي: السلوك، ج ٢، ص ٢٦٧– ٢٦٨؛ السيوطي: حسن المحاضرة، ج ١، ص ٣١٤ .

(٥) بيبرس المنصوري: مختار الأخبار، ص ١١٥؛ المقريزي: السلوك، ج ٢، ص ٣٣٩؛ العيني: عقد الجمان، ج ٤.؛ ص ١٣٧–١٣٨ .

(٦) عقد الجمان، ج ٤.؛ ص ١٣٧–١٣٨وذكر المقريزي أنها ثمانية عشر، السلوك، ج٢، ص ٣٣٩.

من أهل الفلاحة ببلد أشموم[١] أنه كان يملك من الأبقار السارحة في تلك الجزائر ما جملته ألف وإحدى عشرة رأساً، فماتت في هذا الفناء أولاً فأولاً حتى لم يبق له منها غير ثمانية لا سواها" وفي سنة ٧٠٣هـ/١٣٠٣م تفشى الموتان في الخيول ببلاد الشام، وفشا الموتان في خيول مصر أيضاً، فهلك كثير منها، قال العيني: [٢] " ووصلت ريح الوباء التي أصابتها إلى الديار المصرية، فنفق من خيول العسكر شيء عظيم" وفي سنة ٧٠٩هـ/١٣٠٩ م تفشى الوباء والأمراض الحادة في مصر، وطلبت الأدوية والأطباء، وعز سائر ما يحتاج اليه المرضى ولم تقدم المصادر معلومات كافية عن هذا الوباء والأمراض[٣] .

وفي سنة ٧١٦هـ / ١٣١٦ م حدثت عاصفة شديدة سوداء بمصر ضربت أسوان ، وإسنا ، وأرمنت[٤] وصاحب هذه العاصفة حدوث حريق في المناطق الزراعية، وأعقب ذلك تفشي الوباء في المنطقة أدى إلى هلاك أعداد كبيرة من السكان[٥]، وانتشر الوباء إلى الأشمونين[٦] وفي سنة ٧٢٠هـ/١٣٢٠م فشت الأمراض الكثيرة في مصر[٧] ، وفي شهر صفر سنة ٧٢٧هـ/١٣٢٧ م فشت الأمراض الحادة وحميات دموية في مصر وقل أن سلم منها أحد، ولم تقدم المصادر معلومات كافية عن هذه الأمراض[٨] .

وفي سنة ٧٣١هـ/١٣٣٠ م تفشى الوباء بمصر، ووصفه ابن أيبك[٩] بأنه كان يسيراً، وفي سنة ٧٤٩هـ/١٣٤٨م تفشى الوباء العظيم الذي شمل كل العالم، والذي عُرف في أوربا باسم –الموت

(١) اسم لبلدتين بمصر يقال لإحداهما أشموم و طَناح وهي مدينة بالدقهلية والأخرى أشموم الجريسات بالمنوفية انظر: ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ١، ص ٢٣.

(٢) المقريزي: السلوك، ج ٢، ص ٣٧٠؛ العيني: عقد الجمان، ج ٤، ص ٣٠٨.

(٣) المقريزي: السلوك، ج ٢، ص ٤٣١.

(٤) كورة بصعيد مصر ومنها الي مدينة أسوان مرحلتان . انظر : ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ج ١ ، ص ١٨٩ .

(٥) المقريزي: السلوك، ج ٢، ص ٥١٦.

(٦) (كورة من كُور الصعيد الأدنى غربي النيل) انظر : ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ١، ص ٢٣٧.

(٧) السيوطي: حسن المحاضرة، ج ٢، ص ٣٠١.

(٨) ابن الجزري: تاريخ، ج ٢، ص ١٧٦؛ المقريزي: السلوك، ج ٣، ص ٩٥.

(٩) كنز الدرر، ج ٩، ص ٣٥٨.

الأسود[١] ، انتقل هذا الوباء[٢] إلى قارة أوربا عن طريق السفن التجارية الجنوبية التي جابت البحر المتوسط وحملت معها العدوى إلى موانئ إيطاليا، ومن ثم انتقل الوباء إلى كافة أوربا، وقد أفنى هذا الطاعون ثلث سكان أوربا على الأقل واستمر هذا الوباء إلى بداية سنة ٧٥٠هـ/١٣٤٩م إلى أن نقص في المحرم منها، وقد بدأ هذا الوباء بالانتشار في مصر منذ بداية سنة ٧٤٩هـ/١٣٤٨م ، وقد سجل لنا المؤرخون مدى شدة فتك هذا الوباء في هذه المدن وأول ظهوره كان في مدينة[٣] الإسكندرية ، وبلغ عدد الموتى فيها مائة نسمة يومياً، ثم زاد العدد إلى مائتين يومياً، وبلغ العدد في أحد الأيام إلى سبعمائة نسمة، ثم تفشى الوباء في مدينة "دمنهور، والبحيرة ، والمحلة ، وبلبيس، ودمياط كلها حتى عم أهلها، وماتت دوابهم " .

وفي بداية شهر رجب تفشى الوباء في مدينة القاهرة وضواحيها، وذكر المؤرخون أن عدة من كان يموت يومياً ثلاثمائة نسمة، ووصل العدد في نهاية هذا الشهر زيادة على الألف نسمة يومياً، وقد سجل لنا المقريز [٤] شدة فتك هذه الوباء بمدينة القاهرة وضواحيها بقوله: "وامتلأت المقابر من باب النصر إلى قبة النصر طولاً، وإلى الجبل عرضاً، وامتلأت مقابر الحسينية إلى الريدانية، ومقابر خارج باب المحروق والقرافة، وصار الناس يبيتون بموتاهم على الترب، لعجزهم عن موارتهم، وكان أهل البيت يموتون جميعاً وهم عشرات، فما يوجد لهم سوى نعش واحد، ينقلون فيه شيئاً بعد شيء "وفي شهري شعبان ورمضان اشتد الوباء في مدينة القاهرة، فقد تراوحت أعداد الموتى يومياً حوالي عشرين ألف نسمة، وقدرت المصادر أعداد الموتى في هذين الشهرين بتسعمائة ألف –٩٠٠ ألف– نسمة[٥]، وفي شهر شوال ازدادت حدة الوباء، وقد بدأ هذا الوباء بالارتفاع من مدينة القاهرة مع منتصف شهر ذي القعدة ورغم ذلك صور

(١) يذكر المؤرخون أن منشأ هذا الوباء كان في شرق آسيا في الصين والهند، وأنه انتشر فيها منذ عام (٧٤٢هـ/١٣٤١م) ثم انتقل منها إلى بقية بلدان العالم خلال السنوات التالية . الذهبي: العبر، ج ٤، ص ١٤٩ ؛ ابن الوردي: التاريخ، ج ٢، ص ٣٣٩؛ ابن كثير: البداية، ج ١٤، ص ٢٦٠؛ المقريزي: السلوك، ج ٤، ص ٨٠ –٨١؛ ابن قاضي شهبة: التاريخ، ج ١، ص ٥٤١ – ٥٤٢؛ ابن حجر: بذل الماعون، ص ٢٣٠ .

(2) Dols: the black death in the Middle East. p 318 .

(٣) المقريزي: السلوك، ج ٤، ص ٨٤ .

(٤) السلوك، ج ٤، ص ٨٧ .

(٥) الذهبي: العبر، ج ٤، ص ١٤٩؛ ابن حجر: بذل، ص ٢٣٧؛ ابن تغري بردي: النجوم، ج ١٠، ص ١٦٠ – ١٦٨؛ السخاوي: الذيل، ج ١، ص ٩٧؛ ابن شاهين: نيل الأمل، ج ١، ص.١٧ .

لنا المقريزي[١] حالة الناس في هذا الشهر بقوله: "وما أهل ذو القعدة إلا القاهرة خالية مقفرة ، لا يوجد في شوارعها مار، بحيث إنه يمر الإنسان من باب زويلة إلى باب النصر فلا يرى من يزاحمه، لكثرة الموتى والاشتغال بهم وعلت الأتربة على الطرقات، وتنكرت وجوه الناس، وامتلأت الأماكن بالصياح، فلا تجد بيتاً إلا وفيه صيحة، ولا تمر بشارع إلا وفيه عدة أموات وصارت النعوش لكثرتها تصطدم، والأموات تختلط" وفي نهاية هذه السنة انتقل الوباء إلى الصعيد وتفشى فيها، ويصور لنا المقريزي[٢] شدة الوباء فيها بقوله: "وخلت بلاد الصعيد مع اتساع أرضها، بحيث كانت مكلفة مساحة أرض أسيوط تشتمل على ستة آلاف نفر يؤخذ منها الخراج، فصارت في سنة الوباء هذه تشتمل على مائة وستة عشر نفراً"، وما أن استهلت سنة ٧٥٠هـ/١٣٤٩ م إلا وقد تناقص الوباء[٣].

وفي سنة ٧٥٤هـ/١٣٥٣ م فشت الأمراض في مصر وخاصة في مدينة الإسكندرية والقاهرة، ومكثت هذه الأمراض مدة شهرين، وقد بلغ عدد الموتى ما بين خمسين وستين شخصاً يومياً[٤] وفي سنة ٧٦١هـ/١٣٥٩ م تفشى الوباء في مصر، واستمر إلى سنة ٧٦٢هـ/١٣٦٠ م ، ويذكر المؤرخون[٥] أن انتشار هذا الوباء كان بسبب كثرة المستنقعات الناشئة عن فيضان النيل في تلك السنة، وقُدر ضحايا هذا الوباء يومياً بحوالي ألفي نسمة .

وفي جمادى الأولى سنة ٧٦٤هـ/١٣٦٢ م تفشى الطاعون في عامة بلاد الشام ومصر، وتزايدت حدة هذا الطاعون في مصر في شهر رجب حيث قُدرت أعداد الموتى يومياً ما بين ألف إلى ثلاثة آلاف نسمة، وارتفع هذا الطاعون من مصر في شهر رمضان[٦]، ورغم ذلك كان هذا الطاعون أقل حدة من الطواعين السابقة، ولذلك وصفه ابن تغري[٧] بردي بقوله: "لكنه كان على كل حال أخف من الطاعون

---

(١) السلوك، ج ٤، ص ٨٧ .

(٢) السلوك، ج ٤، ص ٩٠ .

(٣) ابن كثير: البداية والنهاية، ج ١٤، ص ٢٦٠ – ٢٦٤؛ المقريزي: السلوك، ج ٤، ص ٨٠– ١٠١ ؛ ابن قاضي شهبة: التاريخ، ج ١، ص ٥٤١ – ٥٤٢؛ ابن تغري: النجوم، ج ١٠، ص ١٦٨.

(٤) المقريزي: السلوك، ج ٤، ص ١٨٦.

(٥) ابن قاضي شهبة: تاريخ، ج ٢، ص ١٧٩؛ ابن تغري: النجوم، ج١٠، ص ٣١١ ؛ السخاوي: الذيل التام، ج ١، ص ١٧٨ ؛ ابن شاهين: نيل الأمل، ج ١، ص ٣٢٠–٣٢٣.

(٦) ابن كثير: البداية، ج ١٤، ص ٣٤٣؛ ابن العراقي: الذيل على العبر، ج ١، ص ١١٠ ؛ المقريزي: السلوك، ج ٤، ص ٢٦٧؛ ابن قاضي شهبة: التاريخ، ج ٢، ص ٢١٩–٢٢٠؛ السخاوي: الذيل، ج ١، ص ١٩٥ .

(٧) النجوم الزاهرة، ج ١١، ص ١٤ .

العام الذي كان في سنة تسع وأربعين وسبعمائة" وفي سنة ٧٦٥هـ/١٣٦٣ م تفشى الموتان في الأبقار في مصر و أفريقية، وقد نفق عدد كبير منها(١) وفي سنة ٧٦٩هـ/١٣٦٨م تفشى طاعون في مصر استمر لمدة أربعة أشهر –لم تحدد المصادر تاريخ بداية هذا الوباء– وقُدر عدد ضحاياه يومياً بألف نسمة(٢)، وفي سنة ٧٧٢هـ/١٣٧١ م فشت الأمراض في مصر، وخاصة في القاهرة ومدن الوجه البحري، وتجاوز عدد الموتى يومياً ما يقارب ثمانين شخصاً(٣) وفي شهر ذي القعدة سنة ٧٧٥هـ/١٣٧٤م فشت الأوبئة بمدينة الإسكندرية والمناطق المجاورة لها، ولم تذكر المصادر معلومات كافية حول هذه الأوبئة (٤)

وفي سنة ٧٧٦هـ/١٣٧٤– ١٣٧٥م حدثت مجاعة في مصر، وصاحبها انتشار الوباء، وقد بدأ هذا الوباء بالانتشار في منتصف شهر جمادى الثاني ، وفي شهر رمضان ١٣٧٥ م اشتد أمر الوباء وخاصة في أغنياء الناس، وقُدر عدد ضحايا هذا الوباء في هذا الشهر ٥٠٠ شخص يومياً، وفي شهر ذي الحجة تناقص الوباء(٥) .

وفي شهر ذي القعدة سنة ٧٧٨هـ/١٣٧٧م تفشى الوباء في مصر(٦)، واستمر إلى بداية سنة ٧٧٩هـ/١٣٧٧م ومات في هذا الوباء أعداد كبيرة من الناس(٧)، وفي شهر شوال سنة ٧٨٢هـ/١٣٨٠ م تفشى الوباء في مدينة الإسكندرية، واستمر هذا الوباء إلى شهر ذي الحجة ١٣٨١ م ، وذكر المؤرخون(٨) أن عدد ضحايا هذا الوباء بلغ يومياً ١٥٠ شخصاً، وفي بداية سنة محرم ٧٨٣ هـ/١٣٨١ م

(١) ابن العراقي: الذيل، ج ١، ص١٥١؛ المقريزي: السلوك، ج٤، ص ٢٧٣؛ ابن تغري بردي: النجوم، ج ١١، ص ٢٦.

(٢) ابن العراقي: الذيل، ج ١، ص ٢٣٦؛ المقريزي: السلوك، ج ٤، ص ٣١٩؛ ابن تغري بردي: النجوم، ج. ١١، ص ٥٢؛ السخاوي: الذيل، ج ١، ص ٢٢٧؛ ابن شاهين: نيل، ج ١، ص ٤١٨ .

(٣) المقريزي: السلوك، ج ٤، ص ٣٤٠؛ ابن شاهين: نيل الأمل، ج ٢، ص ٢٤ .

(٤) المقريزي: السلوك ،ج ٤، ص٣٦٧؛ابن قاضي شهبة: التاريخ، ج ٢، ص٤٣٦؛ابن شاهين: نيل الأمل ،ج٢، ص٦٦.

(٥) المقريزي: السلوك، ج ٤، ص ٣٧٤ – ٣٧٨؛ ابن قاضي شهبة: تاريخ، ج ٢، ص ٤٤٧ – ٤٥٠ ؛ السخاوي: الذيل التام، ج١، ص ٢٧٣-٢٧٤ .

(٦) المقريزي: السلوك، ج ٥، ص ٢١ .

(٧) المقريزي: السلوك، ج ٥، ص ٢٧؛ السخاوي: الذيل، ج ١، ص ٣٠٠؛ ابن شاهين: نيل، ج ٢، ص ١٢٢-١٢٣.

(٨) المقريزي: السلوك، ج ٥، ص ٩٥؛ ابن حجر: إنباء الغمر، ج ٢، ص ٢١٩؛ ابن شاهين: نيل الأمل، ج ٢، ص ١٧٢ .

تفشى الطاعون في مصر، واشتد أمره في شهر (صفر وربيع الأول)، وقُدر عدد الموتى يومياً بحوالي ٣٠٠ شخص يومياً، وارتفع الطاعون في أواخر شهر ربيع الأول [١].

ثانياً: الأوبئة والطواعين والموتان في بلاد الشام:

شهدت بلاد الشام حدوث جوائح عدة من الأوبئة والطواعين والموتان خلال مرحلة الدراسة: وفي سنة ٦٥٦هـ/١٢٥٨ م احتل التتار بغداد وارتكبوا فيها مجزرة رهيبة ، استمرت أربعين يوماً، وراح ضحيتها الآلاف من الناس، ونتيجة لذلك فسد الهواء في العراق وانتشر الوباء، وانتقل هذا الوباء إلى الشام ومات فيه عدد كبير من الناس، "وكثر الطاعون بالشام مع بعد مسافة بغداد، وقال ابن كثير [٢]: "ولما انقضى الأمر المقدر وانقضت الأربعون يوماً بقيت بغداد خاوية على عروشها ليس بها أحد إلا الشاذ من الناس، والقتلى في الطرقات كأنها التلول، وقد سقط عليهم المطر فتغيرت صورهم وأنتنت من جيفهم البلد، وتغير الهواء فحصل بسببه الوباء الشديد حتى تعدى وسرى في الهواء إلى بلاد الشام، فمات خلق كثير من تغير الجو وفساد الريح، فاجتمع على الناس الغلاء والوباء والفناء والطعن والطاعون، فإنا لله وإنا إليه راجعون" .

وقد صور لنا المؤرخون [٣] شدة فتك هذا الوباء، في عدة مناطق في الشام، خصوصاً بحلب ودمشق، ففي حلب، ذكر المؤرخون أن عدد من كان يموت في هذا الوباء يومياً، بلغ كل يوم، ألف ومائتا إنسان، وأما دمشق فقد كان فيها "من المرض ما لا يحد ولا يوصف" ومات" خلق لا يحصى" حتى أنه " لم يوجد مغسل للموتى" لكثرة الموتى، وفي سنة ٦٧٢هـ/١٢٧٣ انتشرت الأمراض والحميات في الرملة والقدس، ويبدو أن سبب انتشار هذه الأمراض هو شرب السكان من مياه الآبار الملوثة [٤] وفي شهر رمضان من سنة ٦٩١هـ/١٢٩١ م كثر موتان الجمال في جيش السلطان الأشرف صلاح الدين خليل بن قلاوون بعد فتحه قلعة الروم، مما جعل الأمراء يحملون أثقالهم على الخيل، وأذن السلطان

---

(١) ابن العراقي: الذيل، ج ٢، ص ٥٠٦؛ المقريزي: السلوك، ج ٥، ص ١٠١؛ ابن حجر: إنباء الغمر، ج ١، ص ٢٣١؛ ابن شاهين: نيل، ج ٢، ص ١٧٤.

(٢) البداية والنهاية، ج ١٣، ص ٢٣٦ .

(٣) المقريزي: السلوك، ج ١، ص ٤٩٩ ؛ العيني: عقد الجمان، ج ١، ص ١٧٤- ١٧٥-١٧٦ .

(٤) ابن عبد الظاهر: الروض، ص ٤٢٨؛ بيبرس المنصوري: مختار، ص ٥٢؛ النويري: نهاية، ج ٣٠، ص ١٣٤.

لضعفاء العسكر في العودة إلى القاهرة[١] وفي سنة ٧٠٣هـ/١٣٠٣ م وقع موتان في الخيول ببلاد الشام ومصر، مما أدى إلى موت نحو الثمانين ألف فرس في حلب ودمشق[٢] .

وفي سنة ٧٢٦هـ/١٣٢٦ م حدثت أمراض ووباء عم بلاد الشام، وكان أشده الذي حدث في مدينة دمشق وحلب، وقد أصاب هذا المرض المؤرخ ابن الجزري وأهل بيته وقد وصف ما حل به في هذا المرض بقوله: "حصل بدمشق للناس مرض وحمى وسعال ونزلات بحيث مرض كل من في دمشق ولم يبق فيها بيت بلا مرض، بحيث كنا في البيت سبعة أنفس مرضوا السبعة في وقت واحد، واستمر هذا الحال إلى آخر الشهر"، ووصف ما حدث في حلب بقوله: "ووردت كتب من حلب تخبر أن المرض كثير"[٣] وفي شهر المحرم وصفر سنة ٧٣٥هـ/١٣٣٤ م اجتاح مرض الخانوق وهو الخناق[٤] مدينة دمشق متسبباً في موت الكثير من السكان[٥] .

وفي سنة ٧٤٩هـ/١٣٤٨ م وقع وباء عظيم شمل كل العالم[٦]، واستمر هذا الوباء إلى بداية سنة ٧٥٠هـ/١٣٤٩ م ، وقد عرف هذا الوباء في أوربا باسم – الطاعون الأسود –انتقل هذا الوباء[٧] إلى قارة أوربا عن طريق السفن التجارية الجنوبية التي جابت البحر المتوسط وحملت معها العدوى إلى موانئ إيطاليا، ومن ثم انتقل الوباء إلى كافة أوربا، وقد أفنى هذا الطاعون ثلث سكان أوربا على الأقل، وقد أسهب المؤرخون في وصف مدى انتشاره وتأثيره في العالم، قال المقريزي[٨]: "عم أقاليم الأرض شرقاً وغرباً، وشمالاً وجنوباً، جميع أجناس بني آدم وغيرهم، حتى حيتان البحر، (وطير السماء، ووحش البر)

(١) النويري: نهاية، ج ٣١، ص ١٥٠؛ المقريزي: السلوك، ج ٢، ص ٢٣٤.

(٢) المقريزي: السلوك، ج ٢، ص ٣٧٠؛ العيني: عقد الجمان، ج ٤، ص ٣٠٨ .

(٣) ابن الجزري: تاريخ، ج ٢، ص.١٢٣.

(٤): (كل داء يمتنع معه نفوذ النفس إلى الرئة) آخرون، المعجم الوسيط، ج ١، ص ٥٤١ .

(٥) ابن الجزري: تاريخ، ج ٣، ص ٧٥٦-٧٥٨. ؛ المقريزي: السلوك، ج ٣، ص ١٩٠.

(٦) يذكر المؤرخون أن منشأ هذا الوباء كان في شرق آسيا في الصين والهند، وأنه انتشر فيها منذ عام (٧٤٢هـ/١٣٤١م) ثم انتقل منها إلى بقية بلدان العالم خلال السنوات التالية ينظر: ابن الوردي: التاريخ، ج ٢، ص ٣٣٩؛ ابن كثير: البداية، ج ١٤، ص ٢٦٠؛ المقريزي: السلوك، ج ٤، ص ٨٠ -٨١؛ ابن قاضي شهبة: التاريخ، ج ١، ص ٥٤١ - ٥٤٢؛ ابن حجر: بذل الماعون، ص ٢٣٠.

(7) Dols: the black death in the Middle East. p 318.

(٨) السلوك، ج ٤، ص ٨١.

وقال السخاوي[١]: "ولم يعهد نظيره فيما مضى، فإنه طبق شرق الأرض وغربها، ووصل حتى مكة المشرفة، وما سلم منه سوى طيبة" ويسجل لنا المقريزي منشأ هذا الوباء وكيفية انتشاره في العالم بقوله إنه بدأ من بلاد " القان الكبير[٢] وبعدها من توريز إلى آخرها، وهي بلاد الخُطا والمُغل، فهلكوا بأجمعهم من غير علة، وصاروا جيفاً مرمية فوق الأرض...، ثم حملت الريح نتنتهم إلى البلاد، فما مرت على بلد ولا أرض، إلا وساعة يشمها إنسان أو حيوان مات لوقته وساعته، ثم اتصل الوباء ببلاد الشرق جميعها،...، وعم الوباء بلاد قرمان وقيصرية، وجميع جبالها وأعمالها، ففني أهلها ودوابهم ومواشيهم، وعظم الموتان ببلاد سيس[٣] ومات من أهل تكفور[٤] في يوم واحد، بموضع واحد مائة وثمانون نفساً، وخلت سيس وبلادها، وباد أهل الصين، ولم يبق منهم إلا القليل، وكان الفناء ببلاد الهند أقل منه ببلاد الصين"[٥]، و "عم الوباء بلاد الفرنج، وعم الموت أهل جزيرة الأندلس، إلا مدينة غرناطة، فإنه لم يصب أهلها منه بشيء"[٦] و "عم الموتان إفريقية بأسرها، جبالها وصحاريها ومدنها"[٧] وقد أصاب هذا الوباء بلاد الشام كغيرها من البلدان، وكان أول ظهوره في مدينة غزة، ومنها انتقل إلى بقية بلاد الشام.

وقال ابن الوردي[٨] وهو يصف هذا الوباء: "ثم غزا غزة، وهز عسقلان هزة، وعك إلى عكا، واستشهد بالقدس وزكى، فلحق من النهار بين الأقصى بقلب كالصخرة، ولولا فتح باب الرحمة لقامت القيامة في مرة، ثم طوى المراحل، ونوى أن يلحق الساحل، فصاد صيداً، وبغت بيروت كيداً، ثم صدد الرشق، إلى جهة دمشق " وذكر ابن كثير أن الوباء وقع في غزة على وجه التحديد في شهر محرم من

---

(١) الذيل التام: ج ١، ص ٩٧.

(٢) لقب كان يطلق على ملك التتار انظر: المقريزي: السلوك، ج ١، ص ٤٧١ .

(٣) سيس أو سيسية كانت مدينة تاريخية في قيليقيا اشتهرت في العصور الوسطى كعاصمة لمملكة قيليقيا الأرمينية. قاعدة بلاد الأرمن تقع أطلالها حاليا في بلدة قوزان بمحافظة أضنة بتركيا، انظر: القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٤ص ١٣٤.

(٤) تكفور (لقب كان يطلق على ملك بلاد الأرمن) انظر: القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٨، ص ٣١ ؛ ابن قاضي شهبة: التاريخ، ج ٢، ص ٤٥٠ .

(٥) المقريزي: السلوك، ج ٤، ص ٧٩–٨٠؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ١٠، ص ١٩٥ – ١٩٦.

(٦) المقريزي: السلوك: ج ٤، ص ٨٣ ؛ ابن شاهين: نيل الأمل، ج ١، ص ١٧٧ .

(٧) المقريزي: السلوك: ج ٤، ص ٨٤.

(٨) تاريخ ابن الوردي، ج ٢، ص٣٣٩ .

ذلك العام، قال ابن كثير[1]: "وتواترت الأخبار بوقوع البلاء في أطراف البلاد، فذكر عن بلاد القرم أمر هائل وموتان فيهم كثير،...، وكذلك وقع بغزة أمر عظيم، وقد جاءت مطالعة نائب غزة إلى نائب دمشق أنه مات من يوم عاشوراء ١٠ محرم إلى مثله من شهر صفر نحو من بضعة عشر ألفاً"، ويذكر المقريزي وغيره[2] أن الوباء حدث في غزة في ٢محرم ٧٤٩هـ/١٣٤٨ م ، قال: "ومات بغزة من ثاني المحرم إلى رابع صفر على ما ورد في كتاب نائبها – زيادة على اثنين وعشرين ألف إنسان حتى غُلقت أسواقها" ومن الرواية السابقة يتضح أن هناك اختلاف في ذكر العدد ما بين ابن كثير والمقريزي، فابن كثير يذكر أن عدد الموتى بلغ " بضعة عشر ألفا"، والمقريزي يذكر أنه بلغ: "زيادة على اثنين وعشرين ألف إنسان"، وهو مخالف لما ذكره ابن كثير أنه حدث في ١٠ محرم، ونرجح رواية ابن كثير كونه معاصراً للحدث، ولكن المقريزي [3] يذكر في موضع آخر أن أول ظهور للوباء في بلاد الشام كان في مدينة حلب، قال المقريزي: " في أول جمادى الأولى–أي سنة ٧٤٩هـ – ابتدأ الوباء بأرض حلب، فعم جميع بلاد الشام وبلاد ماردين [4] وجبالها، وباد أهل الغور، وسواحل عكا وصفد وبلاد القدس ونابلس والكرك وعربان البوادي وسكان الجبال" وذِكر المقريزي[5] أن بدء الوباء في الشام كان في مدينة حلب، مناقض لما رواه المؤرخون المعاصرون للوباء، كابن الوردي والصفدي وابن كثير وابن بطوطة، ومناقض لما ذكره هو نفسه عن وقوع الوباء في غزة في شهر محرم أول سنة ٧٤٩هـ/١٣٤٨ م ، وهذا يرجح أن الوباء حدث في بلاد الشام بداية في غزة منذ أوائل السنة في شهر المحرم، قبل حلب الذي وقع بها الوباء في شهر جمادى الأولى، أي بعد ثلاثة شهور من تفشيه في غزة. ويذكر ابن شاهين[6] أن الوباء لم يدخل "ثغر أسوان ولا بغرناطة من بلاد الأندلس ولا بغزة وحماة".

وذكره أن هذا الوباء لم يحدث بغزة، مناقض لما ذكره المؤرخون من قبله، ومن الراجح صحة رواياتهم، ويؤكد ذلك أن منهم مؤرخين عاصروا تلك الأحداث، كابن الوردي وابن كثير، والصفدي، وابن بطوطة، بينما ولد ابن شاهين عام (٨٤٤هـ /١٤٤٠ م)، أي بعد حدوث الوباء بنحو ٩٥ سنة. وقد أورد

---

(١) البداية والنهاية، ج ١٤، ص ٢٦٠؛ ابن قاضي شهبة: التاريخ، ج ١، ص ٥٤٢ –٥٤٣ .

(٢) المقريزي: السلوك، ج ٤، ص ٨٢؛ ابن تغري بردي: النجوم ج ١٠، ص ١٩٨ .

(٣) السلوك: ج ٤، ص ٨٢ .

(٣) قلعة مشهورة على قمة جبل الجزيرة انظر : ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٥، ٤٦ .

(٥) السلوك: ج ٤، ص ٨٢ – ٨٣ .

(٦) نيل الأمل: ج ١، ص ١٧٧.

المؤرخون وصفاً لمدى فتك هذا الوباء في مدينة غزة، ومن ذلك ما سجله المقريزي(١) قال: "شمل الموت أهل الضياع بأرض غزة، وكان أواخر زمان الحرث، فكان الرجل يوجد ميتاً والمحراث في يده، ويوجد آخر قد مات وفي يده ما يبذره، وماتت أبقارهم، وخرج رجل بعشرين نفراً لإصلاح أرضه، فماتوا واحداً بعد واحد، وهو يراهم يتساقطون قدامه، ودخل ستة نفر لسرقة دار بغزة فأخذوا ما في الدار ليخرجوا به فماتوا كلهم "وأما عن بقية بلاد الشام، فقد حدث الوباء في مدينة حمص في ١ربيع الأول (٢) أما في مدينة دمشق فقد ابتدأ الوباء فيها في شهر ربيع الأول من العام نفسه أيضاً .

وقد سجل لنا ابن كثير(٣) وآخرين(٤) أحداث هذا الوباء في مدينة دمشق بدقة متناهية، إذ كان شاهد عيان على هذا الوباء. ففي يوم الجمعة ٧ ربيع الأول ، قُرئ صحيح البخاري في مساجد دمشق بعد صلاة الجمعة، "ودعا الناس برفع الوباء عن البلاد، وذلك أن الناس لما بلغهم من حلول هذا المرض في السواحل وغيرها من أرجاء البلاد يتوهمون ويخافون وقوعه بمدينة دمشق، حماها الله وسلمها مع أنه قد بلغهم أنه قد مات جماعة من أهلها بهذا الداء" وفي صبيحة يوم الأحد ٩ ربيع الأول "اجتمع الناس بمحراب الصحابة وقرأوا متوزعين سورة نوح ثلاثة آلاف مرة وثلاثمائة وثلاث وستين مرة، عن رؤيا رجل أنه رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم أرشده إلى قراءة ذلك كذلك" وفي يوم الجمعة ٦ ربيع الثاني، بدأ أئمة المساجد بالقنوت في الصلوات، والدعاء برفع الوباء، وذلك بعد ازدياد فتك الوباء بالناس، إذ بلغ عدد الأموات يومياً زيادة عن مائتي شخص، وفي يوم الاثنين ١٦ من شهر ربيع الثاني" كثرت الموتى فالله المستعان"؛ وفي يوم الاثنين ٢٣ ربيع الثاني، "نُودي في البلد أن يصوم الناس ثلاثة أيام وأن يخرجوا في اليوم الرابع وهو يوم الجمعة إلى عند مسجد القدم يتضرعون إلى الله ويسألونه في رفع الوباء عنهم، فصام أكثر الناس ونام الناس في الجامع وأحيوا الليل كما يفعلون في شهر رمضان، فلما أصبح الناس يوم

---

(١) السلوك: ج ٤، ص ٨٢ .

(٢) ابن بطوطة: تحفة النظار، ج ١، ص ١١٦.

(٣) البداية والنهاية، ج ١٤، ص ٢٦٠.

(٤) المقريزي: السلوك، ج ٤، ص ٨٣-٨٤ ؛ ابن قاضي شهبة: التاريخ، ج ١، ص ٥٤٤؛ السخاوي: الذيل التام، ج ١، ص ٩٨.

الجمعة السابع والعشرين منه خرج الناس يوم الجمعة من كل فج عميق، من بعد صلاة الصبح فما زالوا هنالك يدعون الله تعالى حتى تعالى النهار جداً، وكان يوماً مشهوداً[(1)]

وفي يوم الخميس ١٠ جمادى الأولى " صلى الخطيب بعد صلاة الظهر على ستة عشر ميتاً جملة واحدة، فتهول الناس من ذلك وانذعروا، وكان الوباء يومئذ كثيراً ربما يقارب الثلاثمائة بالبلد وحواضره فإنا لله وإنا إليه راجعون، وفي يوم الجمعة صلى بعد الصلاة على خمسة عشر ميتاً بجامع دمشق، وصلى على إحدى عشرة نفساً رحمهم الله"[(2)] وفي يوم الثلاثاء ١٥ جمادى الثاني " قوي الموت وتزايد وبالله المستعان، ومات خلائق من الخاصة والعامة ممن نعرفهم وغيرهم رحمهم الله وأدخلهم جنته، وبالله المستعان، وكان يصلي في أكثر الأيام في الجامع على أزيد من مائة ميت فإنا لله وإنا إليه راجعون، وبعض الموتى لا يؤتى بهم إلى الجامع، وأما حول البلد وأرجائها فلا يعلم عدد من يموت بها إلا الله عز وجل رحمهم الله آمين" وفي يوم الجمعة ٢ رجب "صلي بعد الجمعة بالجامع الأموي على غائب، على القاضي علاء الدين ابن قاضي شهبة، ثم صلي على إحدى وأربعين نفساً جملة واحدة، فلم يتسع داخل الجامع لصفهم بل خرجوا ببعض الموتى إلى ظاهر باب السر، وخرج الخطيب والنقيب فصلى عليهم كلهم هناك، وكان وقتاً مشهوداً، وعبرة عظيمة"[(3)] .

يذكر أيضاً ابن قاضي شهبة وأخرون[(4)] "وفي يوم الاثنين ١٢ رجب، بعد أذان الظهر، حصل بدمشق وما حولها " ريح شديدة أثارت غباراً شديداً اصفر الجو منه ثم اسود حتى أظلمت الدنيا، وبقي الناس في ذلك نحواً من ربع ساعة يستجيرون الله ويستغفرون ويبكون، مع ما هم فيه من شدة الموت الذريع، ورجا الناس أن هذا الحال يكون ختام ما هم فيه من الطاعون، فلم يزدد الأمر إلا شدة، والله المستعان، وبلغ المصلى عليهم في الجامع الأموي إلى نحو المائة وخمسين، وأكثر من ذلك، خارجاً عمن لا يؤتى بهم إليه من أرجاء البلد وممن يموت من أهل الذمة، وأما حواضر البلد وما حولها فأمر كثير، يقال إنه بلغ ألفا في كثير من الأيام، فإنا لله وإنا إليه راجعون" .

---

(١) ابن كثير: البداية، ج ١٤، ص ٢٦١؛ ابن قاضي شهبة: التاريخ، ج ١، ص ٥٤٦؛ السخاوي: الذيل، ج ١، ص ٩٨.

(٢) ابن قاضي شهبة: التاريخ، ج ١، ص ٥٤٧.

(٣) ابن كثير: البداية: ج ١٤، ص ٢٦٢؛ ابن قاضي شهبة: التاريخ، ج ١، ص ٥٤٩.

(٤) ابن كثير: البداية: ج١٤، ص٢٦٣؛ المقريزي: السلوك، ج ٤، ص ٨٥؛ ابن قاضي شهبة: التاريخ، ج١، ص ٥٥٠ .

وقد وصف المؤرخون أعراض صاحبت هذا الوباء ومنها، ظهور بثرة خلف أُذن الإنسان، أو ظهور ما يسمى الكبة تحت الإبط، ومن أعراضه أيضاً بصق الدم وكان من تصيبه هذه الأعراض لا يعيش أكثر من خمسين ساعة هذه الأعراض تشبه أعراض الطاعون الدبلي (الغددي)(١)، ولا تمدنا المصادر بمعلومات كافية عن كيفية توقف هذا الوباء، وفي جمادى الأولى ٧٦٤هـ/١٣٦٣ م حدث وباء في عامة بلاد الشام ومصر(٢) واستمر هذا الوباء، وخاصة في دمشق، إلى شهرذي الحجة ٧٦٥هـ/١٣٦٤ م (٣) وقد وقع الوباء في دمشق في أول شهر شعبان ٧٦٤هـ/١٣٦٣ م ، وانتشر بين اليهود خاصة، ومات منهم عدد كبير، قال ابن كثير(٤): "وفي شهر رمضان تفاقم الحال بسبب الطاعون فإنا لله وإنا إليه راجعون، وجمهوره في اليهود لعله قد فقد منهم من مستهل شعبان إلى مستهل رمضان نحو الألف نسمة خبيثة، كما أخبرني بذلك القاضي صلاح الدين الصفدي وكيل بيت المال، ثم كثر ذلك فيهم في شهر رمضان جداً" واستطرد ابن كثير(٥) أن سنة ٧٦٥هـ/١٣٦٣ م استهلت و"داء الفناء موجود في الناس، إلا أنه خف، وقلّ، ولله الحمد، وفي شهر شعبان ٧٦٥هـ/١٣٦٤ م كثر الوباء والفناء في الناس، وبلغ عدد من يموت يومياً سبعين شخصاً، وفي شهر رمضان ٧٦٥هـ/١٣٦٤ م تزايد أمر الوباء، وصار يموت يومياً حوالي مائة شخص، واستهل شهر شوال ٧٦٥هـ/١٣٦٤ م وقد استمر الوباء، ولكنه بدأ بالتناقص، وبلغ عدد من يموت يومياً خمسين شخصاً، وفي شهر ذي القعدة تناقص الوباء حتى وصل عدد من يموت يومياً عشرين شخصاً، واستهل شهر ذي الحجة ٧٦٥هـ/١٣٦٤ م وقد رفع الوباء عن دمشق(٦) .

---

(١) المرسي و الشاذلي: أساسيات علم الحشرات، ص ٤٥٥؛ أبو الحب، الحشرات الناقلة للأمراض، ص ٦٣.

(٢) ابن العراقي: الذيل على العبر، ج ١، ص ١١٠؛ المقريزي: السلوك، ج ٤، ص ٢٦٧؛ ابن قاضي شهبة: التاريخ، ج ٢، ص ٢٢٠؛ السخاوي: الذيل، ج ١، ص ١٩٦ رقم ١٢٣.

(٣) ابن كثير: البداية، ج ١٤، ص ٣٤٨؛ المقريزي: السلوك، ج ٤، ص ٢٧٤ ؛ ابن قاضي شهبة: التاريخ، ج ٢، ص ٢٤٥؛ ابن شاهين: نيل، ج ١، ص ٣٦٢.

(٤) البداية والنهاية، ج ١٤، ص ٣٤٤-٣٤٨؛ ابن قاضي شهبة: التاريخ، ج ٢، ص ٢٢٠؛ السخاوي: الذيل، ج ١، ص ١٩٦.

(٥) البداية والنهاية: ج ١٤، ص ٣٥٠ -٣٥٢.

(٦) المقريزي: السلوك، ج ٤، ص ٢٧٤؛ ابن قاضي شهبة: التاريخ، ج ٢، ص ٢٤٥؛ السخاوي: الذيل، ج ١، ص ٢٠٣؛ ابن شاهين: نيل. الأمل، ج ١، ص ٣٦٢.

وفي شهر محرم ٧٧١هـ/١٣٦٩ م كان " بدمشق طاعون عظيم، وانتشر إلى عدة بلاد، ومات فيه خلائق لا تحصى كثرة" ويذكر السخاوي[١] أن الوباء بدأ من مستهل هذا العام، ولكنه تزايد في شهر شعبان ١٣٧٠ م وقد ذكر السخاوي[٢] أيضا، أنه ظهر في شهر شوال ٧٧١هـ/١٣٧٠ م بدمشق وما حولها طاعون يسمى الخطاف، وسمي بذلك لأنه " يخطف الرجل أو المرأة أو الصبي في يوم أو يومين أو ثلاثة " وقد بلغ عدد الموتى يومياً حوالي مائتين وخمسين شخصاً، ووصل العدد في ٩ ذي الحجة٧٧١هـ/١٣٧٠ م إلى حوالي مائة شخص، وتناقص عدد الموتى في أواخر الشهر ذاته، إذ وصل العدد إلى ثلاثين شخصاً، ولم تذكر المصادر تاريخ انتهاء هذا الطاعون، ولعله ارتفع في بداية سنة ٧٧٢هـ/١٣٧٠ م ، وذلك بالنظر للإحصائيات السابقة التي ذكرها المؤرخون[٣] .

وفي شهر صفر ٧٧٤هـ/١٣٧٢ م ، تفشى وباء بدمشق دام ستة أشهر، من بداية شهر صفر إلى رجب٧٧٤هـ/١٣٧٢ م ، وبلغ عدد من يموت يومياً حوالي مائتي شخص[٤] ولم تذكر المصادر معلومات وافية عن هذا الوباء، وفي شهر رمضان ٧٧٥هـ/١٣٧٤ م تفشى الطاعون بدمشق، وظل مستمراً حتى شهر محرم ٧٧٦هـ/١٣٧٤ م، وقد تزايد الطاعون في شهر ذي الحجة٧٧٥هـ/١٣٧٤ م، إذ بلغ عدد الموتى في كل يوم نحو ألف شخص[٥] و ذكر ابن قاضي[٦] شهبة أن الوباء بدأ بالتناقص بعد مضي أسبوع من محرم ٧٧٦هـ/١٣٧٤ م بعد أن بلغ عدد الموتى حوالي خمسمائة شخص، وصار العدد يتناقص تدريجياً، حتى بلغ عدد من يموت يومياً نحو خمسين شخصاً، حتى ارتفع بالكلية مع حلول شهر صفر .

وفي سنة٧٧٧هـ/١٣٧٥ م حدثت مجاعة في بلاد الشام، أعقبها وباء، وكان أشده في مدينة حلب" ففني خلق كثير حتى كان يدفن العشرة والعشرون في قبر بغير غسل ولا صلاة"، ولم تذكر

---

(١) الذيل التام، ج ١، ص ٢٤٢.

(٢) الذيل التام، ج ١، ص ٢٤٢.

(٣) ابن العراقي: الذيل، ج ٢، ص ٢٨٩؛ المقريزي: السلوك، ج ٤، ص ٣٣٥؛ ابن قاضي شهبة: التاريخ، ج ٢، ص ٣٦٢ ؛ ابن تغري بردي: النجوم، ج ١١، ص ١١٣؛ ابن شاهين: نيل. الأمل، ج ٢، ص ١٥ .

(٤) ابن العراقي: الذيل على العبر، ج ٢، ص ٣٤٥ ؛ المقريزي: السلوك، ج ٤، ص ٣٥١؛ ابن حجر: إنباء، ج ١، ص ٣٧؛ السخاوي: الذيل التام، ج ١، ص ٢٥٩؛ ابن شاهين: نيل الأمل، ج ٢، ص ٤٢.

(٥) ابن قاضي شهبة: التاريخ، ج ٢، ص ٤٣٥.

(٦) ابن قاضي شهبة: تاريخ، ج ٢، ص ٤٤٤؛ السخاوي، الذيل، ج ١، ص ٢٧٣؛ ابن شاهين: نيل، ج ٢، ص ٧١ .

المصادر معلومات وافية عن هذا الوباء[١] وفي سنة ٧٨٣هـ/١٣٨١ م وقع وباء في صفد، ولم تقدم لنا المصادر تفاصيل عن مدى قوة وتأثير هذا الوباء[٢] وفي سنة ٧٨٤هـ/١٣٨٢ م تفشى طاعون بدمشق دام من شهر محرم إلى ربيع الثاني٧٨٤هـ/١٣٨٢ م [٣].

قال ابن حجر[٤]: "فيها في المحرم وقع الطاعون بدمشق وتزايد في صفر حتى قارب الثلاثمائة ثم تناقص ويقال جاوز الأربعمائة ثم تناقص في ربيع الثاني إلى ثمانين "، ولم تقدم لنا المصادر تفاصيل أوفى عن هذا الطاعون .

ثالثاً: موقف الدولة من الأوبئة والطواعين والموتان في بلاد الشام ومصر:

حفلت مصر والشام خلال هذا العصر بعدد من البيمارستانات، والتي كانت تقدم خدمات طبية متنوعة، ومن الطبيعي أن يكون لها دور كبير في تقديم العلاج لمرضى الطاعون وغيره من الأمراض، ولدينا إشارات متعددة أوردها المؤرخون تدل على أن حالات الإصابة بهذه الأمراض كانت تعالج بقدر الإمكان في هذه البيمارستانات وكان بعضها باقيا من عصور سابقة، فاهتم السلاطين المماليك اهتماما وعناية ورعاية، والبعض الأخر استحدث في عصر المماليك وأنشأت الدولة والسلطة الحاكمة البيمارستانات في جميع أنحاء بلاد الشام ومصر[٥].

ومن أشهر هذه البيمارستانات في بلاد الشام:

البيمارستان النوري بمدينة دمشق والذي أنشأه الأمير نور الدين محمود بن زنكي، وكذلك البيمارستان النوري بمدينة حلب[٦]، والبيمارستان الصلاحي في مدينة القدس والذي أنشأه، السلطان صلاح الدين الأيوبي بعد تحرير القدس من يد الصليبيين سنة ٥٨٣هـ/١١٨٧ م [٧] وكذلك البيمارستان الصلاحي في مدينة عكا والذي أنشأه صلاح الدين أيضاً بعد تحرير القدس [٨]، والبيمارستان القيمري بالصالحية، والذي

---

(١) ابن حجر: انباء الغمر، ج ١، ص ١٠٥ .

(٢) المقريزي: السلوك، ج ٥، ص ١٣١؛ ابن شاهين: نيل، ج ٢، ص ١٨٨ .

(٣) ابن قاضي شهبة: التاريخ، ج ٣، ص ٨١ ؛ ابن شاهين: نيل، ج ٢، ص ١٨٩ .

(٤) إنباء الغمر، ج ٢، ص ٢٥٣ .

(٥) المقريزي: السلوك، ج ٦، ص ٤٩١؛ ابن الحمصي: حوادث الزمان، ج ٣، ص ٤٩٨ .

(٦) أبي شامة: الروضتين، ج ١، ص ١٠٥- ١٠٦؛ القلقشندي: صبح، ج ٤، ص١٢٠.

(٧) ابن شداد: النوادر السلطانية، ص ٣٥٤؛ العليمي: الأنس الجليل، ج ١، ص ٣٩١ .

(٨) العليمي: الأنس، ج ١، ص ٣٥٠.

أنشاه الأمير سيف الدين أبو الحسن على بن يوسف القيمري الكندي(ت٦٥٣هـ/١٢٥٥)[(١)]، والبيمارستان المنصوري في مدينة الخليل، والذي أنشأه السلطان المنصور قلاوون سنة ٦٨٠هـ/١٢٨١ م [(٢)]، وبيمارستان الأمير سيف الدين تنكز الحسامي (ت٧٤١هـ/١٣٤٠ م) في مدينة صفد[(٣)]، وبيمارستان الأمير سيف الدين أرغون الكاملي (ت٧٥٨هـ/١٣٥٦ م) في حلب[(٤)] وبيمارستان الكرك وغزة و الذي أنشأهما الأمير علم الدين سنجر الجاولي (ت ٧٤٥هـ/١٣٤٤ م)[(٥)]، وبيمارستان نابلس والرملة اللذين أنشأهما ناظر الجيش الأمير فخر الدين محمد بن فضل الله القبطي) (ت ٧٦٠هـ/١٣٥٨ م)[(٦)].

أما أشهر البيمارستانات في مصر فهي:

البيمارستان الناصري (العتيق) في القاهرة وبيمارستان الإسكندرية الذين أنشأهما السلطان صلاح الدين سنة ٥٧٧هـ/١١٨١ م [(٧)] والبيمارستان المنصوري الذي أنشأه السلطان المنصور قلاوون في مدينة القاهرة سنة ٦٨٢هـ/١٢٨٣ م [(٨)] وقامت الدولة باستقدام الأطباء المهرة لمعالجة مرضى الوباء، ومثال ذلك عندما حدث وباء سنة٦١١هـ/١٢١٤ م في مصر ومن أشهر هؤلاء الأطباء الذين استقدموا الطبيب مهذب الدين عبد الرحيم بن على الملقب بالدخوار[(٩)].

واتخذت الدولة عدة إجراءات وقائية صحية لتفادي تكرار وقوع الأوبئة ومن ذلك:

لما انتشرت الأمراض والحميات في الرملة والقدس في سنة ٦٧٢هـ/١٢٧٣، قامت الدولة بمحاولة إيجاد حلول لمعالجة آثار هذه الأمراض فقامت بتجديد مياه الآبار التي كان يعتقد أنها كانت سبباً في تفشي هذه الأمراض[(١٠)] ولما حدث وباء سنة ٧٢٦هـ/١٣٢٦ م في بلاد الشام، قامت الدولة بحملة

---

(١) ابن طولون: مفاكهة الخلان في حوادث الزمان، ج ١، ص ١٩٢ .

(٢) العليمي: الأنس، ج ٢، ص ٧٩ .

(٣) ابن حجر: الدرر، ج ١، ص ٣٠٩ .

(٤) ابن كثير: البداية والنهاية، ج ١٤، ص ٢٩٥ .

(٥) المقريزي: السلوك، ج ٣، ص ٤١٤ .

(٦) ابن حجر: الدرر، ج ٤، ص ٨٦ .

(٧) القلقشندي: صبح الأعشى، ج٢، ص ١٦٠؛ المقريزي: السلوك، ج ١، ١٨٧؛ عيسى: تاريخ البيمارستانات، ص ٧٧ – ٨٢ .

(٨) المقريزي: السلوك، ج٢، ص ١٧٥؛ عيسى: تاريخ البيمارستانات الاسلامية، ص ٨٣.

(٩) ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء، ج ١، ص ٤٧٣–٤٧٩؛ الذهبي: اعلام النبلاء، ج ٢٢، ص ٣١٦ .

(١٠) المقريزي : السلوك ، ج ٢، ص ٨٧ .

تنظيف لشبكة المياه في دمشق، والتي كان يعتقد بأن مياهها غير صالحة للشرب والمليئة بالأوساخ كانت سببا ًمباشراً في انتشار الأوبئة والأمراض، وقد صرفت الدولة على إعادة تنظيف وصيانة هذه الشبكة حوالي ثلاثمائة ألف درهم(١) ووجهت الدولة الناس إلى إعلان التوبة والإنابة إلى الله عز وجل وترك المعاصي وفعل الطاعات والقربات، وقامت بعدة إجراءات لمنع مظاهر الفساد والفاحشة المنتشرة في المجتمع، رغبةً في أن يرفع الله البلاء عن البلاد والعباد، ومن ذلك لما حدث وباء سنة ٧٤٩هـ/١٣٤٨م في بلاد الشام ومصر، بدأ أئمة المساجد في بلاد الشام بالقنوت في الصلوات، والدعاء من يوم الجمعة ٦من شهر ربيع الثاني(٢) ونُدب الناس لصيام ثلاثة أيام، وأن يتضرعوا إلى الله برفع الوباء، ففي يوم الاثنين ٢٣ ربيع الثاني "نُودي في البلد أن يصوم الناس ثلاثة أيام وأن يخرجوا في اليوم الرابع وهو يوم الجمعة إلى مسجد القدم يتضرعون إلى الله ويسألونه في رفع الوباء عنهم، فصام أكثر الناس، فلما أصبح الناس يوم الجمعة السابع والعشرين منه خرج الناس يوم الجمعة، واليهود والنصارى والسامرة، والشيوخ والصبيان، والفقراء والأمراء والكبراء والقضاة من بعد صلاة الصبح فما زالوا هنالك يدعون الله تعالى حتى تعالى النهار جداً(٣)، أما في مصر فقد أمرت الدولة الناس بالاجتماع في المساجد، وبدأ أئمة المساجد يقنتون في صلواتهم لرفع الوباء، ووجهت العلماء لقراءة صحيح البخاري في المساجد(٤).

---

(١) المقريزي : السلوك ، ج ٣، ص ١٠٢ .

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية، ج ١٤، ص ٢٦١ ؛ ابن قاضي شهبة: التاريخ، ج ١، ص ٥٤٦؛ ابن حجر: بذل الماعون في فضل الطاعون: ص ٢٣٨؛ السخاوي: الذيل التام، ج ١، ص ٩٨ .

(٣) ابن كثير: البداية، ج ١٤، ص ٢٦١ .

(٤) المقريزي: السلوك، ج ٤، ص ٨٦ .

الفصل الثاني

الأسباب البشرية للأزمات الاقتصادية

وجهود الدولة في معالجتها

الأول: الهجوم الخارجي على مصر والشام عهد المماليك.

الثاني: هجوم العربان على الحقول.

الثالث: عمليات القرصنة وحماية الموانئ البحرية.

الأول

الهجوم الخارجي على مصر والشام عهد المماليك

كان للحروب الصليبية، في شرق البحر الابيض المتوسط، خاصة في عصر المماليك، أثراً بالغاً في ظهور أمراض اجتماعية كثيرة، برزت بشكل رائجاً في نفوس الصليبين والمغول وتصرفاتهم الشاذة فقد انغمسوا في حياة الفجور والملذات والانحراف الجنسي والانحلال الأخلاقي(١) والتدهور الخلقي لتعاطيهم الحشيش والخمور وجرائمهم التي لا تحصى وأن انتشار هذه الظاهرة أو المفسدة الاجتماعية في ذلك الوقت تسببت في كثير من الأزمات الاقتصادية كالمرض والوباء(٢)، فكان لإهمالهم تنظيم الجيش وبعض الهجمات الاستنزافية من المسلمين جعلهم ينجحوا في كثيراً منها، وأخفقوا في أخري لكنهم كانوا دائماً مصدر رعب وقلق، مما كان سبباً في اعتماد المماليك على نظام عسكري لضبط الأمن، وقمع حركات الهرطقة(٣)، ومقاومة العنف في الداخل والخارج، من أجل الدفاع ضد تدمير المجتمع أو إفساد عقيدته من قبل الغزاة الأجانب الذين يمكن أن يكونوا وثنيين أو هراطقة أو مسيحيين.

١- الحملة الصليبية السابعة:

كان الصليبيون يُدركون أن مصر التي صارت تمثل قلعة الإسلام وترسانته العسكرية ومصدر القوة البشرية الرئيسي للمسلمين، وهي العائق الرئيسي الذي يعترض طموحاتهم لاسترجاع بيت المقدس، وأنهم لن يتمكنوا من احتلال كل الشام وبيت المقدس دون الإجهاز على مصر أولاً(٤) كان من أهداف الحملة الصليبية السابعة، هزيمة مصر لإخراجها من الصراع، والقضاء على الدولة الأيوبية التي كانت تحكم مصر والشام، وإعادة احتلال بيت المقدس، وحاولوا إقناع المغول بالتحالف معهم ضد المسلمين حتى يتمكنوا من تطويق العالم الإسلامي من المشرق والمغرب مما يصعب على مصر القتال على جبهتين في آن واحد فيسهل عليهم الإطاحة بالعالم الإسلامي بضربة واحدة (٥) كانت هذه الحملة بقيادة

---

(١) الصلابي: الحملات الصليبية، ص ٤٤٧ .

(٢) السرجانى: الحملات الصليبية، ص ٢٨٦-٢٨٧.

(٣) لابدوس: مدن اسلامية، ص ٢١٩ .

(٤) المقريزي: السلوك، ج ١، ص ٤٣٧ .

(٥) بيبرس المنصوري: مختار الأخبار، ص ١٠ ؛ المقريزي: السلوك، ج١، ص ٤٣٧ ؛ ابن تغري: بدائع الزهور، ج ١، ق١، ص ٢٧٧ ؛ خليل: شجر الدر، ص ٣٦-٤٠ .

لويس التاسع ملك فرنسا سنة ٦٤٧هـ/١٢٤٩ م حيث تم الاستيلاء على دمياط ووقوعها في أيدي الصليبيين بعد تراجع المسلمين بقيادة الأمير فخر الدين يوسف الذي ظن أن السلطان فارق الحياة لعدم الرد على رسائله التي بعثها إليه وترك دمياط خلفه بكل ما فيها، ومن ثم وصل الخبر لمصر بسقوط دمياط في أيدى الصليبيين كالصاعقة، وانزعج السلطان الصالح نجم الدين أيوب على الأمير فخر الدين وأمر بإعدام نحو خمسين من أمراء العربان الذين غادروا دمياط بغير إذن، وحُمل السلطان المريض إلى قصر المنصورة وتم إعداد الشواني بالمحاربين والسلاح، وأعلن النفير العام في البلاد، فاجتمع عوام الناس من كافة أنحاء مصر إلى المنصورة لأجل الجهاد ضد الغزاة(١) .

وبعد نحو خمسة أشهر ونصف من احتلال دمياط خرج الصليبيون من دمياط وبينما يتقدمون جنوباً داخل الأراضي المصرية اشتد المرض على السلطان الصالح أيوب وفارق الحياة بالمنصورة في ١٥ شعبان سنة (٦٤٧هـ/١٢٤٩م)(٢) فأخفت زوجته شجر الدر خبر وفاته، وأدارت البلاد بالاتفاق مع الأمير فخر الدين يوسف و جمال الدين محسن رئيس القصر، وبعد مقتل فخر الدين يوسف في هجوم الصليبين على معسكر جديلة بالقرب من المنصورة وانتصارهم فيها تقدموا نحو المنصورة على أمل القضاء على الجيش المصري برمته بعد أن أخذتهم العزة وظنوا أنهم لا ريب منتصرين وفي ذلك الحين أمسك المماليك بزمام الأمور بقيادة فارس الدين أقطاي، الذي أصبح القائد العام للجيش المصري، وكان هذا أول ظهور للمماليك كقواد عسكريين داخل مصر.

ومن ثم تمكن المماليك من تنظيم القوات المنسحبة وإعادة صفوفها، ووافقت شجر الدر(٣) – الحاكم الفعلي للبلاد– على خطة بيبرس في استدراج الصليبين داخل المنصورة حتى استطاعوا تدمير الجيش الصليبي، وبعد المعركة عقد فارس الدين أقطاي، القائد العام للجيوش المصرية، مجلس حرب لمناقشة أمر يتعلق بالعثور بين قتلى الفرنج على شارة تحمل علامة البيت الملكي الفرنسي، كان صاحب الشارة هو شقيق الملك لويس، "روبرت دي أرتوا" الذي لقي مصرعه في المعركة، ولكن أقطاي ظن أنها خاصة بلويس وأن العثور عليها دليل على أنه قد قُتل، فقال: " كما أن المرء لا يهاب جسداً بلا رأس، فإنه أيضاً لا يهاب قوماً بلا قائد"، فاتفق الجميع على ضرورة الهجوم الفوري على معسكر الصليبيين،

---

(١) المقريزي: السلوك، ج١، ص ٤٣٩ .

(٢) المقريزي: السلوك، ج١، ص ٤٤١ .

(٣) المقريزي: السلوك، ج١، ص ٤٤٥.

فقام المسلمون في الفجر بشن هجوم واسع صمد فيه الفرنج ولكنه ألحق بهم الهزيمة والخسائر الفادحة وانطلق الحمام الزاجل من المنصورة بنبأ الانتصار على الصليبيين وحط بالقاهرة، فضربت البشائر بقلعة الجبل وفرح الناس وأقيمت الزينات[١]، وتحصن الصليبيون داخل معسكرهم ثمانية أسابيع آملين في انهيار القيادة في مصر حتى يتمكنوا من معاودة محاولة التقدم إلى القاهرة. لكن الحلم الصليبي لم يتحقق، وبدلاً من انهيار القيادة وصل السلطان الأيوبي الجديد توران شاه إلى المنصورة في ٢٤ ذو القعدة سنة ٦٤٨هـ، الموافق في ٢٨ فبراير عام ١٢٥٠، لقيادة الجيش، وبوصول السلطان الجديد تنفست شجر الدر والأمراء الصعداء وأعلن رسمياً في البلاد عن نبأ وفاة السلطان الصالح نجم الدين أيوب، وقام المسلمون بنقل المراكب على الشط أنزلوها في مياه النيل خلف قوات لويس التاسع، وبذلك منعوا وصول الإمدادات والمؤن من البحر المتوسط ودمياط إلى القوات الصليبية التي صارت محاصرة، فلا هي قادرة على الاقتحام جنوباً والتقدم نحو القاهرة ولا هي ممونة من قاعدتها في الشمال ، وبدأ الجنود الصليبيون يعانون من الجوع والمرض ويفرون إلى جيش المسلمين[٢]، بعد أن أصابهم اليأس والإحباط، بل والشك في الفكرة الدينية التي حملتهم على الانضمام إلى حملة لويس التاسع ضد بلاد المسلمين .

على الرغم من هزيمة لويس التاسع وانتهاء حلمه لبلوغ القاهرة بانحساره في مصيدة جنوب المنصورة، بقوات جائعة ومريضة وخائفة، إلا أنه عرض على المسلمين أن يسلمهم دمياط في مقابل تسليمه بيت المقدس وأجزاء من ساحل الشام ، وهو عرض كان قد اقترحه السلطان الأيوبي الصالح أيوب على لويس بعد احتلاله دمياط، ورفض المسلمون عرض لويس لإدراكهم أن وضعه العسكري لم يعد يؤهله لوضع شروط أو عقد صفقات .

وبذلك أصبح أمام لويس التاسع اختيار واحد ألا وهو الفرار إلى دمياط وإنقاذ نفسه وجنوده، وأثناء الهرب طاردهم المسلمون من كل جانب حتى وصلوا إلى فارسكور حيث تم تدميرهم بالكامل ووقع الملك لويس وأمراؤه ونبلاؤه في الأسر بدار ابن لقمان في يوم ٦ أبريل من نفس العام[٣]، وبعدما وصلت أنباء هزيمة لويس التاسع ووقوعه في الأسر، سمح له بمغادرة مصر مقابل تسليم دمياط للمصريين،

---

(١) المقريزي: السلوك، ج١، ص ٤٤٨ .

(٢) المقريزي: السلوك، ج١، ص ٤٥٥ .

(٣) المقريزي : السلوك، ج١، ص ٤٦٢؛ ابن اياس: بدائع الزهور، ج١، ص ٢٨١؛ وهنا ننوه بأنه تم تناول هذه المعركة بأحداثها في فصل كامل رقم (٤) من مؤلف thorau the Lion of Egypt.

والتعهد بعدم العودة إلى مصر مرة أخرى، بالإضافة إلى دفعه فدية قدرها ٤٠٠ ألف دينار تعويضاً عن الأضرار التي ألحقها بمصر[١]، فقد واجهت الحملة الصليبية السابعة على مصر نهايتها المأساوية في فارسكور في عام ١٢٥٠ معلنة عن بدء عصر تاريخي جديد لكل القوى الإقليمية التي كانت متواجدة في تلك الفترة. ويمكن القول إن هزيمة الحملة الصليبية السابعة في مصر أثبتت مرة أخرى مكانة مصر كقلعة وترسانة عسكرية للإسلام في تلك الأيام .

فالحملة الصليبية السابعة كانت آخر حملة صليبية منظمة على مصر، لم يتمكن الصليبيون من تحقيق حلمهم باحتلال بيت المقدس مرة أخرى، وفقد ملوك أوروبا، باستثناء لويس التاسع، اهتمامهم بإطلاق حملة صليبية جديدة ، ولكن مباشرة بعد رحيل لويس التاسع إلى عكا، ودفع الفدية، اغتيل السلطان الأيوبي توران شاه بفارسكور بأيدي ذات المماليك الذين دحروا الصليبيين في المنصورة وفارسكور، ليصبحوا منذ ذلك الحين حكاماً لمصر وبعد قليل حكاماً للشام[٢] .

وبعد هزيمة الصليبيين في سنة ١٢٥٠ توزعت الخريطة السياسية والعسكرية في شرق حوض البحر المتوسط على أربع قوى أساسية: المماليك في مصر، الأيوبيون في الشام، الصليبيون في عكا وساحل الشام، مملكة قليقية الأرمينية، وإمارة أنطاكية الصليبية. وفي عام ٦٥٦هـ/١٢٥٨م دمر المغول بغداد التي كانت مركزاً هاماً من مراكز العلم والثقافة في العالم الإسلامي وأسقطوا الخلافة العباسية ثم احتلوا سوريا، وقبل أن يتوجهوا إلى مصر ذهب إليهم المماليك وهزموهم عند عين جالوت وأوقفوا زحفهم ، وقتل القائد كتبغا[٣] الذي اشترك في تدمير بغداد، وقاد جيش المغول في عين جالوت، وكان مسيحياً يتبع كنيسة المشرق، وقد صحبه في عين جالوت كل من أمير أنطاكية الصليبية، وملك أرمينية الصغرى ، وكان الناصر يوسف في آخر إخفاقات الأيوبيين قد حاول التحالف مع المغول ضد مصر، بنصيحة وزيره صديق المغول زين الدين الحافظي، وسيراً على نهج المغيث عمر ملك الكرك الأيوبي[٤] ولكنهم قتلوه بعد هزيمتهم، وقام مماليك مصر بتحرير الشام من المغول، وزالت دولة الأيوبيين تماماً ، وأصبح المماليك، الذين تشكلت دولتهم في رحم الأخطار، حكاماً لمصر والشام، والقوة المهيمنة على شرق

---

(١) المقريزي: السلوك، ج١، ص ٤٦٠ .

(٢)) المقريزي: السلوك، ج١، ص ٥١٨ ؛ ابن تغري: بدائع الزهور، ج ١، ق١، ص ٣٠٧ .

(٣) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة، ج٧، ص ٧٩ .

(٤) الهمذاني: جامع التواريخ، ج٢، ق١، ص ٣٠٥ .

وجنوب البحر المتوسط لعقود طويلة من الزمان، ومع ذلك، على الرغم من هزيمة الصليبيين والمغول، إلا أن الحروب أنهكت المسلمين اقتصادياً وبشريا، وأدى الاجتياح المغولي إلى اضمحلال العالم الإسلامي اضمحلالاً شديداً، ذلك أن المغول قتلوا أعداداً غفيرةِ من علماء المسلمين ودمروا المكتبات بما فيها من أعمال وإنجازات علمية لا تعوض، فانمحى بذلك جزء كبير من التراث الثقافي والعلمي للمسلمين(١).

٢- معركة عين جالوت:

حدثت معركة عين جالوت في ٢٥ رمضان ٦٥٨هـ/٣ سبتمبر ١٢٦٠م ووصفت بإحدى وأبرز المعارك في التاريخ الإسلامي، إذ استطاع جيش المماليك بقيادة سيف الدين قطز إلحاق أول هزيمة قاسية بجيش المغول بقيادة كتبغا، وقعت المعركة بعد انتكاسات مريرة لدول ومدن العالم الإسلامي، حيث سقطت الدولة الخوارزمية بيد المغول(٢)، ثم تبعها سقوط بغداد بعد حصار دام أياماً فاستبيحت المدينة وقُتل الخليفة المستعصم بالله فسقطت معه الخلافة العباسي(٣) ثم تبع ذلك سقوط جميع مدن الشام وفلسطين وخضعت لهولاكو(٤) وكانت مصر في تلك الفترة تئِنُّ من الصراعات الداخلية والتي انتهت باعتلاء سيف الدين قطز عرش مصر سنة ٦٥٧هـ/١٢٥٩م سلطاناً لمماليك مصر(٥).

وأصبح القائد الذي بدأ بالتحضير لمواجهة التتار، فقام بترتيب الوضع الداخلي لمصر وقمع ثورات الطامعين بالحكم، ثم أصدر عفواً عاماً عن المماليك الهاربين من مصر بعد مقتل فارس الدين أقطاي بمن فيهم بيبرس، ثم طلب من العز بن عبد السلام إصدار فتوى تُشرع له جمع الضرائب على سكان مصر بعد أن واجهته أزمة اقتصادية عجز من خلالها عن تجهيز الجيش، وكان له ما أراد وأصدر العز بن عبد السلام فتوى تجُيز جمع الضرائب بشروطٍ خاصة ومحددة(٦) كان الوضع في مصر عند اقتراب التتار منها متأزم جداً، فالوضع الداخلي يموج بالاضطرابات والأزمات الشديدة، والفتن الناتجة عن الصراع على كرسي الحكم، وإن كان قطز قد استقر على كرسي الحكم، إلا أن هناك الكثير من الطامعين في الكرسي وهناك الكثير من الحاقدين على قطز شخصياً، كما أن الفتنة ما زالت دائرة بين

---

(١) خليل: شجرة الدر، ص ٢٦ .

(٢) السرجاني: الدولة الخوارزمية، موقع قصة الاسلام، نشر في ٢٣ مارس ٢٠١٤ .

(٣) المقريزي: السلوك، ج١، ص ٤٩٩ .

(٤) الهمذاني: تاريخ المغول مجلد ٢، ج١ ص٣٠٥-٣٠٧.

(٥) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة ج٧ ص٧٢- ٧٨.

(٦) المقريزي: السلوك، ج١، ص٥٠٧ .

المماليك البحرية الذين كانوا مؤيدين لشجرة الدر وبين المماليك المعزية الذين يؤيدون قطز، أما المسرح السياسي الخارجي فكان يحمل مشكلات كبيرة أخرى، وذلك أن العلاقات كانت ممزقة تماماً بين مصر وجيرانها .

أما الوضع الاقتصادي فلم يكن بأفضل حالاً من الوضع السياسي، فهناك أزمة اقتصادية يمر بها البلد من جراء الحملات الصليبية المتتالية، ومن جراء الحروب التي دارت بين مصر وجيرانها من الشام، وكذلك الفتن والصراعات على المستوى الداخلي، كما أن الناس انشغلوا بأنفسهم وبالفتن الداخلية والخارجية، فتردى الاقتصاد لأبعد درجات التردي[١] كانت أول خطوة قام بها قطز في إعداده لحرب التتار هي استقرار الوضع الداخلي في مصر، وقطع أطماع الآخرين في الكرسي الذي يجلس عليه، وما كان من قطز إلا أن جمع الأمراء وكبار القادة وكبار العلماء وأصحاب الرأي وقال[٢] لهم: «إني ما قصدت إلا أن نجتمع على قتال التتر ولا يأتي ذلك بغير ملك، فإذا خرجنا وكسرنا هذا العدو فالأمر لكم أقيموا في السلطة من شئتم» فهدأ معظم من حضر الاجتماع ورضوا بما قال، ثم قام قطز بالقبض على رؤوس الفتنة الذين حاولوا الخروج على سلطته وحكمه .

وبذلك هدأت الأمور نسبيًا في مصر، أما الخطوة الثانية التي قام بها قطز فهي إصداره لعفو عام وشامل عن المماليك البحرية الذين فروا إلى الشام بعد مقتل زعيمهم فارس الدين أقطاي كانت هذه الخطوة أبرز قرار سياسي اتخذه قطز، فقوات المماليك المعزية لا تكفي لحرب التتار، وكانت المماليك البحرية قوة عظيمة وقوية جداً ولها خبرة واسعة في الحروب، فإضافة قوة المماليك البحرية إلى المماليك المعزية ستنشئ جيشاً قوياً قادراً على محاربة التتار، وكان من نتائج هذه الخطوة عودة القائد ركن الدين بيبرس إلى مصر وانضمامه إلى قطز، وبهذا توحدت قوى المماليك تحت لواء جيش واحد قائده سيف الدين قطز[٣]، بينما كان سيف الدين قطز منشغلاً بإعداد الجيش، جاءته رسالة من هولاكو يحملها أربع رسل من التتار، كانت الرسالة إعلاناً صريحاً بالحرب أو تسليم مصر للتتار، على إثر هذه الرسالة عقد قطز مجلساً ضمّ كبار الأمراء والقادة والوزراء وبدأت مناقشة محتوى الرسالة، كان قطز مصمماً على خوض الحرب ورافضاً لمبدأ التسليم، ولكن كان هناك تردد من قبل بعض الأمراء في قبول ما رآه قطز،

---

(١) المقريزي: السلوك، ج١، ص٥٠٨ ؛ ابن إياس: بدائع الزهور، ج٢ ص٢٩٤-٣١٠ .

(٢) المقريزي: السلوك، ج١، ص ٥٠٨ .

(٣) المقريزي: السلوك، ج١، ص ٥١٣ .

عندها قال قطز مقولته المشهورة: «أنا ألقى التتار بنفسي»[١] وقعت كلمات قطز في قلوب الأمراء فأيدوه في قراره، وأعلنوا معه الجهاد في سبيل الله، ثم قرر قطز أن يقطع أعناق الرسل الأربعة الذين أرسلهم هولاكو، وأن يعلق رؤوسهم على باب زويلة في القاهرة، بعد أن استقر الوضع في مصر، وبعد قتل رسل هولاكو، أصبح قطز يُسَرِّع من عملية تجهيز الجيش، ولكن واجهته مشكلة جديدة هي المشكلة الاقتصادية، فلابد من تجهيز الجيش المصري وإعداد التموين اللازم له، وإصلاح الجسور والقلاع والحصون، وإعداد العدة اللازمة للحرب، وتخزين ما يكفي للشعب في حال الحصار، وليس هناك من الأموال ما تكفي لتأمين كل ذلك، قام قطز بدعوة مجلسه الاستشاري ودعا إليه سلطان العلماء العز بن عبد السلام، وبدأوا التفكير في إيجاد حل للأزمة الاقتصادية الطاحنة، اقترح قطز أن تفرض ضرائب لدعم الجيش، ولكن هذا القرار يحتاج فتوى شرعية، لأن المسلمين في دولة الإسلام لا يدفعون إلا الزكاة[٢]، عندها أفتى العز بن عبد السلام وبيَّن العز بن عبد السلام بأنه لا يجوز فرض ضرائب إلا بعد أن يتساوى الوزراء والأمراء مع العامة في الممتلكات، ويجهز الجيش بأموال الأمراء والوزراء، فإن لم تكفي هذه الأموال جاز هنا فرض الضرائب على الشعب بالقدر الذي يكفي لتجهيز الجيش ليس أكثر من ذلك[٣]، قبِل سيف الدين قطز فتوى العز بن عبد السلام وبدأ بنفسه وباع كل ما يملك وأمر الوزراء والأمراء أن يفعلوا ذلك، فانصاع الجميع وامتثلوا أمره، فقد أحضر الأمراء كافة ما يملكون من مال وحلي نسائهم وأقسم كل واحد منهم أنه لا يملك شيئاً في الباطن .

ولما جمعت هذه الأموال ضربت سكاً ونقداً وأنفقت في تجهيز الجيش، ولكن لم تكفي هذه الأموال في تغطية نفقة الجيش، فقرر قطز إقرار ضريبة على كل رأس من أهل مصر والقاهرة من كبير وصغير ديناراً واحداً، وأَخذ من أجرة الأملاك شهراً واحداً، وأَخذ من أغنياء الناس والتجار زكاة أموالهم معجلاً، وأَخذ من الترك الأهلية ثلث المال، وأَخذ من الغيطان والسواقي أجرة شهر واحد، وبلغ جملة ما جمعه من الأموال أكثر من ستمائة ألف دينار اجتمع قطز مع مجلسه العسكري لبحث أفضل طريقة لحرب التتار[٤]، وعبَّر عن عزمه الخروج بجيش مصر لملاقاة التتار في فلسطين بدلاً من أن ينتظرهم في

---

(١) المقريزي: السلوك، ج١، ص٥١٥ .

(٢) المقريزي: السلوك، ج١، ص ٥٠٧ .

(٣) الشربيني: النظم المالية، ص ١٨٤ .

(٤) المقريزي: السلوك، ج١، ص ٥١٦ .

مصر، وأُقرت خطة سيف الدين قطز لعدة عوامل وهي: أن أمن مصر القومي يبدأ من حدودها الشرقية وليس من داخل البلد نفسه، ومن الأفضل عسكرياً أن ينقل سيف الدين قطز المعركة إلى ميدان خصمه لأن هذا سيؤثر نفسياً على نفوس التتار، ومن الأفضل عسكرياً كذلك أن يمتلك المسلمين عنصر المفاجأة فيختاروا هم ميعاد المعركة ومكانها، عندها بدأ العز بن عبد السلام[١] ومن معه من علماء الأمة بصعود منابر المساجد والحث على الجهاد، وترغيب الناس بالجنة وتزهيدهم في الدنيا، وتعظيم أجر الشهادة في سبيل الله، .

واستمر إعداد الجيش وتجهيزه وجمع المتطوعين وتدريب المجاهدين مدة خمسة أشهر، من شهر ربيع الأول ٦٥٨هـ الموافق فبراير ١٢٦٠م إلى نهاية شهر رجب (يوليو) من السنة نفسها بالرغم من كل الاستعداد العسكري والسياسي والديني والاقتصادي الذي قام به سيف الدين قطز ومعه كبار قادته وأمرائه وعلمائه، وبرغم التحفيز الكبير الذي قام به العلماء وعلى رأسهم العز بن عبد السلام لحث الناس على الجهاد وحمل السلاح في مواجهة التتار، أيضاً ظفر الجيش الاسلامي بالتحرك وفي مقدمته بيبرس الذى اجتاز بيبرس سيناء في ١٥ رجب ٦٥٨هـ/٢٦ يوليو ١٢٦٠م، ودخل فلسطين وتبعه قطز بعد ذلك في سيره، واجتازوا رفح وخان يونس ودير البلح واقتربوا من غزة [٢] التي احتلها التتار في اجتياحهم للشام، اكتشفت عيون التتار مقدمة الجيش الإسلامي، واعتقدوا أن هذا هو جيش المسلمين كله، ونُقلت الأخبار إلى حامية غزة التترية، وأسرعت الحامية التترية للقاء بيبرس، وجرى بينهما قتال سريع، كان هذا القتال وجيش قطز الرئيسي ما زال يعبر حدود سيناء متوجهاً إلى غزة، ولكن تأخر الجيش الرئيسي لم يؤثر في سير المعركة كثيراً، فقد كانت مقدمة الجيش بقيادة ركن الدين بيبرس مقدمة قوية وقائدها قائد بارع، والحامية التترية في غزة صغيرة نسبياً، وجيش المغول الرئيسي بقيادة كتبغا على مسافة كبيرة من غزة، حيث يربض في سهل البقاع، فتم اللقاء في غزة بمعزل عن الجيوش الرئيسية للمسلمين والتتار، واستطاعت مقدمة جيش المسلمين أن تنتصر في هذه الموقعة الصغيرة، التي قُتل فيها بعض جنود الحامية التترية، وفرّ الباقون في اتجاه الشمال لينقلوا الأخبار إلى كتبغا .

---

(١) العبادي: قيام دولة المماليك، ص ١٦١ .

(٢) المقريزي: السلوك، ج١، ص ٥١٦-٥١٧ .

بعد معركة غزة توجه الجيش شمالا وبحذاء البحر فمروا بعسقلان ثم يافا ثم مروا بغرب طول كرم، ثم حيفا، وواصلوا الاتجاه شمالاً(١) حتى وصلوا عكا التي وقعوا فيها مع الصليبيين معاهدة سلام مؤقتة، عندها قرر قطز أن يعسكر في الحدائق المحيطة بحصن عكا في السهل الواقع إلى الشرق من عكا، فأرسل وفداً من الأمراء المماليك إلى الصليبيين للتأكد من سريان الاتفاقية السابقة، فدخلوا حصن عكا حيث أحسن الأمراء الصليبيون استقبالهم، وأكد الطرفان على ما سبق الاتفاق عليه(٢)، وتكررت الزيارات أكثر من مرة، حتى اطمأن الجميع على استقرار الوضع، ثم قرر قطز الرحيل من عكا لاختيار مكان مناسب للقاء التتار ووجد سيف الدين قطز سهل عين جالوت منطقة مناسبة للمعركة مع التتار، فهو سهل واسع منبسط تحيط به التلال المتوسطة من كل جوانبه إلا الجانب الشمالي منه فهو مفتوح، كما تعلو التلال الأشجار والأحراش، مما يوفر مخبأً مناسباً لجيشه فيسهل عمل الكمائن على جوانبه المنبسطة، فرتب جيشه بسرعة فوضع على ناحية السهل الشمالي المقدمة بقيادة بيبرس، وجعلها في مكان ظاهر حتي يغري جيش التتار بالقدوم إليه بينما أخفى بقية الجيش خلف التلال والأحراش .

كان ترتيب قطز وإعداده لخطة المعركة في ٢٤ رمضان ٦٥٨هـ/٢ سبتمبر ١٢٦٠م، أي قبل يوم واحد من معركة عين جالوت(٣) تلك المعركة التي دفعت روح معنوية لجنود جيش المسلمين، وأقبل الجند على القتال وارتفعت راية الإسلام وهوت راية التتار، وبدأ جنود التتار في التساقط، وتمكن أمير من أمراء المماليك واسمه جمال الدين آقوش الشمسي واخترق صفوف التتار حتى وصل لكتبغا، ودار بينها قتال فتمكن آقوش من كتبغا وقتله(٤) .

وكانت نتيجة المعركة أن أُبيد جيش التتار بأكمله، ولم يبقَ على قيد الحياة من الجيش أحد كانت معركة عين جالوت المعركة الأولى التي يهزم فيها جيش المغول في معركة حاسمة منذ عهد جنكيز خان، وبعد الانتصار الذي حققه قطز وجيشه(٥)، أخذ قطز في التفكير في أمر التتار في الشام، فلا تزال هناك حاميات تتارية في دمشق وحمص وحلب وغيرها من مدن الشام، ومع ما أصاب جيش المسلمين من كثرة الشهداء وكثرة الجرحى، وما لقوه من عناء وتعب، قرر سيف الدين قطز السير إلى دمشق لتحريرها من

(١) المقريزي: السلوك، ج١، ص ٥١٦- ٥١٨ .

(٢) العبادي: قيام دولة المماليك، ص ١٦٢ .

(٣) العبادي: قيام دولة المماليك، ص ١٦٥ .

(٤) ابن تغرى: النجوم الزاهرة، ج٧، ص ٧٩ .

(٥) العبادي: قيام دولة المماليك، ص ١٦٧ .

سيطرة التتار، واستغلال فرصة انكسار جيش التتار وهزيمته الساحقة في سهل عين جالوت، وأراد سيف الدين قطز أن يستثمر انتصاره على جيش المغول في عين جالوت، في تهيئة انتصار جديد للمسلمين في دمشق على جيش التتار المحتمي فيها، فجيش التتار قتل بأكمله في المعركة، ولم ينقل أحد منهم الخبر إلى دمشق، فأردا قطز أن ينقل خبر النصر الكبير على المغول بنفسه، ليضعف من معنويات الحامية التتارية في دمشق(١)، فيسهل عليه فتحها، قرر قطز أن يرسل رسالة إلى التتار يعلمهم فيها بهزيمة كتبغا وجيشه، وصلت رسالة سيف الدين قطز إلى دمشق في اليوم السابع والعشرين أو الثامن والعشرين من شهر رمضان، وبهذه الرسالة علم المسلمون نبأ الانتصار فقاموا بثورة عارمة داخل دمشق، وأمسكوا بجنود التتار وقتلوا عدداً منهم وأسروا عدداً آخر وفر عدد آخر .

وكان السبب الرئيسي لما حدث في دمشق هو انهيار معنويات التتار بعد سماعهم خبر هزيمة كتبغا في عين جالوت، ثم اتجه المسلمون في دمشق بعد أن انتهوا من أمر التتار للانتقام من النصارى الذين كانت لهم مواقف سيئة مع المسلمين أثناء سيطرة التتار على دمشق، وتجاوز بعض المسلمين الأمر إلى حرق الديار والكنائس، وإلى قتل البعض منهم، ونشط بعض المتحمسين للظلم الذي حل بالمسلمين وقرروا قتل اليهود الذين يعيشون في دمشق، واستدعى هذا الأمر تدخل العلماء والنهي عن هذا الفعل لأن اليهود لم يشتركوا مع النصارى في إيذاء المسلمين أيام حكم التتار(٢) .

وكادت الفتنة أن تعم دمشق بأكملها، حتى أتى يوم الثلاثين من رمضان، عندما وصل سيف الدين قطز وجيش المسلمين دمشق بعد خمسة أيام من معركة عين جالوت، ودخل جيش المسلمين دمشق واستتب الأمن، وانتهت الفوضى التي عمت دمشق، واستقر الوضع بسرعة، وأُمّنَ النصارى واليهود على أموالهم وأرواحهم وممتلكاتهم(٣)، وقام قطز بعزل ابن الزكي قاضي دمشق الذي عينه التتار، وعيّن مكانه نجم الدين أبو بكر بن صدر الدين بن سني الدولة، الذي بدأ يفصل في القضايا، ويحكم في المخالفات التي وقعت بين المسلمين والنصارى .

وفي يوم عيد الفطر أرسل سيف الدين قطز ركن الدين بيبرس بمقدمة جيشه لتتبع الفارين من التتار، وتطهير المدن الشامية الأخرى من الحاميات التتارية، فوصل بيبرس إلى حمص، واقتحم معسكرات

(١) العبادي: قيام دولة المماليك، ص ١٦٨ .

(٢) العبادي: قيام دولة المماليك، ص ١٧١ .

(٣) المقريزي: السلوك، ج١، ص ٥١٨ –٥١٩ .

الحامية التتارية وقضى عليهم وهرب من هرب منهم، وأُطلق سراح المسلمين الأسرى الذين كانوا في قبضة التتار، ثم انطلقوا خلف الحاميات التتارية الهاربة، فقتلوا أكثرهم وأسروا الباقين ولم يفلت منهم إلا الشريد، ثم اتجه بيبرس بمقدمة جيشه إلى حلب، ففر منها التتار، واستطاع المسلمون تطهير بلاد الشام بأكملها من التتار في بضعة أسابيع(١).

توحيد مصر والشام:

أعلن سيف الدين قطز توحيد مصر والشام تحت دولة واحدة بزعامته، وكانت هذه الوحدة هي الوحدة الأولى بين الإقليمين منذ عشر سنوات، وذلك منذ وفاة الملك الصالح نجم الدين أيوب، وخُطِبَ لسيف الدين قطز على المنابر في كل المدن المصرية الشامية والفلسطينية، وبدأ قطز في توزيع الولايات الإسلامية على الأمراء المسلمين(٢)، وأرجع بعض الأمراء الأيوبيين إلى مناصبهم، وذلك ليضمن عدم حدوث أي فتنة في بلاد ومدن الشام، فأعطى قطز إمارة حمص للأشرف الأيوبي (الذي أرسل صارم الدين أيبك إلى قطز قبل معركة عين جالوت يعلمه ببعض المعلومات السرية)، وأعطى إمارة حلب لعلاء الدين بن بدر الدين لؤلؤ(٣)، وأعطى إمارة حماة للأمير المنصور، وعين الأمير المملوكي جمال الدين آقوش الشمسي (قاتل القائد المغولي كتبغا) على الساحل الفلسطيني وغزة، أما دمشق فقد عين عليها علم الدين سنجر الحلبي .

وفي اليوم السادس والعشرين من شهر شوال عام ٦٥٨هـ الموافق الرابع من شهر أكتوبر عام ١٢٦٠م ، عاد سيف الدين قطز لمصر وكان للانتصار في معركة عين جالوت أثرا كبيرا جداً في روح ومعنويات المسلمين من جهة، وفي طموح المسلمين في تحرير ما بقي من مدن وبلدات العالم الإسلامي التي كانت تقبع تحت احتلالين: الأول الاحتلال المغولي والثاني الاحتلال الصليبي، وتبدد الاعتقاد بمقولة أن التتار لا يمكن أن يُهزموا، وبدأ المماليك في الإعداد لاستعادة هيبة الإسلام بعد غياب دام سنين طويلة. واستطاع المماليك وقف تمدد المغول العسكري في الشام وفلسطين والأناضول، ولم يتمكن المغول من غزو بلاد الشام لفترة من الزمن .

---

(١) ابن تغرى: النجوم الزاهرة، ج٧، ص ٨١-٨٣ .

(٢) العبادي: قيام دولة المماليك، ص ١٧١ .

(٣) المقريزي: السلوك، ج١، ص ٥١٨ .

وكان من أهم نتائج معركة عين جالوت أن هولاكو الذي استقر في تبريز لم يفكر في إعادة احتلال الشام مرةً أخرى، وكان أقصى ما فعله رداً على عين جالوت هو إرسال حملة انتقامية أغارت على حلب[١] تعتبر معركة عين جالوت البداية الحقيقية لحكم المماليك في العالم الإسلامي، وحملهم لواء الإسلام والذود عن أراضيه، والتي دامت قرابة ثلاثة قرون فحملوا على عاتقهم صد هجمات التتار والصليبيين، وأضفوا على دولتهم شرعية أكبر من خلال جعل الخلافة العباسية في القاهرة في عهد ركن الدين بيبرس، ثم بدأت مهمة تحرير بلاد الشام من الصليبيين .

وبعد أشهر قليلة من عين جالوت بدأ بيبرس في الإغارة على الإمارات الصليبية[٢]، فتساقطت تلك الإمارات ابتداءً من ٦٦٤هـ/١٢٦٥م، فتحررت مدن قيسارية وحيفا ثم حصن أرسوف في فلسطين، وفي ٦٦٥هـ/١٢٦٦م حررت صفد، وبينما كان بيبرس يحرر هذه المدن، كان قائده المنصور قلاوون يحرر قليقلة في الأناضول، وانتصر على الأرمن بقيادة الملك هيثوم، وفي ٦٦٦هـ/١٢٦٧م حرر بيبرس مدينة يافا، وفي ٦٦٧هـ/١٢٦٥م حُرِّرَت أنطاكيا إمارة بوهمند الثالث أمير أنطاكية الذي كان متحالفاً مع التتار، وهي أول مملكة صليبية في بلاد المسلمين، ولم يبقَ عند وفاة الظاهر بيبرس من المدن الإسلامية المحتلة سوى عكا التي كانت أقوى الإمارات الصليبية، بالإضافة إلى صور وصيدا وطرابلس واللاذقية وطرطوس[٣]، ثم حررت طرابلس في سنة ٦٨٤هـ الموافق ١٢٨٥م أي بعد معركة عين جالوت بستة وعشرين سنة على يد السلطان المملوكي المنصور قلاوون، ثم خلفه بعد وفاته ابنه الأشرف صلاح الدين خليل الذي أخذ على عاتقه تحرير بقية المدن الإسلامية المحتلة من الصليبيين، واستطاع تحرير عكا في عام ٦٩٠هـ الموافق ١٢٩١م بعد قرنين من احتلال الصليبيين لها، وبعد فشل كل الأمراء المسلمين قبله في فتحها، ثم بعد وقت قليل من سقوط حصن عكا حررت صيدا وصور وبيروت وجبيل وطرطوس واللاذقية، وبذلك انتهى وجود الإمارات الصليبية بشكل تام من أرض الشام[٤].

---

(١) المقريزي: السلوك، ج١، ص ٥١٩ .

(٢) المقريزي: السلوك، ج٢، ص ٣٤ .

(٣) العبادي: قيام دولة المماليك، ص ٢٢٣ .

(٤) ابن تغرى: النجوم الزاهرة، ج٧، ص ١٣٨ .

موقعة مرج الصفر:

وكان أهم ما تعرَّضت له دولة المماليك في ذلك الدور هو تجدُّد هجمات المغول على الشَّام، إذ أوغلت جُيُوش الإلخان محمود غازان في الشَّام سنة ٦٩٧هـ/١٢٩٨م حتَّى أنزلت الهزيمة بِالمماليك عند مجمع المُرُوج [١] بين حِمص وحماة. ويبدو أنَّ مُقاومة المماليك في الشَّام انهارت بعد هذه الهزيمة، فدخل غازان دمشق وعاث جُنُوده فيها فسادًا[٢] على أنَّ غازان اكتفى بذلك وعاد إلى بلاده بعد أن عيَّن نائبًا عنه في دمشق.

وكان ذلك في الوقت الذي خرج جيشٌ كبير من المماليك على رأسه السُلطان الناصر مُحمَّد قاصدًا الشَّام سنة ٦٩٨هـ/١٢٩٩م، وقد استطاع المماليك دُخُول دمشق وطرد المغول منها، ولم يعبئوا بِطلب غازان مُهادنتهم، الأمر الذي استثار غازان فخرج من بلاده سنة ٧٠٢هـ/١٣٠٢م قاصدًا غزو الشَّام من جديد. وفي موقعة مرج الصفر التي دارت قُرب دمشق في تلك السنة حلَّت الهزيمة القاسية بِالمغول، الأمر الذي جعل الناس يفرحون بِالناصر مُحمَّد ابن قلاوون[٣] رُغم صغر سنِّه ويستقبلونه استقبالًا حارًّا في دمشق والقاهرة، استمرَّ حُكم الناصر مُحمَّد في تلك الفترة الثالثة إحدى وثلاثين سنة، حتَّى قيل أنَّهُ «لم يل من أبناء المُلُوك قاطبةً مُلك مصر أعظم من الملك الناصر مُحمَّد»[٤]، وأشاد بِسيرة الناصر مُحمَّد وفضله وازدهار حُكمه في تلك الفترة الرحالة ابن بطوطة[٥]، تُوفي الناصر مُحمَّد بن قلاوون سنة (٧٤١هـ/١٣٤٠م)، والواقع أنَّ وفاته جاءت إيذانًا بانتهاء فترة الاستقرار والرخاء اللذين تمتعت بهما الدولة المملوكيَّة في عهده[٦].

وشهدت حياة الدولة المملوكيَّة بعد الناصر محمد اضطرابات وعدم استقرار وفوضى[٧]، تركت أثراً واضحاً في جميع نواحي الحياة السياسيَّة والاقتصاديَّة والاجتماعيَّة. وزاد من أحوال البلاد سوءًا في ذلك الدور انتشار وباءٍ خطيرٍ عُرف باسم «الوباء الأسود» سنة (٧٤٩هـ/١٣٤٩م) – أي في عهد

(١) تسمي بوادي خزندار فى منطقة سلمية من أعمال حماة . انظر : معجم البلدان : ج٣ ، ص ٢٤٠ .

(٢) المقريزي: السلوك، ج٢، ص ٣١٩ .

(٣) المقريزي: السلوك، ج٢، ص ٣٥٦ .

(٤) ابن اياس: بدائع الزهور، ج١، ص ٤٨٦ .

(٥) ابن بطوطة: الرحلة، ص ٦١ .

(٦) سرور: دولة قلاوون، ص ٥٣ .

(٧) سرور: دولة قلاوون، ص ٥٥ .

السُلطان الناصر حسن بن مُحمَّد – فمات كثيرٌ من الناس، وتأثَّرت الحياة الاقتصاديَّة أسوأ أثر حتَّى كادت تتوقَّف تمامًا، وتوقفت الأحوال بِالقاهرة وسائر مصر[1] ووقف خلف كُل سُلطان من أبناء الناصر مُحمَّد وأتباعه أمير أو أكثر من كُبراء أمراء المماليك، بحيثُ طغت شخصيَّة أولئك الأمراء على السلاطين، واستغلُّوهم لِتحقيق مصالحهم الخاصَّة، فنجم عن ذلك ازدياد المُنازعات فيما بينهم، وتحكُّمهم واستبدادهم بِشُؤون الدولة والعِباد .

ويُلاحظ أنَّ بعض هؤلاء الأمراء كان من المماليك البُرجيَّة الشراكسة، ومن أبرزهم سيفُ الدين برقوق، الأمر الذي يدُل على ازدياد نُفُوذ تلك الطائفة، ممَّا أدَّى إلى تمكُّنهم من انتزاع الحُكم لاحقاً، هذا عن الأحوال الداخليَّة لِدولة المماليك في عصر أبناء الناصر مُحمَّد وأحفاده.

أمَّا في الخارج فإنَّ اضطراب أحوال البلاد وعدم وُجود رجُلٍ قويٍّ مهيب الجانب على رأس دولة المماليك[2]، أفقد تلك الدولة مكانتها وهيبتها التي كانت قد بلغت أوجها على عهد السُلطان الناصر مُحمَّد. ولم يلبث أن استخفَّ الأعداء بِدولة المماليك وطمع الطامعون في أراضيها، بل تجرَّأ الصليبيُّون على غزو مصر ذاتها سنة ٧٦٧هـ/١٣٦٥م .

والمعروف أنَّ الحُروب الصليبيَّة لم تنتهِ باسترجاع المُسلمين عكًّا سنة ٦٩٠هـ المُوافقة لِسنة ١٢٩١م وبِطرد آخر البقايا الصليبيَّة من الشَّام، وإنما استمرَّت تلك الحُرُوب في صُورةٍ أو أُخرى حتَّى نهاية القرن الخامس عشر للميلاد تقريبًا، واتخذت لها أكثر من ميدان في المشرق والمغرب جميعًا. وفي ذلك الدور من أدوار الحُروب الصليبيَّة، اتخذ مُلُوك قبرص الإفرنج من آل لوزنيان جزيرتهم قاعدةً كُبرى لِتهديد السُفن والمتاجر الإسلاميَّة في شرق حوض البحر المُتوسِّط، فضلًا عن القيام بِغاراتٍ جريئةٍ على بعض الموانئ الإسلاميَّة وموانئ دولة المماليك بِوجهٍ خاص، وكان ملك قبرص آنذاك بُطرُس الأوَّل لوزجنان قد سمع بِأخبار الفوضى التي غرقت فيها مصر في عصر أحفاد الناصر مُحمَّد[3]، وكيف كانت الموانئ والمُدن المصريَّة خالية تمامًا من وسائل الدفاع، فقرَّر وقادته غزو الإسكندريَّة لِلقضاء على دولة المماليك التي تسبَّبت بِطرد الصليبيين من الشَّام من ناحية، ولِلاستفادة من مركز تلك المدينة الحربي وموقها التجاري من ناحيةٍ أُخرى. وعلى الرُغم من أنَّ أخبار الحملة الصليبيَّة ووُجهتها وصلت إلى مصر عن

---

(١) المقريزي: السلوك، ج٤، ص ٧٨ .

(٢) المقريزي: السلوك، ج٥، ص ١٣٩–١٤٠ .

(٣) سرور: دولة قلاوون، ص ١٦٢ .

طريق التُجَّار قبل وُقُوع الهُجوم بِمُدَّةٍ طويلة إلا أنَّهُ لم يكن من الدولة اهتمام، نزل الصليبيُّون على شاطئ الإسكندريَّة صباح الجُمُعة ٢٣ مُحرَّم ٧٦٧هـ المُوافق فيه ٩ تشرين الأوَّل (أكتوبر) ١٣٦٥م، وارتكبوا فيها مذبحةً رهيبة راح ضحيَّتها آلاف الاسكندريين من مُسلمين ومسيحيين ويهود، ونهب الصليبيُّون البُيُوت والمتاجر والكنائس والجوامع، ولم تسلم منهم حتَّى متاجر التُجَّار الأوروبيين، وهرب الكثير من الأهالي ناجين بِحياتهم.

وبعد مضيّ ٤ أيَّام انسحب الصليبيُّون عائدين إلى قبرص، حاملين في سُفُنهم آلاف الأسرى والمنهوبات[١] خِلال هذه الفترة من عصر السلاطين البحريَّة الصغار، برز اسم أحد المماليك البُرجيَّة أو الشراكسة – وهو الأمير برقوق بن أنس العُثماني الذي تظاهر بِالزُهد في السلطنة مُعلنًا أنَّ المصلحة تتطلَّب إبقاء وظيفة السلطنة في بيت قلاوون. وهكذا استُدعي الأمير حاجي حفيد الناصر مُحمَّد وسنُّه وقتئذٍ إحدى عشرة سنة، وأُعلن سُلطانًا سنة ٧٨٣هـ المُوافقة لِسنة ١٣٨١م .

وفي خلال عهد السُلطان الطفل الجديد، أخذ برقوق يُمكِّنُ لِنفسه، فاختصَّ زُملائه وأنصاره من أمراء المماليك بِالوظائف الرئيسيَّة في الدولة، في الوقت الذي أخذ يعمل على اكتساب محبَّة عامَّة الناس، فخفَّف عنهم الضرائب، ولمَّا وجد أنَّ الأُمور باتت مُهيئة لإعلان نفسه سُلطانًا[٢]، انتحل نفس العُذر الذي سبق أن تحجج به الطامعون في الحُكم من أمراء المماليك، وهو صغر سن السُلطان القائم، فاجتمع بالأعيان الذين أعلنوا خلع السُلطان حاجي وإقامة برقوق مكانه ، وبِعزل حاجي من السلطنة انتهى بيت قلاوون، كما انتهى حُكم المماليك البحريَّة، وقامت دولة المماليك البُرجيَّة سنة ٧٨٤هـ المُوافقة لِسنة ١٣٨٢م[٣].

(١) المقريزي: السلوك، ج ٤، ص ٢٨٥ .

(٢) ابن تغرى بردى: بدائع الزهور، ج١، ق٢، ص ٣١٥-٣١٨ .

(٣) المقريزي: السلوك، ج٥، ص ١٣٥-١٤٠.

موقف دولة المماليك من الحروب الصليبية ومعالجتها لها:

تطلبت استراتيجية المماليك التماسكية، خلال العقود الأولى لحكمهم، توسع الدولة لمواجهة الأخطار العسكرية، ورمزت إلى خدمة الإسلام، بالانتصارات على الوثنين والكفار، ففي عام ٦٥٨هـ/١٢٦٠م ربح المماليك في عين جالوت المعركة الإسلامية الكبرى منتصرين على المغول القوة التي كانت لا تُقهر آنذاك، وصدت جيوش المماليك كل غزو مغولي في الشام، وقامت بهجمات مضادة في أرمينيا والأناضول، وفي الوقت ذاته طردوا بقايا الإمارات الصليبية من البلاد، فكان الانتصار انجازاً بارزاً ومحققاً طموحات عمرها قرون من أجل استعادة البلاد الإسلامية، وحازوا على السلام النهائي عام ٧١٦هـ/١٣١٧م .

ساعدت هذه الانتصارات على إحراز النظام الجديد اعترافاً وسلطاناً، وحرروا بالقوة أرضاً إسلامية من التمزق، وشعوباً إسلامية من العبودية والخزي، وسارعوا إلى تعزيز الانطباع الحسن الذى أحدثته انتصاراتهم بدعم كبير للفئات الدينية ولمؤسساتها التربوية والدينية، وبتقييد يقظ بالعادات والشعائر المناسبة للحكام المسلمين[1] ويمكن القول أن المماليك أظهروا ثباتاً كبيراً في مواجهة الخطر الصليبي لا يقل عن ثباتهم في مواجهة الخطر التتري، ونجحوا في التغلب على الخطر الصليبي نجاحاً لا يقل عن نجاحهم في التغلب على الخطر التتري بل ربما فاقه، لأن المماليك هم أصحاب الفضل في اقتلاع جذور الخطر الصليبي من بلاد الشام وطردهم نهائياً من تلك البلاد، وربما اضطر المماليك إلى مقاتلة الصليبيين في نفس الوقت الذى قاتلوا فيه التتار[2]، ولكن كان يحدث غالباً أن يحرص المماليك على محاربة الخصمين في وقت واحد إلا إذا اضطرتهم الظروف إلى ذلك.

---

(١) لابدوس: مدن اسلامية، ص ٣٥- ٣٦ .

(٢) عاشور: العصر المماليكي، ص ٥٥ .

الثاني

هجوم العربان على الحقول

الواقع أن العرب من سكان مصر، الذين استوطنوا هذا البلد منذ الفتح الإسلامي، وقد تحولوا تدريجيا إلى مزارعين مستقرين، خاصة في أقاليم الصعيد والشرقية، وأطلق عليهم "العرب المزارعة" ويبدو أن هؤلاء العرب احتقروا المماليك، ورفضوا أن يخضعوا لحكمهم بسبب أصلهم الغير حر، واعتبروا أنهم أحق بالملك منهم، وقد اتخذوا رفضهم شكل ثورة مسلحة تزعمها الشريف حصن الدين بن ثعلب[١].

ويبدوا أن أسباب تلك الثورة تعود إلى دافعين رئيسيين: الأول سياسي والثاني: اقتصادي فمن حيث الدافع السياسي، يلاحظ أن ثورة العرب هدفت إلى القضاء على حكم المماليك واعادة مصر إلى حظيرة الحكم العربي الحر ، أما من حيث الدافع الاقتصادي: فان المماليك تعسفوا في تحديد أثمان المنتجات الزراعية، وتلاعبوا بأسعارها، مما انعكس سلباً على أوضاع المزارعين الاقتصادية، وقد أدى ذلك إلى هجرة[٢] عدد كبير منهم إلى المدن الكبرى حيث اشتركوا في النزاعات الداخلية التي كانت تدور بين الأمراء المماليك. ويبدوا أن الحركة الثورية لم تقتصر على المزارعين العرب وحدهم، بل انتشرت بين العامة الذين التفوا حول الشريف حصن الدين، ورفض المصريون سلطان جرى عليه الرّق[٣]، فكانوا يهاجمون أيبك ويوجِهون إليه النقد ويسمعونه ما يكره .

وأقام الشريف حصن الدين دولة عربية مستقلة في مصر الوسطى وفي منطقة الشرقية بالوجه البحري قاعدتها "ذروة سريام" أو "ذروة الشريف" نسبة إليه، وحتى يقوى سلطة دولته الناشئة، اتصل الشريف بالملك الناصر يوسف، صاحب الشام، وطلب منه المساعدة في محاربة المماليك[٤]، لكن الملك الأيوبي الذى كان يجرى، آنذاك، مفاوضات مع أيبك بشأن عقد صلح بينهما، لم يكن بوسعه أن يقدم أي مساعدة، وأثارت هذه الحركة مخاوف المماليك، فخشوا على مستقبل دولتهم الوليدة مما دفعهم إلى اتباع سياسة العنف والقوة في قمعها، فأرسل أيبك حملة عسكرية بقيادة اقطاي للقضاء على هذه الثورة، وتمكن

---

(١) العبادي: قيام دولة المماليك، ص ١٣٠.

(٢) المقريزي: السلوك، ج١، ٤٧٩-٤٨١.

Ashtor: Miscellanea. p 109.

(٣) المقريزي: البيان والأعراب، ص ١٠ .

(٤) المقريزي: السلوك، ج١، ص ٣٨٦ .

أقطاي من التغلب على المقاومة العربية في بلبيس، وظل حصن الدين طليقاً يحكم مصر الوسطى حتى قبض عليه الظاهر بيبرس عندما تولى الحكم وشنقه [١]فقد شكل العربان شريحة اجتماعية في مصر عصر سلاطين المماليك، حيث انتشرت تلك القبائل في بلاد الوجهين القبلي والبحري وبخاصة في أقاليم الشرقية والبحيرة والمنوفية في الوجه البحري، و أقاليم قوص وأسيوط والأشمونيين في الوجه القبلي[٢]، وقد حمل العربان راية المعارضة وعبء المقاومة ضد سلطنة المماليك دون شرائح المجتمع المصري جميعها، و على الرغم من الأساليب الوحشية التي استخدمها ضدهم المماليك فلم تخمد ثورات العربان طوال العصر المملوكي، و لم تخل سنة من السنين من ثورة في الصعيد أو في الوجه البحري، وكانت هذه الثورات تستهدف ضرب المماليك ومهاجمة الإقطاعات التي يحوزونها والاستيلاء على المحاصيل الزراعية وحرمان المماليك من خيرات البلاد[٣] .

ومن ثم اتسم عصر سلاطين المماليك بكثرة ثورات العربان وانتفاضاتهم ضد الدولة المملوكية وخاضت الدولة المملوكية حملات ضد تلك العناصر العربية التي دخلت مصر وبقت فيها وأصبحت مصدر قلق وارهاب وخروج على الأمن والنظام وقطع الطريق ونهب المصريين في الصعيد على وجه الخصوص، وعلى أثر ذلك فقد بلغ الأعراب في مصر عددًا عظيمًا في العصر المملوكي وانتشروا في مختلف أنحاء البلاد وقد أَنِفَ الأعراب من الخضوع لدولة المماليك ووصفوا السلطان أيبك بأنه "مملوك قد مسَّه الرق"[٤]، وتحدثوا عن المماليك بشكل عام أنهم عبيد خوارج، ثم بلغ الأمر بهم أنهم اجتمعوا وأقاموا أحدهم حاكماً، ولكن المماليك قاتلوهم وهزموهم ومن ثم بدأ الصدام بين المماليك وطوائف العربان بصورة متقطعة طيلة العصر المملوكي .

ولذلك ظل العربان طوال العصر المملوكي عنواناً للإخلال بالأمن والإضرار بالنظام والاعتداء على الأهالي الآمنين، كما أن مدن مصر وقراها لم تسلم من عبثهم واعتداءاتهم ونهبهم بل إن العاصمة القاهرة لم تنجو من ضرهم؛ فكثيراً ما أغار العربان على أطراف القاهرة[٥] ونهبوا وخطفوا كل ما وصل إلى أيديهم حتى عمائم الناس وأثوابهم. أما ما فعله سلاطين المماليك لدفع شر الأعراب فإنهم قربوا إليهم

---

(١) النويري: نهاية الأرب، ج٢٩، ص ٢٧٥ ؛ المقريزي: السلوك، ج١، ص ٣٨٥.

(٢) القلقشندي: صبح الأعشى، ج٤، ص ٦٨.

(٣) عاشور: المجتمع المصري، ص ٦٢–٦٣ .

(٤) المقريزي: البيان والأعراب، ص ١٠ .

(٥) المقريزي: السلوك، ج١، ص٤٨٠ .

مشايخ العربان وأجزلوا لهم العطاء حينًا وأرسلوا الحملات لردعهم أحيانًا أخرى، ومع ذلك لم يهدأ للأعراب بال طيلة عصر سلاطين المماليك[١] .

لعب العربان أدواراً سيئة أثناء الحملة الصليبية السابعة ٦٤٧ – ٦٤٨هـ/١٢٤٩–١٢٥٠م، وتسببوا في سقوط دمياط بسهولة في أيدي الصليبيين بعد أن وثق بهم الصالح أيوب ووضعهم بها لحمايتها فهربوا وتركوها، فغضب الصالح عليهم بعدما خانوا الأمانة وأعدم عدد كبير منهم[٢] وعند تقدم الصليبيون للمنصورة دلهم أحد العربان على مخاضة في بحر أشموم عبروا عليها ليقوموا بهجوم مفاجئ على المعسكر المصري[٣] حيث قُتل فخر الدين يوسف القائد العام للجيوش المصرية، وكان يمكن أن تقع مصر كلها في أيدي الصليبيين لولا ظهور المماليك في المنصورة ومعهم الأهالي وتصديهم بنجاح للقوات الصليبية المهاجمة .

وفي عهد السلطان عز الدين أيبك (٦٤٨–٦٥٥هـ/١٢٥٠–١٢٥٧م) كانت العناصر العربية في مصر مصدر تهديد وإرهاب للمصريين واستقرار مصر وأمنها، لكن أيبك أرسل لهم حملات تتبعتهم في مديريات الوجه البحري وقضى على قوادهم وسيطر عليهم وحد من جرائمهم وأعمالهم الفوضوية. ويحكي المقريزي[٤]: "وأمر المعز بزيادة القطيعة على العرب، وبزيادة القود المأخوذ منهم، ومعاملتهم بالعنف والقهر فذلوا وقلوا" .

وفي عام ٦٥١هـ/١٢٥٣م نشب تمرد خطير في مصر الوسطى والصعيد قامت به القبائل العربية المقيمة بمصر بزعامة حصن الدين ثعلب الذي تصدى له الأمير فارس الدين أقطاي وانتصر عليه بالقرب من ديروط وأخمد ثورته ، بعد أن منح أيبك الأمان لثعلب استدعاه وسجنه بالإسكندرية[٥] وبعد نجاح فارس الدين أقطاي في سحق تمرد ثعلب ومن قبل في الانتصار على جيش الناصر يوسف منحاه ومعه مماليكه البحرية مكانة ونفوذاً جعلت أيبك يتوجس منهم ويعتبرهم مصدرا للتهديد على سلطنته[٦] عندما طلب أقطاي من أيبك سُكنى القلعة مع عروسه التي سيعقد عليها وكانت أختاً للملك

---

(١) عاشور: المجتمع المصري، ص ٦٠ – ٦٣.

(٢) المقريزي: السلوك، ج١، ص٤٣٩.

(٣) المقريزي: السلوك، ج١، ص ٤٤٧.

(٤) السلوك: ج١، ص٤٨٠ .

(٥) المقريزي: السلوك، ج١، ص٤٧٩–٤٨١.

(٦) المقريزي: السلوك، ج١، ص٤٨٣.

المظفر صاحب حماة لاح لأيبك أن أقطاي ومماليكه البحرية قد تجاوزوا كافة الاعتبارات فقرر القضاء على أقطاي[١] وفي سنة (٦٥٩هـ/١٢٦١م) بلغ السلطان أن جماعة من عرب زبيد[٢] يخالطون الفرنج، ويدلونهم على عورات المسلمين، وكسر فسادهم، فخرج اليهم العسكر وأوقعوا بهم، وقتلوا منهم جماعة وأحضر السلطان أمرائهم، وأعطاهم وأقطعهم الإقطاعات وسلمهم أمر بلادهم وألزمهم حفظ الدروب إلى حدود العراق، وكتب منشور الإمرة على جميع العربان للأمير شرف الدين عيسى ابن مهني[٣] .

ومن أشهر حملات الدولة المملوكية ضد العربان كانت الحملة التي قام بها الأمراء في عهد السلطان الناصر محمد سنة ٧٠١هـ/١٣٠١م عندما خرج العربان عن النظام وأشاعوا الفوضى في الصعيد[٤] وقطعوا الطريق وفرضوا اتاوات على التجار وأرباب المعايش من المصريين ونهبوهم، واستخفوا بالولاة ومنعوا الخراج، وأطلقوا على أنفسهم بعض أسماء الأمراء، وحملوا السلاح، وأخرجوا اهل السجون[٥]، فأجمع القضاة والفقهاء بجواز قتلهم[٦]، فادعى الأمراء أنفسهم أنهم مسافرين خارج مصر وقاموا بمناورة ذكية وأحاطوا بالعربان من كل جهة وانقضوا عليهم بأربع فرق، وأحس العربان بالهجوم المفاجئ للعسكر، فلجأوا للجبال والكهوف لكن العسكر تتبعوهم وقتلوا كل ما قابلوا منهم، واستطاعت بذلك الدولة أن تسيطر عليهم، وتخلص المصريين من شرورهم .

وذكر بيبرس الدوادار[٧] أن " كثرت شكاوى الولاة الذين بالوجه القبلي من فساد العربان وما ظهر منهم من العصيان والنفاق والعدوان، وارتكاب المحرمات، فسار الأمير سيف الدين سلار والأمير ركن الدين أستاذ الدار كفيلا لممالك ومشيراها وممهدا الدولة ومدبراها إلى الاعمال المذكورة في جموع من العساكر المنصورة وفرقا العسكر ثلث فرق ليحيطوا بهم براً وبحراً ويأخذوهم حيث احتلوا سهلاً ووعراً. ويصف المؤرخ بدر الدين العيني[٨] حال العربان بعد تلك الحملة التي حمت مصر من العربان فيقول:

---

(١) المقريزي: السلوك، ج١، ص٤٨١.

(٢) اسم قبيلة كان مسكنها حول دمشق قرب الرحبة بجوار منازل آل فضل؛ انظر: القلقشندي: صبح الأعشى، ج٤، ص ٢١٣-٢١٤.

(٣) بيبرس المنصوري: مختار الأخبار، ص ٢٠ ؛ المقريزي: السلوك، ج ١، ص ٥٣٨ .

(٤) النويري: نهاية الأرب، ج ٣٢، ص ٥ – ٦ ؛ المقريزي: السلوك، ج٢، ص ٣٤٦ .

(٥) ابن تغري: النجوم، ج٨، ص ١٤٩ – ١٥٠ .

(٦) المقريزي: السلوك، ج٢، ص ٣٤٦ .

(٧) مختار الاخبار: ص ١١٩- ١٢٠.

(٨) عقد الجمان: ج٤، ص١٧٣- ١٧٤ .

"فانطفأت جمراتهم، وزالت مضرتهم، وتمهدت الأعمال تمهيداً واضحاً، وعاد من مفسدي العرب فقيراً صالحاً، وحمل أكثرهم السواك والسبحة، عوضاً عن حمل الرماح والأسلحة"' وذكر المقريزي[1] في كتابه "البيان والاعراب" عن القبائل العربية التي دخلت مصر: " اعلم ان العرب الذين شهدوا فتح مصر قد بأدهم الدهر وجهلت أحوال أكثر أعقابهم" .

وفي سنة ٧١٦هـ /١٣١٦م قامت العربان ببرية عيذاب بقطع الطريق على رسول اليمن الواصل للأبواب السلطانية، وأخذوا ما كان معه من التقادم[2]، ومن رافقه من غلمان التجار، فاجتمع العسكر لمقابلتهم ورد ما أخذوه من الأموال، ومراجعة الطاعة، وكان السبب هو اعتقال أمير هذه الطائفة، وتوالت الأحداث إلى قتالهم، وفرارهم من عيذاب إلى رؤوس الجبال، وحصل لهم تضرر كبير بسبب قلة المياه، وتوجه الجيش خلف العربان، وفي أثناء مسيرهم ظفروا بطوائف من السوادان، فقتل العسكر منهم وسبي وغنم منهم الأبقار والأغنام، ثم ساروا وأرسلوا من يكشف الخبر، وعلموا أن هناك طائفة من السودان تسمى هلنكة، واجتمعوا لقتال العسكر، فتغلب العسكر عليهم وقتلوهم، وأخذوا الغنائم، [3]وأثناء رجوع العسكر، عانوا مشقة عظيمة إلى أن وصلوا أسوان ومنها إلى قوص ومنها إلى ساحل مصر عن طريق المراكب بسبب فيضان النيل عامة البلاد[4] وقطع الطرق إلا الجبال وذلك في سنة ٧١٧هـ/١٣١٧م،

وأيضاً في سنة ٧٥٤هـ/١٣٥٣م خرج العربان من الصعيد، وأظهروا العصيان، ونهبوا الغلال، وكان شيخهم شخص يسمى عمر ابن الأحدب، شيخ قبيلة عرك، فاجتمع معه عدة قبائل، وخرجوا عن الطاعة، فلما تحقق السلطان من ذلك، خرج اليهم بنفسه، ومعه سائر الأمراء، وحدث بينهم واقعة كبيرة، مات فيها من العربان أكثر من عشرة آلاف إنسان وهرب ابن الأحدب، ولم يتمكن العسكر منه، حتى رجعوا ومعهم غنائم كثيرة من العربان، وأسروا منهم نحو ألف إنسان، وبعد أيام أرسل ابن الأحدب شيخ قبيلة عرك، يطلب الأمان من السلطان، فقبل السلطان ذلك وأخلع عليه خلع سنية، ورسم له بالتوجه إلى بلاده، فعاد بعد أيام وخمدت تلك الفتنة التي ذهبت فيها أرواح وأموال كثيرة، وتيتمت فيها أطفال، وكانت حادثة

---

(١) البيان والاعراب: ص ١٢٥ .

(٢) النويري: نهاية الأرب، ج ٣٢، ص ١٨٣ .

(٣) المقريزي: السلوك، ج٢، ص ٥١٦ .

(٤) النويري: نهاية الأرب، ج ٣٢، ص ١٨٦ .

مهولة[١] أما الحجاج لم يسلموا من القتل والنهب في طريقهم أثناء الذهاب إلى المشاعر المقدسة، فقد جاءت الأخبار من مكة سنة (٧٧٧هـ/١٣٧٥م) بأن العربان خرجت على الحجاج[٢] بطريق المدينة المنورة، ونهبوا كل ما كان معهم، وقتل من الحجاج جماعة كثيرة، وكذلك الحجاج من الشام، وحدث لهم مشقة عظيمة من قلة الماء وكثرة الغلاء، والجوع والموت، وما سلم منهم إلا القليل .

أيضاً في سنة (٧٨٢هـ/١٣٨٠م) ثارت قبائل العربان في البحيرة، وتحالفوا على العصيان، وخرجوا عن الطاعة، ونهبوا المغل من البلاد، فتحقق من ذلك الأتابكي برقوق، وعين الأمير آلان الشعباني أمير سلاح، وعين صحبته خمسمائة مملوك، وخرج عليهم ولكن العربان كسروه وقتلوا جماعة من المماليك السلطانية، واضطربت القاهرة، وقصد السلطان أن يخرج إلى البحيرة، فأشار عليه بعض الأمراء بعدم الخروج، ثم جاءت الأخبار من الإسكندرية، أن نائب الإسكندرية جمع طائفة من العربان الطائعة، وتوجه إلى البحيرة، ووقع مع العربان، فتغلب عليهم وشتت شملهم، ومنهم من هرب إلى برقة، وعندما بلغ السلطان والأتابكي برقوق ذلك، رجعوا عن الخروج للبحيرة، وخمدت تلك الفتنة. ثم قدم من شيوخ عربان البحيرة جماعة، منهم خضر بن موسي، وآخرون فضربوا بالمقارع وسجنوا[٣].

وتركت ثورات العربان أثارها السلبية على الاقتصاد المصري وبخاصة الإنتاج الزراعي حيث تم تدمير الجسور وإغراق الأرض الزراعية بمياه الفيضان[٤] وتكسير آلات الري وحرق الغلال في أجرانها، كذلك كشفت الدراسة حجم الثروة الحيوانية الكبير وبخاصة من الخيول والإبل والأبقار والأغنام التي تم الاستيلاء من العربان بحيث لم تستطع المصادر المعاصرة أن تمدنا بأرقامها لأنها تخرج عن الحصر.

فضلاً عن ذلك فقد أثر هذا الصراع على الإنتاج الصناعي وخاصة صناعة السكر حيث نهبت معاصر السكر وأخذت الأبقار التي تديرها ونهبت حواصل المعاصر والقنود والسكر بالإضافة إلى ذلك فقد أثرت ثورات العربان على التجارة الداخلية في مصر حيث قطعت الطرق البرية بطول البلاد المصرية، وتم الاستيلاء على المراكب التجارية من نهر النيل[٥]، ومنع وصول الغلال إلى القاهرة وبالتالي ارتفاع أسعار السلع في القاهرة خاصة السلع الغذائية مثل اللحوم والغلال والبقول ولم يقتصر

---

(١) ابن اياس: بدائع الزهور، ج١، ص ٥٥٠ وما بعدها.

(٢) ابن اياس: بدائع الزهور، ج١، ق ٢، ص ١٦١ .

(٣) ابن اياس: بدائع الزهور، ج١، ق ٢، ص ٢٧٩- ٢٨٠ .

(٤) ابن اياس: بدائع الزهور، ج١، ق ٢، ص ٢٤٢-٢٤٣.

(٥) المقريزي: السلوك، ج٣، ص ١٣ – ١٤؛ لا بدوس: مدن اسلامية، ص ٦١ .

تأثير ثورات العربان على التجارة الداخلية وطريقها، بل امتد تأثيرها إلى التجارة الخارجية وطرقها سواء طريق عيذاب إلى قوص والخاص بتجارة الكارم أو على الطريق بين مصر والنوبة [١] أو على الطريق بين مصر والشام مما ساهم في إضعاف التجارة الخارجية بالاشتراك مع السياسة الاحتكارية للمماليك[٢]، والحصار الاقتصادي من جانب الغرب الأوروبي، وحركة القرصنة على الشواطئ المصرية، ومحاولة إيجاد طرق بديلة بعيداً عن سيطرة المماليك .

وكان لثورات العربان تأثيرها على نظام الإقطاع الحربي الذي ساد مصر منذ قيام الدولة الأيوبية[٣]، وكان يعد المورد الرئيسي لدخل سلاطين المماليك وأمرائهم وجنودهم[٤]، كما كان الخراج يعد المصدر الأساسي لدخل الدولة في عصر المماليك والامتناع عن دفع الخراج معناه ضرب نظام الإقطاع في مقتل وحرمان المقطعين من موارد دخلهم وهم من الأمراء والجنود وبالتالي إضعاف الجيش المملوكي، وأيضاً تأثير ثورات العربان على الاقتصاد المصري، فقد تأثر نظام الوقف[٥] الذي خضعت له كثير من الأراضي الزراعية، بسبب اعتداءات العربان من قتل الفلاحين وغرق الأرض ونهب الغلال وبالتالي الأثر السيئ على الجهات الموقوف عليها هذه الأراضي. كما أدي الصراع بين العربان والمماليك إلى تدمير البنية البشرية لسكان مصر[٦] في عصر كانت المجاعات والأوبئة بمثابة معول هدم لهذه البنية البشرية من ناحية أخري .

(١) المقريزي: السلوك، ج٤، ص ١٦٢–١٦٦ .

(٢) لابدوس: مدن اسلامية، ص ٩٩–١٠٢ .

(٣) المقريزي: السلوك، ج٣، ص ١٣–١٤؛ عاشور: المجتمع المصري، ص ٦٠—٦٥ .

(٤) الشربيني: النظم المالية، ص ١١٩ –١٢٢.

(٥) طرخان: النظم الاقطاعية، ص ٧٨–٧٩.

(٦) لابدوس: مدن اسلامية، ص ٣١٦ .

موقف الدولة المملوكية من ثورات العربان:

حيث قابلت تلك الثورات بتجريد العديد من الحملات العسكرية التي تسببت في تدمير البلاد التي مرت بها، وقد ارتبطت هذه الحملات باستخدام القسوة والشدة المفرطة، وتعدد أساليب القتل من التوسيط والعصر[١] ونشر الأجسام وسلخ الجلود، ومصادرة الأموال ولجأت السلطات المملوكية إلى استصدار الفتوى الشرعية التي تجيز قتال هؤلاء العربان[٢] على اعتبار أنهم "مفسدون "و"خارجون على الطاعة " تجب محاربتهم، فأفتوهم بجواز ذلك. وكان الحصول على هذه الفتوى سند شرعي يبرر الأعمال الانتقامية التي يقوم بها المماليك ضد هؤلاء العربان والتي وصلت حد الإبادة الجماعية .

أيضاً فرض مكس يسمي (مكس الحمايات) وذلك نظراً لتعرض الفلاحين في الإقطاعات، إلى أضرار كثيرة من جراء هجوم العربان على أراضيهم وممتلكاتهم[٣]، والقيام بنهبها، فالتجأ الفلاحين إلى الحث عن حام لهم، يصد عنهم هذه الأخطار، فقد نشأ ما يسمي بمكس الحمايات، وهو عبارة عن ضريبة يفرضها السلطان على بعض الأراضي والمتاجر وغيرها، نظير حماية الشخص الذي يدفع هذه الضريبة، وقد قام بعض السلاطين بإلغاء هذا المكس إلا أن أنشأ له ديواناً فيه عدداً من المباشرين، أطلق عليهم أستدارية الحمايات، وأخذ هذا المكس صفة التقنين.

---

(١) الشربيني: النظم المالية، ص ١٣٩ – ١٤٠.

(٢) عاشور: المجتمع المصري: ص ٥٩ – ٦٣ .

(٣) الشربيني: النظم المالية، ص ٣٣١.

الثالث

عمليات القرصنة والاعتداء على الموانئ والسفن المصرية والشامية وحماية الموانئ البحرية زمن المماليك البحرية

كان الفاعل المركزي الإسلامي هو دولة سلاطين المماليك، فكانت هي مركز القوة السياسية والاقتصادية والعسكرية في العالم الإسلامي كما تطورت أوضاعها على مدى امتداد هذا العصر. وكان لهذا التطور مدلولاته وآثاره بالنسبة للعلاقات بين الدول الإسلامية وبين القوى الاخرى في سبيل حماية دول الإسلام في مواجهة الغرب بصفة عامة، اذ تصاعدت الهجمات الأوروبية على الدولة المملوكية بعد سقوط بغداد (٦٥٦هـ/١٢٥٨م) على يد المغول(١)، ففي حين كان سلاطين المماليك يدعمون قوتهم وسلطتهم في مصر والشام(٢) تميز الدور المملوكي – في مواجهة المغول وفي مواجهة الصليبيين –، والذى استمر بعد سقوط عكا ولمدة قرنين آخرين من عمر العصر المملوكي تعددت خلالهما مشروعات الهجوم التي كانت وراءها قوى مختلفة وأهداف متطورة حافظت على حياة الصليبية ولو في ثوب جديد وبأدوات جديدة ليست عسكرية أساساً.(٣)

لم تكف أوروبا عن التفكير في الأخذ بثأرها من الإسلام وهو الأمر الذي أخذ صوراً عدة حتى بداية حركة الكشوف الجغرافية ثم بداية الهجوم على أطراف العالم الإسلامي ثم على قلبه عسكريا من جديد، فلقد شهد عصر المماليك البحرية أدوات جديدة أوروبية(٤) لتوجيه ضربات مهمة للمسلمين في حوض المتوسط، وكانت دولة المماليك هي الهدف الأول، ويتلخص الإدراك الأوروبي في هذه المرحلة حول ضرورة ضرب مصالح النشاط التجاري المصري الذي يمثل مصدر الغنى الأساسي لدولة سلاطين المماليك(٥). ولقد خطط لتنفيذ هذه الضربة بأسلوبين: أولهما: فرض الحصار الاقتصادي على مصر لمحاربتها في أعظم موارد ثروتها واقتصادها إلا وهي التجارة، وثانيهما: شن حرب سافرة على الموانئ والسفن المصرية والشامية لإصابة التجارة المصرية بالاضطراب بعد أن فشل أسلوب الحصار في تحقيق

---

(١) المقريزي: ج١، ص ٤٩٩؛ نادية مصطفى: العلاقات الدولية، ج١، ص ١٢١ .

(٢) لابدوس: مدن اسلامية، ص ٢٧٠-٢٧٣ .

(٣) نادية مصطفى: العلاقات الدولية، ج١، ص ١٣١.

(٤) نادية مصطفى: العلاقات الدولية، ج١، ص ١٣٢.

(٥) لابدوس: مدن اسلامية، ص ٣١٣ .

أهدافه ، ولقد قادت المبادرة على الصعيدين البابوية والتي سعت أيضاً لتعبئة الحبشة من الجنوب ضد مصر المملوكية .

وكانت حادثة غزو الإسكندرية ٧٦٧هـ- ١٣٦٥ م [١] من أهم صور المواجهة العسكرية المملوكية الإفرنجية التي لم تخف أهدافها الحقيقية وهي الاستيلاء على مصر كمفتاح لبيت المقدس[٢]، ولم تنجح الحملة في تحقيق أهدافها البعيدة ولكن أصابت العلاقات المملوكية الإفرنجية بتوتر شديد، ونظراً لاستمرا رسياسة الاعتداء على الموانئ والسفن المصرية والشامية[٣] إلى الهجوم المضاد.

ولقد اختلفت أساليب التصدي المملوكي لهذه الأساليب الصليبية الجديدة باختلاف حالة الطرف المملوكي خلال القرن قوة أو ضعفاً ففي ظل عصر المماليك العظام وعلى رأسهم السلطان المظفر قطز الذى واجه أزمة اقتصادية منعته من تجهيز الجيش المتجه لمواجهة التتار، فلابد من تجهيز الجيش المصري وإعداد التموين اللازم له، وإصلاح الجسور والقلاع والحصون، وإعداد العدة اللازمة للحرب، وليس هناك من الأموال ما تكفي لتأمين كل ذلك .

فقام قطز بدعوة مجلسه الاستشاري ودعا إليه سلطان العلماء العز بن عبد السلام، اقترح قطز أن تفرض ضرائب لدعم الجيش، ولكن هذا القرار يحتاج فتوى شرعية، لأن المسلمين في دولة الإسلام لا يدفعون إلا الزكاة، عندها أفتى العز بن عبد السلام[٤] وقد بيَّن بأنه لا يجوز فرض ضرائب إلا بعد أن يتساوى الوزراء والأمراء مع العامة في الممتلكات، ويجهز الجيش بأموال الأمراء والوزراء، فإن لم تكف هذه الأموال جاز هنا فرض الضرائب على الشعب بالقدر الذي يكفي لتجهيز الجيش، قبِل سيف الدين قطز فتوى العز بن عبد السلام وبدأ بنفسه وباع كل ما يملك وأمر الوزراء والأمراء أن يفعلوا ذلك، فانصاع الجميع وامتثلوا أمره، فقد أحضر الأمراء كافة ما يملكون من مال وحلي نسائهم وأقسم كل واحد منهم أنه لا يملك شيئاً في الباطن، ولما جمعت هذه الأموال ضربت سكاً ونقداً وأنفقت في تجهيز الجيش، وإصلاح الجسور والقلاع والحصون، وإعداد العدة اللازمة لحماية الأطراف الساحلية[٥] . إن قيمة المظفر قطز أنه صاحب الفضل في وقف الزحف المغولي الجارف على ما تبقى من العالم الإسلامي، كما يعتبر

---

(١) المقريزي: السلوك، ج٤، ص ٢٨٤.

(٢) نادية مصطفى: العلاقات الدولية، ج١، ص ١٣٣ .

(٣) عاشور: العصر المماليكى، ص ٢٩٠.

(٤) المقريزي: السلوك، ج١، ص٥٠٧ .

(٥) الصلابي: قطز ومعركة عين جالوت، ص ١٢٠ .

أول من أرسى حكم دولة المماليك البحرية[1] في مصر والشام، وتأمين الحماية لها من الخطر الخارجي المتمثل في المغول والصليبين، كما شهد أول دخول مملوكي رسمي إلى بلاد الشام، مما كان له أثر في تدعيم الوحدة الاسلامية على يد خلفائه، تمهيد لاستمرار مقاومة المغول وطرد بقايا الامارات الصليبية من الشرق .

وقد ساعده في ذلك أيضاً السلطان الظاهر بيبرس الذى اهتم بتحصين أطراف الدولة وثغورها لحاجة ضرورية للحماية من الاعتداءات الخارجية، ولاتخاذها قواعد انطلاق لمحاربة الأعداء، فأعاد بناء القلاع والحصون في بلاد الشام التي خربها المغول، من حمص إلى حوران، وشحنها بالمقاتلة، وزودها بالمؤن والذخيرة، فأمن ذلك خطاً دفاعياً من شرقي الأردن إلى نهر العاصي، وبنى أبراجاً للمراقبة في المناطق الحدودية مع الصليبيين، لحفظ الطرقات من تعدياتهم وتحقيق الأمن عليه، وشيد سلسلة من المنائر تربط مناطق الحدود بالعاصمة لمراقبة تحركات الأعداء ولتساعد على سرعة نقل الأخبار[2] وشحنها بالمراقبين، وكانت النار في الليل والدخان في النهار الأدوات المستعملة للإنذار، فإذا كشف المراقبون العدو مقبلا من البر أو البحر، أشعلوا النار على قمم هذه المنائر إذا كان الوقت ليلاً، أو أثاروا فيها الدخان إذا كان الوقت نهاراً وتنقل هذه الإشارات من منارة إلى منارة أخرى حتى تصل إلى القاهرة .

وأمر بيبرس بتجديد القلاع الواقعة في مناطق الحدود الفراتية الملاصقة للمغول[3]، فجدد قلعة البيرة في عام (٦٣٣هـ/١٢٦٤م) وشحنها بالمقاتلة، وزودها بالعتاد والمؤن من مصر وبلاد الشام لمساعدة سكانها على المقاومة[4]، وقبة الصخرة بالقدس، وأمر بعمارة القلاع التي كان التتار استولوا عليها وخربوا أسوارها ومنها قلعة دمشق، وقلعة الصلت، وقلعة عجلون، وقلعة صرخد، وقلعة الصبيبة، وقلعة بصرى، وقلعة بعلبك، وقلعة شيزر، وقلعة شميميس[5]، وحمل إليها الآلات والذخائر ما تحتاج اليه وجرد إليها المماليك والجند من يقيم بها، وعمَّر ما تهدم من قلعة الروضة، أما في مصر فقد ردم مصب النيل عند ثغر دمياط بواسطة الصخور الكبيرة لمنع الصليبيين من النزول فيه، إذا ما حاولوا ارسال حملة أخرى إلى مصر،

(١) المقريزي: السلوك، ج١، ص ٥٠٨ .

(٢) القلقشندي: صبح الأعشى، ج١٤، ص ٣٧١ – ٣٧٢ .

(٣) المقريزي: السلوك، ج١، ص ٥١٠ .

(٤) المقريزي: المواعظ، ج٣، ص ١٨ .

(٥) ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص ٩٠ ؛ بيبرس: مختار، ص ٢٣– ٢٤ .

وشيد برجاً للمراقبة فيها، وعمَّر ثغر الإسكندرية، وجدد بناء منائرها[1]، وأسوارها، وحفر خنادقها، وزال الأطيان التي سدت بحر أشموم الذى كان أحد أسباب النصر، وعمَّر مشهد عين جالوت لما يسره الله من النصر على التتار، والاهتمام بالشواني المنصورة، وهى خيل البحر، وستور الثغور، واهتم بالحراريق وغيرها، وعمارة شواني للثغرين، ونزل بنفسه إلى الصناعة، ورتب ما يجب ترتيبه في مصالح الشواني وأحضر شواني الثغور إلى مصر، وكانت فوق الأربعين قطعة[2]، وعدة كثيرة من الحراريق، والطرايد، والسلالير، ويعتبر تحصين المناطق الحدودية والثغور عاملاً من عوامل تدعيم الدولة الناشئة .

و كان البريد أحد أهم إدارات «ديوان الإنشاء»، إذ كان واسطة الاتصال بين دولة المماليك في «مصر» ونياباتها في الشام وغيرها من الأقاليم[3]، ولم يقتصر المماليك على البريد العادي في إرسال رسائلهم، بل عمدوا إلى استخدام الحمام الزاجل في نقلها، وجعلوا القلعة مركزًا لأبراجه، كما أقاموا مراكز معينة في جهات مختلفة لتكون مراكز للبريد البرى، وخصصوا لكل محطة منها عددًا من الحمام الزاجل، وجعلوا على رعاية شئونه عددًا من الموظفين المتخصصين في ذلك، وكان في كل محطة من هذه المحطات برج أو أكثر ليعيش فيه الحمام الذى سيقوم بنقل الرسائل إلى المحطة التالية، وقد عنى سلاطين المماليك عناية شديدة بما كانت تحمله هذه الحمائم من رسائل، لدرجة أن بعضهم أمر بإدخالها عليه حال وصولها، كما كان بعضهم يترك طعامه أو يستيقظ من نومه في الحال عند وصولها[4] .

ولقد اختلفت أساليب التصدي المملوكي لهذه الأساليب الصليبية الجديدة، ففي ظل عصر الناصر محمد بن قلاوون (٧٠٩هـ- ٧٤١هـ/١٣٠٩-١٣٤١ م) تنوعت السياسة ما بين الفتح والتحالف والدفاع. ارتفعت مكانة مصر في العالم الخارجي وسعت البلاد الإسلامية والمسيحية على السواء لخطب ودها، وأصبحت القاهرة قبلة للمتوددين والزوار من شتى الأرجاء[5]، فمع حملاته المتوالية على مملكة النوبة المسيحية وإقامة ملك مسلم على هذه البلاد، إلى رفضه احتجاجات واتهامات ملك الحبشة باضطهاد مصر لأقباطها وتصديه لتهديداته بتحويل مجرى النيل إلى توطيد العلاقات مع الدولة البيزنطية التي رفضت

---

(١) القلقشندي: صبح الأعشى، ج١٤، ص ٣٧١ .

(٢) المقريزي: المواعظ، ج٣، ص ١٨ .

(٣) القلقشندي: صبح الأعشى، ج٤، ص ١٨-٢٦ .

(٤) ابن عبد الظاهر: الروض، ص ٩٥ ؛ القلقشندي: صبح الأعشى، ج١٤، ص ٣٧١؛ المقريزي: السلوك، ج١، ص ٥٢٧؛ المواعظ، ج٣، ص ٥٩-٦٠ .

(٥) القلقشندي: صبح الاعشى، ج١٣، ص ٣٤٠ .

المشاركة في المشروعات الصليبية الجديدة لخنق دولة المماليك اقتصادياً، ولاستمرار جهود المماليك التي بدأها السلطان الناصر لإجهاض المقاطعة الاقتصادية التي دعت إليها البابوية ضد مصر.. وقبل أن تلجأ مصر إلى سياسات الاحتكار لتدعيم سيطرتها على طرق التجارة، اتجهت إلى منح الكثير من الامتيازات التجارية لتجارة الإفرنج .

موقف الدولة الممالوكية فى مواجهة عمليات القرصنة والإعتداء على الموانئ والسفن

توسعت مصر في العلاقات التجارية والمعاملات الدولية والمعاهدات التي عقدتها مصر المملوكية مع المماليك الأوروبية المتوسطية[1] ضمنت هذه المعاهدات سلامة التجار وممتلكاتهم على نحو متبادل، وذلك بقصد الاحتفاظ بطرق الرقيق مفتوحة إلى بلاد القرم ، وابرمت معاهدات مماثلة مع ارمينيا وصور وعكّا في القرن الثالث عشر الميلادي ، أما أكثر المعاهدات أهمية فكانت تلك التي ضمنت السلامة الشخصية والحماية القنصلية للتجار الاوروبيين الذين كانوا يأتون للتبضع من بلاد المماليك ، فأخذت تدابير لإسكانهم في احياء سالمة وحددت الضرائب والرسوم الجمركية والبنود التجارية وممارسة الاعمال التجارية تحديداً واضحاً ودقيقاً[2] أدت العلاقات السياسية الجيدة وتبادل السفارات إلى ضمان سلامة التجار، فالمماليك عرضوا حماية عامة بموجب تعميم أصدروه سنة ١٢٨٨ م ووزع على نطاق واسع في اليمن والهند والصين ، وكان هذا التعميم وكأنه صورة رسمية للمعاهدات مع الأوروبيين الذين بدورهم سعوا إلى علاقات سياسية واقتصادية حسنة مع المماليك .

وكان تجاوب جيد من جهة أهل الشرق فأرسل حكام سيلان هدايا للمسؤولين المماليك ودعوا إلى اقامة علاقات تجارية بين الفريقين. كما أرسلت حكومة الهند هدايا وسفراء لتوطيد العلاقات الحسنة وتشجيع التجارة [3] وبذلت دولة المماليك جهوداً كبيرة لحماية التجار المسلمين من القراصنة الاوروبيين الذين تكاثرت اعتداءاتهم على التجارة الاسلامية مما حمل المماليك على القاء القبض على التجار الاوروبيين داخل الامبراطورية المملوكية وصادرت بضائعهم وهددت الاماكن المسيحية المقدسة ورجال

---

(١) عاشور: مصر والشّام في عصر الأيوبيين والمماليك، ص ٢٦٨ .

(٢) القلقشندي: صبح الأعشى، ج١٣، ص ٣٤٠ .

(٣) عاشور: العصر المماليكي، ص ٣٠٢ .

الأكليروس بهدف الانتقام من هجمات القراصنة[١] وكثر وصول السفارات إلى مصر من ملوك أوروبا والعالم المسيحي، فوصلت سفارات من بابا الكاثوليك، وملك فرنسا، وملك أرجونة، وإمبراطور القسطنطينية، وإمبراطور الحبشة وغيرهم، ولقد أدت هذه الامتيازات إلى تطوير مهم في العلاقات التجارية حيث كانت التجارة بين مصر وهذه الممالك قبل ذلك تجارة ساحلية أساساً، ويذكر المقريزي[٢] عن الناصر في ذات الصدد: " ولم يعهد في أيام ملك قبله ما عهده في أيامه من مسالمة الأيام له، وعدم حركة الأعداء براً وبحراً وخضوع جميع الملوك له ومهاداتهم إياه " فالممارسات المملوكية على صعيد العلاقات التجارية إنما انطلقت من وضع القوة وأهداف المناورة و ليس الضعف أو الخضوع، كما أنها كانت تخدم وتدعم المصالح السياسية والعسكرية المصرية في مواجهة الأعداء من الشرق ومن الغرب على حد سواء[٣] ، فعلى سبيل المثال كانت الامتيازات التجارية الممنوحة تحرص على المصلحة الاقتصادية، والتي تتمثل في انتعاش ثغور مصر وموانيها مع القوى الأوربية خاصة المدن الإيطالية[٤]، ومن ناحية أخرى، الحصول على الموارد الأولية (الخشب والمعادن والمماليك) اللازمة لإقامة وتدعيم الجيش[٥]، ومن ناحية ثالثة: لم تكن امتيازات التجار مطلقة أو ثابتة ولكن كانت تتعرض لتقلبات عنيفة مع تغير حالة العلاقات المملوكية– الأوروبية، وكان إغلاق الفنادق أو عودتها رهًنا على إرادة سلاطين المماليك وعلى تنفيذ شروطهم لحماية الدولة وأطرافها والسيطرة عليها.[٦]

(١). لابدوس: مدن اسلامية، ص ٢٠٨ .

(٢) السلوك، ج٣، ص ٣١٣ .

(٣) نادية مصطفى: العلاقات الدولية، ج١، ص ١٣٤ .

(٤) عاشور: مصر والشّام في عصر الأيوبيين والمماليك، ص ٢٦٨ .

(٥) قاسم عبده: التاريخ السياسي، ص ٥٩ .

(٦) طقوش: تاريخ المماليك، ص ٧٨ ؛ العبادي: قيادم دولة المماليك، ص ١٦٢.

الفصل الثالث

دور الدولة الاقتصادي في معالجة الأزمات الاقتصادية

الأول: النشاط الزراعي.

الثاني: النشاط الصناعي.

الثالث: النشاط التجاري.

الأول

النشاط الزراعي

(شق الترع، بناء الجسور والسدود، الحفاظ على نهر النيل)

كان للمماليك من القوة الاقتصادية قدراً هاماً لدرجة أن دولتهم بلغت حداً من الثراء لم تؤثر عليه الحروب العديدة التي خاضوها، بالإضافة إلى الإنشاءات والإصلاحات التي قامت بها في طول البلاد وعرضها [١] إذ تعددت مصادر الثروة التي زخرت بها خزائن المماليك ويأتي على رأسها تجارة العبيد، وبالإضافة إلى ضرائب الخراج والجزية والعشور ومال اللُّقطة والغنائم والتركات التي لا وارث لها، كانت هناك مصادر أساسية وثابتة لزيادة موارد الدولة، واعتمدت هذه المصادر على اهتماما المماليك بالزراعة لكونها عصب النظام الإقطاعي ، والصناعة للحاجة إليها في توفير متطلبات الجند في دولة عسكرية ، والتجارة لكونها تدر الأموال الوفيرة مقابل المرور[٢] .

والأحوال الاقتصادية دائماً هى التفسير الحقيقي لما يعانيه أي شعب من الأزمات التي تهدد كيانه وتقلل من فرصه في الصمود أمام أي تهديد يأتيه من الخارج [٣] لذا أدرك سلاطين المماليك أهميَّة الزراعة لِلبلاد في مصر وبلاد الشام، بِوصفها عماد الثروة القوميَّة، فاهتم سلاطين المماليك بالزراعة اهتماماً كبيراً، حيث كانت الزراعة في ذلك الوقت الحرفة الأولى لغالبية السكان والمورد الأول الذي عاش عليه معظم الأهالي. لِذلك عنوا بها عنايةً فائقة، فأنشأوا الجُسُور وشقُّوا الترع لِتوفير مياه الري لِلأراضي التي يتعذَّر وُصُول الماء إليها. ومن أهم السلاطين الذين عنوا بِهذه الناحية السُلطان مُحمَّد بن قلاوون الذي عهد إلى بعض الأمراء بِعمارة كافَّة جُسُور مصر في الوجهين البحري والقبلي والكشف عليها، بل إنَّ هذا السُلطان أشرف بِنفسه على إنشاء بعض الجُسُور، فكان يخرج أحيانًا[٤] مع المُهندسين لِيُوجههم حتَّى يتم بناء الجسر، وقد قُسِّمت الأراضي الزراعيَّة في عصر المماليك إلى أربعة وعشرين قيراطًا اختصَّ السُلطان منها بِأربعة قراريط، والأمراء بِعشرة، وما تبقَّى خُصص لِلأجناد. ورُوعي في ذلك التقسيم

---

(١) القلقشندي : صبح الأعشي ، ج ١٣ ، ص ٣٤٠ .

(٢) عاشور : مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك ، ص ٢٦٧ .

(٣) محمود: قاعدة نربونة ، ص ٥٧ .

(٤) عاشور: مصر والشَّام في عصر الأيوبيين والمماليك ، ص ٢٨٣.

أن تُوزَّع الأرض على هيئة إقطاعات تتفاوت في مساحتها، وفي خُصُوبتها ومقدار ريعها. على أنَّ زمام الأرض فُكَّ وعُدِّل أكثر من مرَّة في عصر المماليك بعد مسح الأراضي الزراعيَّة في البلاد، وهي العمليَّة التي تُعرف باسم «الروك». وقد اشتهر في تاريخ دولة المماليك الروك الحسامي[١] الذي تمَّ في عهد السُلطان لاجين سنة (٦٩٧هـ المُوافقة لِسنة ١٢٩٦م) ، والروك الناصري[٢] الذي تمَّ في عهد السُلطان الناصر مُحمَّد بن قلاوون سنة (٧١٥هـ/١٣١٥م) وقام بِفلاحة الأرض جُمهرة الفلَّاحين، فالفلَّاح ظلَّ في ذلك العصر مربوطًا إلى الأرض التي يفني حياته في خدمتها دون أن يتمتَّع بِنصيبٍ يُذكر من خيراتها. وقد تعرَّض الفلَّاحون لِكثيرٍ من العسف من جانب أمراء المماليك من ناحية ومن جانب الأعراب الذين طغوا عليهم من ناحيةٍ أُخرى، حتَّى خرب مُعظم القُرى لِموت أكثر الفلَّاحين وتشرُّدهم في البلاد[٣]، وكانت الأرض تُزرع مرَّة واحدة في السنة عقب فيضان النيل، لِأنَّ البلاد لم تعرف في ذلك العصر غير ري الحياض، كما أنَّ الفلَّاح لم يعرف من وسائل الزراعة وأدواتها غير الوسائل والأدوات العتيقة التي عُرفت مُنذُ أيَّام الفراعنة .

وعلى ذلك فإنَّهُ يبدو أنَّ محصول الأرض الزراعيَّة في مصر والشام ازداد على عصر سلاطين المماليك نتيجةً لِلعناية بِمرافق الزراعة من جُسُورٍ وترع ومقاييس النيل وغيرها[٤]، أما في الشام فكانت الأرض تزرع على شطرين، يعنى أن الفلاح كان يزرع نصف الأرض ويترك النصف الأخر للعام القادم، وانقسمت المحاصيل الزراعية في عصر المماليك إلى نوعين: المحاصيل الشتوية والمحايل الصيفية، ومن أهم المحاصيل الشتوية القمح والشعير والشوفان والفول والعدس والكرسنة والجلبان والبسيلة، وأما المحاصيل الصيفية من أهمها: الذرة، والدخن والسمسم والمقاتي ، وورق النيل الذ يصبغ به اللون الأزرق، والقرطم (حب العصفر) والقطن[٥] .

كما اشتهرت الشام بزراعة الخضروات والفاكهة مثل البامية والباذنجان والكرنب والقرنبيط والملفوف واللفت والبصل والفجل والثوم والقلقاس والرشاد والكوسا والسلق ، ومن الأشجار المثمرة التي اشتهرت في عصر المماليك، التين والعنب والزيتون، والسفرجل والخوخ والخروب والقراصيا، والجوز

(١) القلقشندي: صبح الأعشى، ج٣، ص ٤٣٦ ؛ المقريزي: السُلوك، ج٢، ص ٢٨٩ .

(٢) القلقشندي: صبح الأعشى، ج٣، ص ٤٣٦ ؛ المقريزي: السُلوك، ج٢، ص ٥٠٤ .

(٣) المقريزي: إغاثة الأُمَّة بِكشف الغمَّة، ص ٣٦ – ٤٠؛ عاشور: المجتمع المصري، ص ٥٨.

(٤) عاشور: العصر المماليكي في مصر والشَّام، ص ٢٧٥.

(٥) قاسم عبده: النيل والمجتمع، ص ٢١.

واللوز والبندق وغيرها ، أيضاً لما كانت الزراعة في بلاد الشام تعتمد اعتماداً كبيراً على مياه الأمطار فإن الحالة الجوية لعبت دوراً مهماً في وفرة المحاصيل أو قلتها، كما لعبت الأوبئة دوراً مهماً في التأثير على الزراعة، بخلاف الزراعة في مصر وطرق الري المتواجدة بها من جسور وترع وقنوات وسواقي وغيرها.

بناء الجسور وشق الترع : -

ولقد قسمت الجسور إلى قسمين:

القسم الأول: كان يعرف بالجسور السلطانية وكان يستفيد منها عامة الناس.

القسم الثاني: الجسور البلدية والتي كانت تخص منطقة معينة أو بلدٍ معين، حسب ما ذكر "القلقشندي"(١). ولشدة اهتمام السلاطين المماليك بالجسور عموماً كانوا يرسلون في كل سنة عدداً من الأمراء إلى مختلف المناطق لعمارة الجسور، وكان المسؤول عن بناء الجسور من الأمراء يسمى "كاشف الجسور"، وكان يرأس عدداً من المهندسين الذين كانوا يعملون مع الكاشف ويشرفون على مجموعة من البناءين والفنيين المختصين ببناء الجسور، وقد بلغ من عناية سلاطين المماليك بالترع والجسور أنهم كانوا يرسلون في كل سنة عدداً من الأمراء إلى مختلف الأعمال لعمارة الجسور، ويعبر عن الأمير منهم باسم كاشف الجسور .

الحفاظ علي نهر النيل : -

أما بالنسبة لنهر النيل اهتم سلاطين المماليك به باعتباره ثروة قومية اهتماماً تفاوت من سلطان لأخر ويجب أن ندرك أن اهتمامهم بنهر النيل كان لزيادة غلة إقطاعتهم فكانوا يعدون المنشآت الخاصة بضبط مياه النيل، وذلك عن طريق اقامة الجسور والترع والقناطر التي كانت تحجز المياه في حالة الفيضان، ويبدو أن مبدأ التعويض لأصحاب الأملاك التي تبنى عليها الجسور كان موجوداً ويتم دفع التعويض لصاحب الأرض أو المكان الذى يقام فيه الجسر(٢) وان لم تكن العناية التي يبذلها السلاطين في هذا الصدد على مستوي واحد في كل الأحيان، فقد تعددت منشآت الظاهر بيبرس(٣) الذى كان من اهتماماته، بحر طناح، وتُرعة الصلاح عوضاً عن تُرعة رمسيس، والمجاري، الكافوري، تُرعة الفضل،

(١) صبح الأعشى، ج٣، ص ٤٤٨ .

(٢) المقريزي: السلوك، ج٣، ص ٨٠ .

(٣) بيبرس: مختار الأخبار، ص ٣٤-٣٥ .

بحر الصمصام، بالقليوبية، بحر السردوس، كان قديماً جسر سهم الدين بالقليوبية، قناطر الديماص بالقرب من المنصورة، قنطرة بحر منية الخنازير، قنطرة بالقصير بأربعة أبواب قنطرة على بحر أمواس بسبعة أبواب، وعمل في الجسر الذى يسلك عليه إلى دمياط، ست عشرة قنطرة، وأمر بإنشاء قرية الظاهر، بالقرب من العبّاسية بوادي السدير، وعمَّر بها جامعاً[١]، وربما يكون ذلك راجعاً لطول فترة حكمه كل مما أتاح له فرصة التحكم في مقدرات الدولة، تجديد خليج الاسكندرية[٢] في سنة ٦٦٦هـ/١٢٦٥م ، ثم زمن الناصر محمد بن قلاوون[٣] عَمَّر أيضاً في هذا المجال الخليج النا صري واستجدت أراضي جديدة كانت بوراً، وزاد الخراج زيادة كبيرة، وتم استصلاح أراضي جديدة واستجدت عليه قرية كبيرة، عرفت باسم الناصرية، وبلغ جملة ما أنشئ على ضفتي هذا الخليج[٤] أكثر من مائة ألف فدان، وحوالى ستمائة ساقية وأربعين قرية، كما سارت فيه المراكب الكبار تحمل المتاجر، وعُمر عليه أكثر من ألف غيط، وصارت حقولاً للقصب والقلقاس والسمسم[٥]، بعد ما كانت سباخاً.

وحين حفر الخليج الناصري[٦] سنة ٧٢٥هـ/١٣٢٥م ، جرت فيه السفن وعُمرت عليه السواقي لرفع المياه، وري الأرض الجديدة، وأُنشئت على ضفافه البساتين والأملاك، وتنافس الناس في السكن هناك، وأنشأوا هناك الحمامات والمساجد والأسواق، وصار هذا الخليج موطن أفراح ومنازل وغير ذلك فكان النيل قوام الحياة المصرية بشتى وجوهها[٧] .

أما عن أهم الحاصلات الزراعة فكان يأتي على رأسها "القمح" و يليه " الكتان" و" قصب السكر" والفاكهة بأنواعها و الخضروات، فكان محصول القمح يفيض عن حاجة البلاد أحياناً فكان السلاطين يمدون بلاد الشام والحجاز والنوبة بمقادير وفيرة منه، وكذلك الكتان كان من أهم مزروعات مصر وبلاد الشام في عصر المماليك وكانت تُصَّدر كميات كبيرة منه من المنسوجات الكتانية إلى البلاد المجاورة، واشتهرت مصر أيضاً بزراعة قصب السكر لا سيما في مناطق ملوي وقفط ونجع حمادي هذا

---

(١) المقريزي: السلوك، ج٢، ص ٤٨ .

(٢)المقريزي: السلوك، ج٢، ٤٧٥ .

(٣) ابن تغري بردي: النجوم، ج٩، ص ١٩٠.

(٤) المقريزي: السلوك، ج٣، ص ٨٠ .

(٥) ابن تغري بردي: النجوم، ج٩، ص ١٧٨ .

(٦)المقريزي: السلوك، ج٢، ص ٤٧٥ .

(٧) ابن تغري بردي: النجوم، ج٩، ص ١٨٢ .

بالإضافة إلى أنواع الخضروات لسد حاجة السوق المحلية هذا كله فضلاً عن الزهور والرياحين التي زرعت في الحدائق والبساتين[١]، وكان يزرع بأرض مصر الفواكه كالرمان والتفاح والموز والأجاص والخوخ والتين والعنب والتوت والنبق والبرقوق والقراصيا والسفرجل والكمثري والليمون والتفاح الذي يؤكل بغير سكر لقلة حمضه ولذة طعمه، وعلي ذلك زادت المحاصيل الزراعية وزاد انتاجها وتنوعت في كافة أنحاء البلاد مما أضاف نمواً ظاهراً في الحياة الاقتصادية للدولة في ذلك العصر[٢].

وبالإضافة إلى الثروة الزراعية اعتني سلاطين المماليك بالثروة الحيوانية فأكثروا من إنتاج الأغنام وجلب الأنواع الممتازة منها لتربيتها حتى ازداد عدد المواشي وارتفعت سلالتها، ويقال أن السلطان الناصر محمد بن قلاوون قام بمشروع هام للعناية بالثروة الحيوانية، اذ قام ببناء حظيرة على قطعة ارض بجوار قلعة الجبل وأجري إليها الماء من القلعة وأنشاء بها بيوتاً للدواجن وأخرى للأغنام والمواشي، ثم أودع بها ألفي رأس من الضأن بعث في طلبها من بلاد الصعيد وأربعة آلاف من الوجه البحري[٣] فضلاً عن عدد كبير من البقر، هذا إلى أن عناية الناصر محمد بإنتاج المواشي والأغنام لم تقتصر على المناطق القريبة من عاصمته، وإنما صار يتتبع مراعيها في عيذاب وقوص وغيرهما من أنحاء البلاد، كما كان يبعث في طلب الأغنام الممتازة من بلاد النوبة واليمن مما جعل أكثر البلاد في زيادة لثرواتهم من جراء هذا التقدم الاقتصادي[٤].

أما الضرائب على المحاصيل فتنوعت في ذلك الوقت منها ما كان يُدفع كل عام وتتمثل في أنواع المحاصيل الزراعية، ومنها ما كان يُدفع كل شهر على مناطق الثروة السمكية، واستمرت إلى نهاية ذلك العصر، ومنها الضرائب الهلالية التي كانت تفرض على أقصاب السكر، وجدير بالذكر أن كثيراً من الزراعات كانت تقوم عليها كثير من الصناعات من عصير الزيت من الزيتون وكثرت المعاصر في المواد الغذائية [٥].

---

(١)المقريزي: المواعظ، ج٣، ص ٣٠ .

(٢) المقريزي: المواعظ، ج٣، ص ٢٨ .

(٣) المقريزي: السلوك، ج٣، ص ٣٠٨؛ المواعظ، ج٣، ص ١٠٥ .

(٤) المقريزي: الخطط، ج١، ص ٢٠٣ ؛ سرور: دولة بنى قلاوون، ص ٢٩٤ ؛ عاشور: العصر المماليكي، ص ٢٨٧ .

(٥) ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص٢٥١ ؛ شيخ الربوة: نخبة الدهر، ص ٢٠٠ ؛ النويري: نهاية الأرب، ج٨، ص ٢٦٢؛ القلقشندي: صبح الأعشى، ج٤، ص ١٨٨؛ قاسم: التاريخ السياسي، ص ٦١ .

وبناء على ذلك يمكن القول أن الزراعة في مصر والشام كانت ذات خيرات كثيرة من الثمار والأشجار والحبوب ، وكثرة الإنتاج وتنوعه والذي كان يدفع الدولة في معالجة المجاعات ويساعد على تفادي الأزمات في كل وقت، كما أدي الازدهار الزراعي الأثر الكبير في التوسع نحو الإنتاج الصناعي من أجل استثمار الفائض من الإنتاج الزراعي وظهور العديد من الصناعات التي كان من أهمها صناعة السكر والزيوت وطحن الحبوب ، و صناعة العطور، والمنسوجات وغيرها، فالموارد الزراعية كانت من الموارد الأساسية لدعم الاقتصاد المملوكي والمساهمة في تخفيف أعباء الدولة كتجهيز الجيش ورواتب الجنود وغيرها، كما أن الكثير من الأراضي الزراعية كانت أوقافاً على كثير من المؤسسات الاجتماعية والخيرية وهي الوسيلة التي لجأ إليها الفلاحين للتخلص من دفع الضرائب ، وكانت عوناً لكثير من الفقراء والمحتاجين والأيتام(١) .

---

(١) المقريزي: الخطط، ج٣، ص ٤٥ – ٤٦ ؛ ابن تغري: النجوم، ج٧، ص ١٢١.

الثاني

النشاط الصناعي

(توفير المواد الأولية والصناعات الحربية وكثرة المهن والحرف)

شهدت مصر مع بداية عصر سلاطين المماليك نمواً سكانياً، يرجع إلى بعيد أن مصر عاشت فترة سلام امتدت أكثر من مائة عام ، وفي عصر المماليك البحرية الذى يمثل خط الصعود في تاريخ المماليك ، كان النظام راسخاً ، وبمثابة الدرع الواقي لهذا النظام الذي تم تشيده في مصر والشام على أنقاض الدولة الأيوبية ، ومنذ بداية ذلك العصر، برعت الدولة في العناية بكافة الصناعات والحرف، التي كان الهدف منها الرخاء والنمو حتى صارت المعقل الأخير للحضارة الإسلامية [١] على حين كان يتعرض العالم الإسلامي في الشرق والغرب لضربات موجعة من التتر المسيحي غرب أوربا ، وتعتبر الحرف والصناعات في المجتمع المصري عامة من المؤشرات الدالة على طبيعة هذا المجتمع واتجاهاته ، كما أنها تكشف من ناحية اخرى ، عن حال هذا المجتمع من حيث درجة ثرائه ، ورفاهية أبناءه ، أو العكس ، وبقدر ما تتعدد الحرف والصناعات وتتنوع في مجتمع ما، بقدر ما يتضح لنا مدى التطور والرقي الذى وصل إليه هذا المجتمع [٢] .

توفير المواد الأولية والصناعات الحربية : -

اعتني المماليك في مصر وبلاد الشام، بصناعة المنسوجات، ونشطوا في اكتشاف واستخراج المعادن، التي كان من أهمها: «الزمرد» و «الشب» و «النطرون»، فكان «الشب» يُستخرج من الوجه القبلي والواحات، ويُحمل إلى «قوص» أو إلى «أسيوط» و «أخميم» و «البهنسا»، ثم ينقل منها عن طريق النيل إلى «الإسكندرية» وفيها يباع للأوربيين، وخصصت الحكومة ثلث ثمنه لدفع رواتب الأمراء، ولتوفير بعض احتياجات الجيش الكثيرة[٣] ' لكثرة حروبهم في ذلك الوقت ، كما برعوا أيضاً في صناعة الأسلحة والدروع المتخذة من الحديد الصلب ، واشتهرت بصناعة السفن الحربية التي تكون منها

---

(١) قاسم عبده: التاريخ الساسي، ص ٥٧؛ لابدوس: مدن اسلامية، ص ١٠٥ .

(٢) المقريزي : المواعظ ، ج٢، ص ٥٧ .

(٣) قاسم عبده: التاريخ السياسي، ص ٥٩ .

الأسطول المصري ، لرد غارات الصليبين على سواحل مصر والشام، وصناعة الآلات الحربية ، وكانت صناعة السفن قائمة على السفن الحربية التي تنشأ لغزو العدو، وتشحن بالسلاح والآلات الحربية والمقاتلة ، فتمر من ثغر الاسكندرية وثغر دمياط وتنيس والفرما ، إلى جهاد أعداء الله من الروم والفرنج، وكانت هذه المراكب يقال لها الأسطول، أما المراكب النيلية فإنها تنشأ لتمر في النيل ، حاملة حاصلات البلاد لبعضها ، صاعدة إلى أعلى الصعيد ، ومنحدرة إلى أسفل الأرض ، لحمل الغلال واحتياجات الحياة[١] ، وتقدمت الصناعات بالنقش عليها والزخرفة ، وكان ذلك يدل على مهارة الصناع في ذلك العصر، وتميزوا في صناعة العطور، والزهور وكان للمسلمين ولع شديد بالعطور، فقد استعملوا المسك والعنبر والزعفران ، وكان أهل الشرق يهتمون بكثرة للروائح والعطور، أيضاً اشتهروا في صناعة تجفيف المواد الغذائية وتصديرها[٢] .

وتدلُّ جميع الشواهد على أنَّ الصناعة كان لها المقام الأوَّل في النشاط الاقتصادي في العصر المملوكي ، وأنها كانت المصدر الأوَّل لِلثروة الهائلة التي عبَّرت عن نفسها في أعمال المماليك وحياتهم وما تركوه من آثارٍ ومُنشآتٍ فخمة ، وما احتوته قصور السلاطين من مظاهر الغنى والترف والنعيم[٣] .

كثرة المهن والحرف الصناعية :-

وفي مرحلة بناء الدولة المملوكية وتطوير نموها كانت مظاهر الحياة تنبئ عن الفتوة والحيوية الدافئة التي تعتبر دائما، من سمات مراحل البناء والتقدم[٤] ومع ظروف الاستقرار والأمن التي كفلتها الدولة في عصرها الأول، انعكست أثارهما في حال من الرواج الاقتصادي والازدهار الذى تجلى من خلال أسواق البلاد التي كانت تنعم بكافة أصناف البضائع الأساسية والكمالية، التي تمور بالحيوية والنشاط الذى كشف عن مدى رخاء ذلك المجتمع، وتنوع الحرف والصناعات، ومتانة البناء الاجتماعي للدولة، وجعل بعض هذه الحرف والصناعات مرتبطة بالناس العاديين على حين ارتبطت حرف أخرى

(١) المقريزي: المواعظ، ج٣، ص ١٨ .
(٢) القلقشندي: ج٤، ص ٨٧ .
(٣)، المقريزي: الخطط، ج٣، ص ٥٧ .
(٤)، قاسم عبده، التاريخ السياسي، ص١٣٣ .

بالحكام الذين استأثروا بالشطر الأكبر من ثروة البلاد ومواردها ، وهكذا زخرت القاهرة بالأسواق[١] التي احتوت مختلف أنواع البضائع ، واشتبهت كافة هذه الأسواق في كافة المدن المصرية من حيث نظامها ، وازدهرت حرف وصناعات في خدمة الأغراض الاستهلاكية اليومية وأخرى ارتبطت بحياة القصور وساكنيها المهتمين باقتناء التحف ومظاهر الرفاهية ، وبناء المباني الفخمة ، ذلك إلى جانب اهتمامهم بزينة ملابسهم وأسلحتهم وخيولهم وحرصهم الزائد على مظاهر الأبهة والعظمة في مواكبهم[٢] ، فاهتم سلاطين المماليك في دولتهم بالصناعة والعمل على ترقيتها وحرصهم على سد حاجة الشعب منها وكان مما سهل عليهم مهمتهم نبوغ كثير من المصريين في مختلف الصناعات .

وقد ظفرت دولة المماليك بمركز هام في صناعة المنسوجات على اختلاف أنواعها حتى أخذت شهرة عالمية في هذا المجال ، ومنها المنسوجات الحريرية التي اشتهرت ومنها ما كان يسمي باسم مدنها ، وكان لسلاطين المماليك مصانع خاصة تسمي دور الطراز ، تصنع فيها الخُلع التي تُمنح لكبار الدولة وموظفيها ، وينقش عليها أسماء السلاطين والقابهم ، ويتبين مدى تقدم صناعة المنسوجات والفرش والبسط ما أورده المقريزي[٣] ، عند كلامه على قصر الأشرفية الذى بناه الأشرف خليل سنة ٦٩٢هـ/١٣٩٣م ، أنه لما تم بناء هذا القصر احتفل الأشرف بختان أخيه الناصر وابن أخيه موسى بن الصالح على بن قلاوون ، "وبلغت النفقة في عمل السماط والمشروب والأقبية والطراز والسروج وثياب النساء ثلاثمائة ألف دينار " وعندما فرغ السلطان الصالح عماد الدين اسماعيل بن محمد بن قلاوون من بناء قصره المسمى "الدهيشة "سنة ٧٤٥هـ /١٣٤٤م عمل له من الفرش والبسط والآلات ما يجل وصفه " وكذلك كانت الحال بالنسبة لقاعة البيسرية التي أنشأها السلطان الملك الناصر حسن بن محمد بن قلاوون سنة ٧٦١هـ ١٣٦٠م فقد عمل لها من الفرش والبسط مالا تدخل قيمته تحت حصر .

وكان للمصريين مهارة كبيرة في زخرفة المنقوشات وتشييد المباني والعمارة ، وكانوا يُحَلُونها بالذهب والفضة ومنها أبواب بعض المساجد وقصور السلاطين [٤] ، وكان من طبيعة الحكام العرب أن يحيون حياة الجند ويتفرغون للجهاد ، ومعنى ذلك أن الحياة المدنية لم تقم على أكتاف هؤلاء الجند فقط ، وإنما

(١) قاسم: التاريخ السياسى، ص ٦١-٦٣ .

(٢) قاسم عبده: التاريخ السياسي، ص١٣٥ .

(٣) السلوك، ج ٢، ص ٢٤٢؛ المواعظ و الاعتبار، ج٣، ص ٦٠- ٦١.

(٤) المقريزي: الخطط، ج٢، ص ٥٧ .

قامت على أكتاف جماعة من الصناع والحرفيين والتجار الوافدين على المدن وظواهرها تخدم الجند وتقضي حوائجهم [١] .

فاهتموا بالفنون والعمارة ، وقاموا ببناء المساجد ، والحمامات والأسبلة ، والحوانيت ، والمدارس ، والأضرحة ، والبيمارستانات وغيرها ، وتجديدها وعمارتها ، كما اشتهروا في الطب وبناء البيمارستانات [٢] واكتشفوا كثيراً من العقاقير، والأدوية ، وكان ذلك بفضل العلماء المسلمين ، وتشجيع السلاطين ورعايتهم للعلماء ، وذلك مما يدل على تنوع الحرف والصناعات والمهن التي اشتهرت في دولة المماليك ، وكانت من أهم أسباب التقدم الحضاري ، وجعل عصر المماليك ، يطلق عليه العصر الذهبي ، لما اهتم به سلاطين المماليك ، من زراعة وصناعة وتجارة وتدوين وتأليف وعلوم ورجال الدين ، وغير ذلك من المنشأت التي ساهمت في اتساع حقول الصناعة كالأسواق ، والخانقاوات والحمامات ، والفنادق[٣]، والتحكم بزمام الأمور، والتحكم في النظام الاداري ، قيام كل وظيفة بعملها ، ومباشرة السلاطين للمسئولين بل لجميع أمور الدولة عامة ، وهذا ما يعطينا فكرة واضحة عن مدى التقدم وجمال الفنون في الحكم والإدارة في عصر سلاطين المماليك .

(١) محمود: قاعدة نربونة، ص ٥٥ .

(٢) ابن تغري: النجوم، ج٧ ص ١٩٦ .

(٣) قاسم عبده: التاريخ السياسي، ص ٦٠ ؛ لابدوس: مدن اسلامية، ص ١٠٥ .

الثالث

النشاط التجاري

(الموقع الجغرافي للدولة، الإهتمام بالأسواق ، حماية التجار من القراصنة)

ويرجع السبب في النشاط التجاري الذي تميَّزت به مصر في عصر المماليك إلى انسداد مُعظم طُرق التجارة العالميَّة بين الشرق والغرب مُنذُ القرن الثالث عشر الميلاديّ ، بِسبب حركة المغول التوسُّعيَّة؛ وبذلك **لم** يبقَ آمناً إلا طريق البحر الأحمر ومصر [١] ، ممَّا جعل الدولة المملوكيَّة تقومُ في ذلك العصر بِدور الوسيط بين الشرق والغرب[٢] ، وفي البداية كانت الحركة التجاريَّة ضعيفة بِسبب انتشار روح العداء والكراهيَّة بين المُسلمين والأوروبيين نتيجة الحُرُوب الصليبيَّة ، لكن ما أن خفَّت حدَّة الكراهيَّة هذه، وتوقفت الغزوات والغارات ، فتح المماليك أبواب ثُغُور الساحل لِلتجارة والحُجَّاج النصارى ، فانتعشت الحالة الاقتصاديَّة ، حتَّى أنَّ بعض المُدن كبرت وارتفع عدد سُكَّانها نتيجة هذه السياسة من بضع مئات إلى نحو عشرة آلاف نسمة[٣] .

وقد أدرك سلاطين المماليك ما يُمكن أن تعود به عليهم التجارة الخارجيَّة من ثروة ، فاهتموا بتنشيطها وتأمين مسالكها ، وإنشاء المُؤسسات اللازمة لِلتُجَّار كالفنادق والخانات والوكالات والقياسر والأسواق وغيرها ، كذلك حرصوا على التودد إلى قوى البحر الأحمر من ناحية ، وإلى التُجَّار الأوروبيين المُترددين على الإسكندريَّة ودُمياط من ناحيةٍ أُخرى ، وقد أمر السُلطان قلاوون نُوَّابه أن يُحسنوا مُعاملة التُجَّار ويُلاطفونهم ويتوددون إليهم ، ولا يجبون منهم سوى الحُقُوق السُلطانيَّة[٤] ، كذلك كتب السُلطان قلاوون منشورًا إلى التُجَّار الذين يفدون إلى مصر والشَّام من الشرق والغرب ، يصفُ لهم محاسن البلاد ويُغريهم على القُدُوم إليها بِمتاجرهم ويعدهم بِحُسن المُعاملة والإحسان إليهم[٥] ، ويُفهم من المراجع المُعاصرة أنه خُصِّصت لِكُل جالية من التُجَّار الأوروبيين فنادق خاصَّة بهم في الثُغُور والمراكز التجاريَّة

---

(١) الحريري: الدولة الرستمية، ص ١٩٢-١٩٣ .

(٢) عاشور: العصر المماليكي، ص ٢٩٨ – ٢٩٩ .

(٣) عاشور: مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك، ص ٢٦٧؛ جحا: البعلبكي: بهيج: المُصوَّر في التاريخ، ج٦، ص١١١.

(٤) ابن الفُرات: تاريخ، ج٧، ص ١٩٨– ٢٠٠ ؛ عاشور: مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك، ص ٢٦٧.

(٥) القلقشندي: صبح الأعشي، ج١٣، ص ٣٤٠ – ٣٤١ .

الكُبرى في مصر والشَّام ، ورُتِّبت أُمُور هذه الفنادق بحيث يتمتَّع التُجَّار الأوروبيون النازلين فيها بِأكبر قسط من الحُريَّة والتسهيلات[١] ، ومما يدل على النشاط التجاري في عصر سلاطين المماليك انتعاش ثُغُور الدولة وموانيها ، مثل أسوان بِالنسبة لِتجارة النوبة ، وعيذاب بِالنسبة لِتجارة الصين والهند واليمن ، ودُمياط والإسكندريَّة وطرابُلس وبيروت وصيدا بِالنسبة لِلتجارة مع القوى الأوروبية ، وخاصَّةً المُدن الإيطاليَّة[٢] ، وأيضاً بلاد المغرب والاندلس والتبادل التجاري وتبادل الهدايا إبان حكم السلطان الناصر حسن [٣] وما يُقال عن التجارة الخارجيَّة يُمكن تطبيقه على التجارة الداخليَّة .

الإهتمام بالأسواق وتوسيع الميدان التجاري :-

كانت القاهرة والمدن الكبرى تفيض بالنشاط التجاري ، إذ عنى المماليك بتجميلها ونظافتها، وامتازت بأسواقها العديدة المليئة، بأصناف البضائع، والتي خضعت لرقابة المحتسب ، وهو ذو رأى وصرامة وإحكام في مهامه ، ويعلم أمور الدين ، كما تنوعت الأسواق منها العامة ، ومنها المؤقتة وتخصصت في أنواع البضائع ، فكان منها لسلع الحياة اليومية ، ومنها لبيع الأسلحة ومعدات الجيش ولوازمه، وأكثروا أيضاً من الفنادق والخانات والوكالات والأسبلة والحمامات ، والبيمارستانات وغيرها ، وكانت القاهرة تعيش في مرح ، والخروج إلى الحدائق ، ووسائل التسلية[٤] .

أيضاً اشتهرت مُدن الشَّام ومصر الكُبرى بِأسواقها الحافلة بِالبضائع ، وإحكام الرقابة عليها من جانب المُحتسبين لِمنع التلاعب في الأسعار أو الأوزان أو أصناف البضاعة[٥] ، وكانت التجارة – بحق – أعظم مصادر الثروة في العهد المملوكي ، إذ قاموا بتشجيعها ، وعقدوا الاتفاقات التجارية مع إمبراطور «القسطنطينية» ، وملوك «إسبانيا» ، وأمراء «نابلس» ، و «جنوة » ، و «البندقية» وسلاجقة «آسيا الصغرى» ، وكاد المماليك أن يحتكروا تجارة «الهند» – خاصة التوابل – بالاتفاق مع أمراء الموانئ الإيطالية ، فكان لذلك أكبر الأثر في نمو ثروات البلاد وزيادتها ، خاصة بعد أن بسط المماليك سلطانهم على «مكة» و «جدة» ، وأصبحت «مكة» من أشهر الأسواق التجارية في الشرق ، فانتعشت حالة

---

(١) عاشور: مصر والشَّام في عصر الأيوبيين والمماليك، ص ٢٦٨ .

(٢) عاشور: العصر المماليكي في مصر والشَّام. ص ٢٩٠ .

(٣) الحريري: تاريخ المغرب الاسلامي والاندلس، ص ٢٠٥ .

(٤) ابن تغري: النجوم، ج٩، ص ١٣٧-١٣٨؛ ج٥ ص ٤١.

(٥) ابن الفرات: تاريخ، ج٧، ص ٢١٠ ؛ المقريزي: المواعظ والاعتبار، ج٣، ص ٩٢ .

البلاد الاقتصادية وازدهرت[١] ، ويدل على ذلك كثرة الإنشاءات المعمارية والتجهيزات الحربية في ذلك الحين ، ويتضح أن خلقت بنية المجتمع المديني وتفوق النظام المملوكي في حياة المدن الاقتصادية صورة الاعمال السياسية التي كانت المدن تُحكم بموجبها ، والمجتمعات المدنية ، بحكم اعتمادها على النخبة المملوكية للدفاع عنها وتأمين المواد الضرورية من غذاء وغيره ، وتوفير البقاء للأسس الطبيعية المدنية ، كانت تعمل ضمن الإطار الذي أحدثه التصرف المملوكي ، واستجابة لهذه الاسس والسلطات جر "الاعيان" إلى المساهمة في حكم مشترك مع المماليك ، وسيطرة مشتركة على المجتمع ، وكان هؤلاء الأعيان من التجار الكبار في المدن الاسلامية ، وقد تمتعوا بنفوذ كبير واحتلوا مراكز اجتماعية بارزة[٢] ، فقد كانوا تُجار جملة وسماسرة وأضحوا تُجاراً عالميين ووسطاء في بيع السلع الكمالية ، وفي احيان كثيرة كانوا انداداً للأمراء ، وكان بعضهم يتمتع بمستوى معيشي خيالي ، ولم يكن سُكناهم في القصور الفخمة أمراً غير اعتيادي .

أما رئيس تُجار "المكارم" برهان الدين المحلي المتوفي في سنة (٨٠٥هـ/١٤٠٣ م) فكان يملك قصراً بلغ ثمنه ٥٠ ألف دينار[٣] ، وفيما خلا قصور تنكز الذي حكم دمشق بين سنتي(٧١١- ٨٠٥هـ/١٣١٢ – ١٣٤٠ م) ، فقليلة هي الممتلكات المملوكية المعروفة بانها كانت تساوي أكثر من ذلك ، لقد رعى التجار الاغنياء ، كما فعل الحكام أيضاً ، الحرف الكمالية واستمتعوا باقتناء واستعمال الأواني الفضية والنحاسية والأخشاب الثمينة والأجواخ الأنيقة[٤] ، ووظف التجار فائض ثرواتهم في شراء ممتلكات وقيساريات وحوانيت ومعاصر وحمامات وخانات ، وهذا ما جعل منهم قوة اجتماعية هائلة .

وأظهرت سجلات الأوقاف أن العديدين منهم تملك الأراضي والكروم والبساتين والحدائق ، وفي مدينة دمشق كان عدد كبير من التجار الأثرياء يسكنون في قرى قريبة من المدينة ، وكانت الملكيات الأصغر مقتناه على نطاق واسع ، إلى درجة كان معها بالإمكان إيجاد سوق منتظمة لها سماسرتها وشهودها يساعدون في تدبير المبادلات التجارية ، وتحولت ثروة التجار نفسها إلى قوة اجتماعية من خلال امتلاك

(١) عاشور: العصر المماليكى، ص ٢٧٨ .
(٢) لابدوس: مدن اسلامية، ص١٩٧ .
(٣) عاشور: المجتمع المصري، ص ٤٢ .
(٤) المقريزي: الخطط، ج٣، ص ٥٧ .

العبيد[١] وبعض هؤلاء العبيد كانوا خدماً والبعض الآخر عملوا كعملاء في الأعمال التجارية ، خاصة في تجارة التوابل ، وكان تجار العبيد غالباً ما يحتفظون بعبيد يقومون على خدمتهم الشخصية قبل أن يبيعونهم من الأمراء[٢]، استمد التجار الأثرياء شهرتهم بفضل ثرواتهم ، وبفضل الدور الذي لعبوه في حياة المدن الاقتصادية ، فقد توسط هؤلاء التجار في بعض المبادلات في المواد الخام ، بين الإقتصاد المنزلي للدولة وبين الإقتصاد المديني العام ، وعملوا في توزيع الحبوب بين الريف والمدينة ، متاجرين بالحبوب الحرة أو عاملين كسماسرة لحبوب الأمراء ، كذلك عمل هؤلاء التجار كوسطاء في التجارة الخارجية ، بين امبراطورية المماليك وجنوبي غربي آسيا وتركيا وإيران وأوروبا ، ووجد التجار أنفسهم في كل هذه النشاطات مرتبطين بشكل حميم بالدولة المملوكية"[٣] ، فلقد دفعتهم أهمية اقتصاد الدولة إلى التعامل مع النظام ، وبما أن القسم الأكبر من الأراضي والأملاك المدنية والمواد الخام في أيدي الأمراء والسلاطين ، وبما أن قدراً كبيراً من القوة الشرائية في المدن كان يتولد بفعل وجود العائلات المملوكية الكبيرة المستهلكة للمنتجات الكمالية والأطعمة والقماش والحيوانات والأثاث والزخارف والأواني ، لذلك إنغمس التجار في الإتجار بهذه المواد والكماليات الرائجة ، وبوصفهم من متعهدي السلع الرئيسية والسلع الكمالية ، وكانوا يقومون بشكل منتظم على خدمة العائلات المملوكية[٤].

حماية التجار من القراصنة:

ضمنت المعاهدات التي عقدها المماليك مع الامبراطورية البيزنطية سلامة التجار وممتلكاتهم على نحو متبادل ، وذلك بقصد الاحتفاظ بطرق الرقيق مفتوحة إلى بلاد القرم ، وأبرمت معاهدات مماثلة مع أرمينيا وصور وعكّا في القرن الثالث عشر الميلادي ، أما أكثر المعاهدات أهمية فكانت تلك التي ضمنت السلامة الشخصية والحماية القنصلية للتجار الأوروبيين الذين كانوا يأتون للتبضع من بلاد

(١) ايرا لابدوس: مدن اسلامية، ص ٢٠٠ .
(٢) ابن تغري بردي: النجوم، ج٧، ص ١٨٢ .
(٣) المقريزي: المواعظ، ص ١٠٢ .
(٤) لابدوس: مدن اسلامية، ص ٢٠١ .

المماليك ، فأخذت تدابير لإسكانهم في أحياء سالمة وحددت الضرائب والرسوم الجمركية والبنود التجارية وممارسة الاعمال التجارية تحديداً واضحاً ودقيقاً[1].

وأدت العلاقات السياسية الجيدة وتبادل السفارات إلى ضمان سلامة التجار ، فالمماليك عرضوا حماية عامة بموجب تعميم أصدروه سنة ١٢٨٨م ، ووزع على نطاق واسع في اليمن والهند والصين ، وكان هذا التعميم وكأنه صورة رسمية للمعاهدات مع الأوروبيين الذين بدورهم سعوا إلى علاقات سياسية واقتصادية حسنة مع المماليك ، وكان تجاوب جيد من جهة أهل الشرق فأرسل حكام سيلان هدايا للمسؤولين المماليك ودعوا إلى إقامة علاقات تجارية بين الفريقين ، كما أرسلت حكومة الهند هدايا وسفراء لتوطيد العلاقات الحسنة وتشجيع التجارة[2] ، غير أن البعثة الرسمية الأولى التي أرسلتها الهند سنة ٧٣٠هـ /١٣٣٠ م وقعت في الأسر واغتيلت في اليمن ، أما البعثة الثانية فوصلت بأمان في السنة التالية وتلتها بعثات أخرى. وبذلت دولة المماليك جهوداً كبيرة لحماية التجار المسلمين من القراصنة الأوروبيين الذين تكاثرت اعتداءاتهم على التجارة الاسلامية مما حمل المماليك على القاء القبض على التجار الأوروبيين داخل الامبراطورية المملوكية وصادرت بضائعهم وهددت الأماكن المسيحية المقدسة ورجال الأكليروس بهدف الانتقام من هجمات القراصنة[3] ، ومن جهة ثانية بذلت جهوداً كبيرة لتشجيع الدول الأوروبية الراغبة في الإتجار مع الشرق لشن الحرب على قواعد القراصنة .

وكان على المماليك أنفسهم في النهاية أن يذهبوا إلى الحرب في البحار ، وعلى اليابسة أغار المماليك على البلدان والقرى التي كانت تعترض القوافل التجارية البرية وحولت اليمن بكامله إلى إقطاعية بهدف حماية تجارة التوابل ، واعتماد التُجار الكُلي على سياسات الدولة كان مميزاً ، وعلى الرغم من أن العمل على تهدئة الامبراطورية كان جزءاً من الأهداف المملوكية العامة ، فقد كان من الضروري أن يعار انتباه خاص إلى حاجات التجارة ، فكان على الطرق أن تظل متحررة من البدو وقطاع الطرق[4] ،

وكان لا بد من تجنيد البدو لحماية القوافل عبر الصحراء وأن يضمن الأمن على طرقات البريد والحج والتجارة ، وكان هؤلاء البدو يتقاضون أتاوات من التجار أو رواتب من الدولة لقاء هذه الخدمات ، ولم

---

(١) القلقشندي: صبح الأعشى، ج١٣، ص ٣٤٠ .

(٢) عاشور: العصر المماليكى، ص ٣٠٢ .

(٣) لا بدوس: مدن اسلامية، ص ٢٠٨ .

(٤) عاشور: العصر المماليكى، ص ٢٩٧ .

توفر الدولة الحماية للتجار فحسب ، بل كانت تقدم لهم مساعدات مهمة من قبل دوائر البريد الرسمية والخانات التي يجري فيها ابدال خيول القوافل على طول الطريق الرئيسية التي كانت مدعومة من الدولة أو من الأوقاف .

وكان التجار يجدون المأوى والمؤنة [١] غير أن هذه المساعدات والخدمات الرسمية ساعدت على توسيع نطاق التجارة وتلخص وضعية تُجار الكارم (تجار التوابل) ، فهؤلاء التجار كانوا يجرون عملياتهم في البحر الأحمر والمحيط الهندي ، جالبين التوابل إلى مصر لبيعها من التجار الايطاليين وتجار حوض البحر المتوسط ، وقد جعلتهم هذه التجارة المربحة جداً النخبة في طبقة التجار النبلاء والموظفين الكبار لدى الدولة ، فقبل الكثير من المماليك أن يضعوا استثماراتهم في أيدي الكارميين ، وكان لهؤلاء النبلاء الجدد علاقات حميمة مع رجال الدولة بدءاً من السلطان والنخبة الحاكمة ، حتى أنهم كانوا يدفعون النظام إلى بيعهم الفائض من مخزون الكارم (التوابل) الحكومي بأسعار مخفضة ، وبما أن الدولة كانت بحاجة ماسة إلى المال فأنها لم تتردد بالتجاوب مع رغبة النبلاء[٢] .

استأنفت الدولة جهودها الدبلوماسية لحماية التجارة التي كانت لها فيها حصة المضارب ، ودخول الدولة على خط التجارة وبذل ما كانت بين أيديها من قوة عسكرية لحماية التجارة من القراصنة والحكام الصغار على طول شاطئ المحيط الهندي وشواطئ البحر الأحمر ، وفي الوقت نفسه بدلت سياستها التي كانت قائمة على التدخل المباشر للمشاركة الفعلية في التجارة ، بيعاً وشراء[٣] ، وأطلقت أيدي الكارميين وأوقفت تنافسها الذي ساد في أواخر القرن الرابع عشر وبواكير القرن الخامس عشر، مقابل اتخاذ تدابير تمنع الفوضى في التجارة والتملص من دفع الضرائب ، فعينت الدولة مراقبين ليشرفوا على موانئ البحر الأحمر وعنابر الكارميين في القاهرة والإسكندرية ودمشق ، وكان يطلق على هؤلاء المراقبين الرسميين اسم ناظر الكارم ، وكان على رأس التجار أنفسهم رؤساء يؤمنون الارتباط بينهم وبين الدولة من أجل حفظ الأمن وتحقيق الخدمات الدبلوماسية والمصرفية .

---

(١) القلقشندي: صبح الأعشى، ص ٣٤٠ -٣٤١ .

(٢) عاشور: العصر المماليكى، ص، ٣٢٤ .

(٣) لابدوس: مدن اسلامية، ص ٩٧-١٠١ .

ونظراً لذلك كان هؤلاء المراقبين يختارون من الكارميين ، وقد نجحوا في استعادة سلطة النظام وتطبيقه بعد أن أدخلوا تحسينات على مراقبة تجارة التوابل[١] ، وأضحى المراقبون فئة منظمة يقتصر عملها على المراقبة ، وتنظيم العلاقات المالية بين جميع الفرقاء ، ولم يتدخلوا في احتكار التجارة ، بل سمحوا للأفراد من كل الفئات ان يشتركوا فيها بعد أن يتقدموا بطلبات رسمية ، ولم يكن المماليك مستهلكين فحسب ، بل كانوا أيضاً مستثمرين في حقل التجارة [٢] .

وقد أظهر تاريخ تلك الحقبة أن المماليك وظفوا تجاراً أو عقدوا مشاركات مع تجار[٣] ليتاجروا بالنيابة عنهم كما نهضوا بالتجارة الخارجية، بيعاً وشراء ، وأرسلوا بعثات تجارية لشراء التوابل منحت الدولة وعائلات السلطان التجار توظيفاً مباشراً بسبب نشاطاتهم الصناعية والتجارية الواسعة ، وكان لوزير مالية السلطان الخاص متاجِره أو مكاتِبه التجارية في القاهرة والاسكندرية التي تخزن المواد لإستخدامها في الازمات، وكان مدراء هذه المكاتب في الغالب من الأمراء أو الموظفين الكبار المحترفين، غير أن التجار كانوا أحياناً يشغلون مناصب تجار السلطان[٤] ، وكان منصب أخر شغله التجار هو تاجر ثروة السلطان السرية ، وكان رئيس التجار الكارميين العظيم برهان الدين المحلي تاجر السلطان وتاجر المال الخاص الشريف .

وكانت هناك مراكز تجارية أخرى في خدمة السلطان كانت تسمى تاجر ومراقب المكاتب التجارية ، كما أن مركز الوكيل الخاص، وهو وكيل المال السري، كان يشغله أحياناً تجار لأنه يمكن أن يشتمل على أعمال تجارية وفيما كانت تجارة التوابل أكثر مكتسبات الدولة قيمة وديمومة لسهولة ضبطها ، كانت التجارات الأخرى تتحول إلى جزء من إحتكارات الدولة ، ومن بينها تجارة السكر والقطن والنطرون المستعمل في صباغة الثياب ، فضلاً عن تجارة الحبوب والأخشاب ومقالع الحجارة وبدورها أعيد تنظيم تجارة الرقيق[٥] بطريقة مماثلة ، أي كوكالة حكومية ، هنا دخل تجار البندقية على تجارة الرقيق نظراً لعلاقاتهم بمصادر المعلومات المتعلقة بالرقيق في مدينة كافا الواقعة على شاطئ بحر قزوين ، وكانت

---

(١) عاشور: العصر المماليكى، ص ٣١٥.

(٢) عاشور: العصر المماليكى، ص ٣٢٥ .

(٣) المقريزي: السلوك ج٢، ص ٢٠٣.

(٤) عاشور: المجتمع المصري، ص ٤٢.

(٥) ابن تغري بردي: النجوم، ج ٧، ص ١٨٢.

هذه التجارة يعهد بها إلى "تجار موظفين" يسمون الخواجات وأحياناً يلقبون بتجار السلطان ، وكانوا بدورهم يعملون تحت إشراف أحد الأمراء الذي كان يسمى " معلم تجار المماليك"[١] .

أدى الارتباط المتزايد بين التجار والدولة أن فتحت أبواب توظيف التجار في مراكز إدارية متعددة وظهر إندماج بين مهنتي التجارة والوظيفة الرسمية ، وبدوره أدرك النظام المملوكي أنه لن يستطيع أن يستغني عن خدمات النخبة من التجار ، ومما سهل عملية التواصل هذه والولوج إلى مرحلة جديدة أن التجار الذين غدوا في منزلة متقدمة في المجتمع أيقنوا أن بإمكانهم الآن أن يحتلوا موقعاً متوسطاً بين عالمي الدولة والمجتمع بعد أن أصبحوا الوسطاء الأهم في المبادلات الاقتصادية والاجتماعية[٢] .

ويمكن القول أن ذلك مما يدل على أن التجارة علي الصعيدين الداخلي والخارجي من أساس مقومات الاقتصاد للدولة المملوكية .

---

(١) عاشور: العصر المماليكى، ص ٣٠٤.

(٢) لابدوس: مدن اسلامية، ص ١٠٥؛ عاشور العصر المماليكى، ص ٣٢٤.

الفصل الرابع

دور الدولة السياسي والاداري في معالجة الأزمات

الأول: نظام الحكم في الدولة المملوكية

(السلطان – الطبقة الحاكمة).

الثاني: النظام الإداري للدولة

(الدواوين، تنظيم شئون البلاد، وظائف كبار الموظفين).

الثالث : السلطة القضائية والتنفيذية للدولة

السلطة القضائية (القضاء – العدل والإفتاء – الحسبة)

السلطة التنفيذية (محاسبة المقصرين ، محاربة غلاء الأسعار والزنا ، والشذوذ الجنسي والرشوة و إلغاء المكوس المحرمة و تزييف العملة) .

الأول

نظام الحكم في الدولة المملوكية

(السلطان –الطبقة الحاكمة)

وُصفت الدولة المملوكيَّة بِأنها «دولة إقطاعيَّة حربيَّة» فطبيعة المماليك ونظامهم والرغبة في اقتنائهم نبعت من فكرة أساسيَّة واحدة هي تكوين فئة من المُحاربين الأشدَّاء وإعدادهم لِيكونوا درعًا حاميًا لِأساتذتهم الذين قاموا بِشرائهم وتعهدوهم بِالتربية ، ولا يكاد المملوك يُدرك سن البُلُوغ حتَّى يُشرع في تعليمه فُنُون الحرب ، من الرمي بِالنشَّاب واللعب بِالرِّمح ورُكوب الخيل وأنواع الفُرُوسيَّة[١].

عندما ينتهي المملوك من هذه المرحلة التعليميَّة ينتقل إلى الخدمة ويمر بِأدوارها رُتبةً بعد رُتبة حتَّى يصير من الأمراء[٢] واعتبار الدولة المملوكيَّة دولة إقطاعيَّة حربيَّة يرجع إلى الارتباط الوثيق –كما أُسلف– بين ديوان الجيش والإقطاع الذي وصفه القلقشندي[٣] بِقوله أنَّهُ «مظنَّة الإقطاع» ، أي سجلُّه ومركزه ، وقد تكوَّن الجيش في عصر سلاطين المماليك من ثلاث فرق أساسيَّة :–

الفرقة الأولى عبارة عن طائفة المماليك السُلطانيَّة – أي مماليك السُلطان القائم بِالحُكم – وقد وصفهم القلقشندي[٤] وأخرين[٥] بِأنهم أعظم الأجناد شأنًا وأرفعهم قدرًا وأشدُّهم قُربًا وأوفرهم إقطاعا، ومنهم تُؤمر الأمراء رُتبةً بعد رُتبة .

الفرقة الثانية تشمل طائفة مماليك الأمراء ، أي الذين اشتراهم الأمراء المُحيطون بِالسُلطان ، كُلٌ حسب درجته ورُتبته ، وتعهدوهم بِالرعاية ، ومن هؤلاء كانت تتكوَّن الوحدات الحربيَّة التي تُرافق السُلطان في حُرُوبه ، وكُل واحدة تتألَّف من أمير على رأس مماليكه .

---

(١) المقريزي: السلوك، ج١، ق ٢، ص ٥٢٥.

(٢) المقريزي: السلوك، ج٢، ص ١٢٢.

(٣) صبح الأعشى، ج١٣، ص ١٥٣.

(٤) صبح الأعشى، ج٤، ص ١٥.

(٥) المقريزي: المواعظ، ج٣، ٣٥٣ ؛ ابن تغري: النجوم، ج٩، ص ٥٢ .

وأخيرًا تأتي الفرقة الثالثة وهم طائفة أجناد الحلقة ، وهُم مماليك السلاطين والأمراء السابقين وأولادهم الذين احترفوا الجُنديَّة وأصبحوا بِمثابة جيش ثابت لِلدولة لا يتغيَّر بِتغيُّر السُلطان ، ويُشرف على كُل ألف منهم وقت الحرب أمير مائة مُقدَّم ألف ، أي أمير لهُ الحق في امتلاك وشراء مائة مملوك لِنفسه ويقود في وقت الحرب ألف جُندي من أجناد الحلقة[١] .

السلطان:

كان سلطان المماليك على رأس الهرم الإقطاعي ، وهو في الوقت نفسه رئيس الجهاز الحكومي في البلاد وصاحب أعلى سلطة فيها ، وتلقب سلطان المماليك بالقاب عديدة منها ، سلطان الإسلام والمسلمين ، ويشير هذا اللقب إلى حرص سلاطين المماليك ، على الواجهة الدينية ، وإضفاء صفة شرعية على حكمهم ، وقسيم أمير المؤمنين[٢] ويشير هذا اللقب إلى القاء الضوء على العلاقة الصورية بين سلطان المماليك والخليفة العباسي في القاهرة ، ويمثل هذا الوصف أنهما شريكان في حكم المسلمين ، أحدهما يمثل الجانب الديني ، والأخر يمثل الجانب السياسي والحربي .

ولا ينبغي أن نفهم من ذلك أن جميع سلاطين المماليك اشتركوا في القاب واحدة ، وإنما اختلفت الألقاب التي اتخذها كل سلطان عن الأخرين ، فهذا السلطان الأعظم العادل ، وذاك السيد الأجل الكبير[٣] ، وذلك السلطان القاهر، والمظفر، والمنصور وهكذا، والمعروف أن السلطان في عصر المماليك كان أميراً من الأمراء وزعيماً مكنته قوته وشخصيته وكثرة مماليكه من التفوق على أقرانه ، والوصول إلى منصب السلطة ، فإذا وصل أمير إلى السلطنة ، أصبح صاحب الحق في الهيمنة على بقية الأمراء ، ومماليكهم ، بوصفه زعيمهم ورأس دولتهم ، فيرفع من يختار من المماليك إلى مرتبة الإمارة ، ويمنح الإقطاعات حسب ترتيب معين ، ويباشر سُلطاته الواسعة في توزيع المناصب وتعيين كبار الموظفين[٤]، ولكن ليس معني هذه السلطة المطلقة التي يتمتع بها السلطان ، أن يستغني عن رأى كبار الأمراء ورجال الدولة .

---

(١) ابن فضل العمري: مسالك الأبصار، ج٥، ص ١٦٦.

(٢) عاشور: العصر المماليكى، ص ٣٦٣.

(٣) المقريزي: السلوك، ج١، ص ٥٤٨.

(٤) عاشور: مصر والشام في عهد الأيوبيين والمماليك: ص ١٣٧.

ولكن كانت تتم بينهم الشورى في مجلسها ، برئاسة السلطان ، وعضوية أتابك العسكر، والخليفة العباسي ، والوزير، وقضاة المذاهب الأربعة ، والأمراء ، وان كان السلطان قاصراً ، تولى رئاسة المجلس الوصي عليه أو نائب السلطنة(١) ، وجرت العادة أن السلطان لا يتكلم بنفسه في المجلس ، خوفاً من نقض أحد الأمراء رأيه ، فينقص من هيبته ، ولذلك يقوم المشير بالكلام عن السلطان ، وقد تعددت اختصاصات مجلس الشورى في عصر المماليك ، فنُظر في شئون الحرب والصلح ، وناقش من صب النيابات ، والوظائف الكبرى في الدولة ، ولم يكن السلطان مُلزم بدعوة مجلس الشورى ، أو الأخذ برأيه ، ولكن كان السلطان هو صاحب الرأي الأخير في جميع الأمور بصفته الحاكم الرئيسي للبلاد(٢) .

وكان السلطان يقيم ومعه أسرته ورجال بلاطه في قلعة الجبل ، ويتوقع أن هذه القلعة لم تكن مركز للحكم ودار السلطان فقط ، بل كانت بمثابة مدينة تضم طباق المماليك السلطانية ، ودور لخواص الأمراء ونسائهم ، وأولادهم ومماليكهم ودواوينهم ، فضلاً عن دار الوزارة التي اشتملت على قاعة الإنشاء وديوان الجيش وبيت المال وخزانة الخاص(٣) ، كما كانت قلعة الجبل موضوع عناية سلاطين المماليك دائماً ، فأقاموا فيها العمائر الكثيرة والقصور والمساجد ، مما جعلها منار دهشة السفراء الأجانب ، وأشرف على أعمال الصيانة العامة بالقلعة ديوان الدولة الشريفة الذى تولى ناظره الإنفاق على قصور السلاطين ، من عمائر وأسمطة وصدقات ، وكل ما تحتاج إليه البيوت السلطانية ، وكانت هذه البيوت عديدة لكل منها مباشر من أمراء المئين وله مساعدون وغلمان عديدون(٤).

الطبقة الحاكمة:-

كان للماليك مكانة اجتماعية يمكن تفسيرها في ضوء الحقيقة القائلة بأن المماليك لم تكن لهم حياة أسرية بالمعنى المألوف ، ذلك أن وجودهم في المجتمع المصري لم يكن قائماً على أساس الأسرة كخلية أولية في البناء الاجتماعي ، وإنما اعتمد وجودهم على القوة الذاتية لكل أمير ممثلة في مماليكه الذين كانوا سنده وعدته في الصراع المرتقب مع غيره من الأمراء ، ومن ثم كان الأمراء يعطون رعايتهم

(١) ابن تغري بردي: النجوم، ج٧، ص ١١٩.

(٢) القلقشندي: صبح الأعشى، ج٤، ص ١٦-١٧.

(٣) المقريزي: المواعظ، ج٣، ص ٣٣٢ – ٣٣٣.

(٤) النويري: نهاية الإرب ، ج٨، ١٦٦ ؛ القلقشندي: صبح الأعشى، ج٤، ص ١٠ -١١ .

وعناياتهم لمماليكهم(١) ، وفي فلك هذه الطبقة العسكرية الحاكمة كان يدور بعض المصريين من الفئات التي كانت ترتبط بالمماليك بحكم دور أفرادها في الحياة المصرية آنذاك، هؤلاء هم "أرباب الأقلام" من أصحاب الوظائف الديوانية الإدارية والمالية والقضائية .

ولما كانت العلوم الدينية هي الأساس الذى كان التعليم يقوم عليه في ذلك العصر ، كانت تلك الفئة من المصريون الفقهاء والعلماء بصفة خاصة ، وهو ما جعل بعض المصادر في ذلك العصر تطلق عليهم مصطلح أهل العمامة أو "المتعممون" ، والواقع أن أبناء هذه الطائفة قد لعبوا دوراً هاماً في مساندة السلطة الحاكمة ، ويتمثل ذلك في ولائهم للسلطان، فقد كان من المعتاد أن يصعد كبار القضاة والفقهاء مع بداية كل شهر إلى القلعة لتهنئة السلطان بالشهر الجديد(٢)، وتشهد تلك الطائفة الكبيرة من الفتاوى التي تضمنتها الوثائق في ذلك العصر أن السلاطين المماليك اعتمدوا كثيراً على هذه الفتاوى في كافة تصرفاتهم السياسية والاقتصادية والمالية والإدارية(٣) .

وينبغي أن نشير أن هذه الطبقة الحاكمة(٤) ، والفئات التي كانت تعيش في جوارها ، وتدور في فلكها ، كانت من كبار الموظفين في الجهاز الحاكم، سواء كانوا من الفقهاء أو غيرهم ، أما الرعية فكانت تشمل صغار التجار وأصحاب الحرف والصنائع والفلاحين ، وعامة أهل المدن، وإذا كان ثمة تدرج في المستوى الاقتصادي بين الشرائح الاجتماعية داخل الطبقة المحكومة ، فإن الجميع كانوا رعايا من وجهة نظر طبقية (٥) ، أفرزها البناء الإقطاعي لمصر في عصر سلاطين المماليك ، هذا البناء الذى حدد لكل فئة من فئات المصريين مكانتها الاجتماعية، بما يرتبط بهذه الفئة من عادات وتقاليد اجتماعية .

ويتضح من المصادر أيضاً أن المصريون عاشوا بكل فئاتهم يمارسون حياتهم اليومية بمعزل عن الطبقة الحاكمة ، التي لم يكن يربطهم بها شيء سوى الضرائب التي كان يفرضها عليهم السلاطين(٦) .

وقصارى القول أن كان المُجتمع المملوكي مُجتمعًا طبقيًّا تَميَّز بِكثرة طبقاته ، إذ أنَّ طبيعةَ حُكم المماليك الأغراب عن تلك البلاد ، وانعزالهم عن أهل البلاد وعن انخراطهم في سلكهم ، أدَّى إلى ظُهُور طبقة

(١) القلقشندي: صبح الأعشى، ج١٠، ص ٦٦ – ٧٧.
(٢) ابن اياس: بدائع الزهور، ج٣، ص ٢٤.
(٣) قاسم عبده: التاريخ السياسي عصر المماليك، ص ١٨.
(٤) القلقشندي : صبح الأعشي ، ج٤ ، ص ١٥ .
(٥) ابن تغري : النجوم ، ج٩ ، ص ٥٢ .
(٦) قاسم عبده: التاريخ السياسي عصر المماليك، ص ٢١.

مُتميِّزة في المُجتمع ، تمتلكُ زمام الحُكم فيه وهي طبقة المماليك أصحاب السيادة والنُفوذ [1] ، كما ظهرت أيضاً الطبقات الأخرى .

ويُمكن تقسيم سُكَّان مصر والشَّام في العصر المملوكي إلى ثمان طبقات: طبقة المماليك، وطبقة المُعمَّمين ، وطبقة التُجَّار، وطبقة طوائف السُكَّان أرباب المهن في المُدن ، وطبقة أهل الذمَّة، وطبقة الفلَّاحين ، وطبقة الأعراب، وطبقة الأقليَّات الأجنبيَّة[2] ، عاش المماليك أنفُسهم طبقة أرستقراطيَّة يحكمون البلاد ويتمتعون بِالجُزء الأكبر من خيراتها دون أن يُحاولوا الامتزاج بِأهلها إلا قليلاً ، وقد شهد الرحَّالة الأجانب الذين زاروا مصر في ذلك العصر بِعظم ثروة المماليك وحياة الترف والنعيم التي عاشوا في ظلِّها [3] ، أمَّا عامَّة الشعب فقد استطاعت بعض فئاتهم –مثل المُعممين والتُجَّار– أن يحتفظوا لِأنفُسهم بِمكانةٍ مرموقةٍ في المُجتمع ومُستوىً لائق من المعيشة ، في حين غالب أهل البلاد من سائر العوام والفلَّاحين حياة أقرب إلى البُؤس والحرمان[4].

(1) المقريزي : المواعظ ، ج٣ ، ص ٣٥٣ .
(٢) عاشور: المجتمع المصرى، ص ١٦.
(3) المقريزي : المواعظ ، ج٣ ، ص ٥٧ – ٦٠ .
(٤) عاشور: المجتمع المصري، ص ٣٧– ٤٨.

الثاني

التنظيم الاداري للدولة

(إنشاء الدواوين، وتنظيم البريد وشئون البلاد، وظائف كبار الموظفين)

بلغ النظام الإداري في دولة المماليك، درجة كبيرة من الدقة والإحكام، فوُجِدت إدارة مركزية مقرها القاهرة، وعمادها مجموعة من الدواوين وكبار الموظفين(١) ، ووجدت إدارة محلية تشرف على الأقاليم، وعلى رأسها مجموعة من النواب والولاة ، وعلى رأس هذا الجهاز الضخم وجد سلطان المماليك يوجه أمور البلاد والعباد ، ويتلقى الأخبار ويرسل تعليماته عن طريق شبكة محكمة من خطوط البريد.

وأول الموظفين الكبار الذين ساعدوا السلطان في شئون الحكم والإدارة هو نائب السلطنة ، ويتضح من اسم هذه الوظيفة ، أن صاحبها كان بمثابة الوكيل عن السلطان ، وساعده الأيمن في تصريف شئون البلاد ، بل كان " السلطان الثاني" على قول القلقشندي(٢) ذلك أنه اشترك مع السلطان في إصدار القرارات ، ومنح ألقاب الإمارة ، وتوزيع الإقطاعات ، فضلًا عن تعيين كبار الموظفين ، لذلك تلقب نائب السلطنة بلقب "كامل الممالك الشريفة الإسلامية الآميرى الآمرى"(٣) ، لأنه تكفل بكثير من أمور الدولة .

وكانت نيابة السلطنة على نوعين في عصر المماليك ، فهناك النائب الكافل أو نائب الحضرة ، وهو الذى ينوب عن السلطان أثناء وجوده وإقامته في مصر، في حرب أو حج أو غير ذلك ، أما نواب السلطنة في نيابات الشام – وهى دمشق وحلب وطرابلس وحماة وصفد والكرك – فناب كل منهم عن السلطان في وحدته الإدارية(٤) ، وممثلاً له في إدارتها ، وكان على نواب الشام أن يرجعوا إلى السلطان أو نائبه في مصر، في المسائل التي لا يستطيعون البت فيها ، ولمسئوليتهم عن الدفاع عن إمارتهم ضد

---

(١) الشربيني: النظم المالية، ص ١١٤.

(٢) صبح الأعشى، ج ٤، ص ١٦.

(٣) ابن العمري: مسالك الأبصار، التعريف بالمصطلح الشريف، ص ٦٥-٦٦.

(٤) القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٤، ص ١٦-١٧.

الأخطار الخارجية والداخلية ، وحرص السلاطين على اختيارهم من كبار الأمراء أرباب السيوف المعروفين بشجاعتهم الحربية ومهارتهم الإدارية .

وبعد نائب السلطنة يأتي الأتابك : وهو القائد العام للجيش المملوكي ، ويتضح أن الأتابك قائد العسكر ، قد تمتع بنفوذ كبير ، وكلمة عالية في الدولة ، بوصفه رأس الجيش [١].

أيضاً الوزير يلى نائب السلطنة في المرتبة ، ولكن تضاءل دوره في دولة المماليك ، عما كان عليه في دولة العباسيين في العراق أو الفاطميين في مصر، وهناك فريق أخر من كبار الموظفين قاموا بدور هام في ادارة جهاز دولة المماليك ، وهم فئة الولاة التي كان أفرادها يختارون أئمة من بين الأمراء ليقوموا بوظيفة المحافظ اليوم في الأقسام الإدارية ، وكان أكبر هؤلاء الولاة شأناً ، والى القاهرة[٢] ، وبعدها والى القرافة ، وبعدها والى القلعة ، وثمة مدينة واحدة في البلاد المصرية عُين لها نائب وصارت مثل النيابات الشامية ، هي مدينة الاسكندرية ، لأهميتها على البحر المتوسط وكثرة الجاليات الأجنبية بها ، ذلك مما أعطاها قسطاً خاصاً من العناية الإدارية[٣] ، أما الإدارة الإقليمية في أعمال الوجهين البحري والقبلي خارج القاهرة والإسكندرية ، كان يوجد كاشف للوجه البحري ، وكاشف للوجه القبلي ، وظل ذلك إلى نهاية دولة المماليك البحرية ، وفي حكم المماليك الجراكسة، أو الثانية ، أشرف على الوجهين مجموعة من الولاة وكان الوجه البحري ينقسم إلى عشرة أعمال ، وينقسم الوجه القبلي إلى ثمانية أعمال ولكل منها والى وتمتع بنفوذ كبير على الأقاليم التابعة له، ويتضح من ذلك أن دولة المماليك شهدت نظاماً إدارياً بالغ الدقة ، نهض به مجموعة كبيرة من الموظفين[٤].

الدواوين:

كان من الطبيعي أن يعتمد هذا الجهاز الإداري الضخم ، الذي شهدته دولة المماليك على مجموعة من الدواوين الكبيرة ، لإدارة مرافق الدولة العديدة ، فقد تكون الجهاز الإداري في «مصر» والشام من عدة دواوين حكومية ، يشرف كل منها على ناحية معينة من نواحي الإدارة العامة ، وكانت

(١) القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٤، ص ٧٢؛ عاشور: العصر المماليكى، ص ٣٦٧.

(٢) المقريزي: المواعظ، ج٣، ص ١٤٨.

(٣) القلقشندي: صبح الأعشى، ج ١١، ص ٤٠٥؛ عاشور: المجتمع المصري، ص ٦٢ .

(٤) القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٤، ص ٦٤.

أهم هذه الدواوين في هذا العهد ما يلي: «ديوان الجيش» و «ديوان الإنشاء»، و «ديوان الأحباس»، و «ديوان النظر»، و «ديوان الخاص»[١] .

«ديوان الجيش»:

قد تمتع ديوان الجيش بأهمية كبري في دولة المماليك ، وهى الدولة ذات الصبغة الحربية ، والتي اعتمدت في قيامها وبقائها على فكرة الحرب والقتال ، واشتمل العمل في هذا الديوان على الإشراف والقيام بمهام الطوائف الثلاث التي يتكون منها الجيش المماليكي[٢] ، وفيه تحفظ الأوراق الخاصة بجميع الجنود والأمراء ، ومن أهم اختصاصات ديوان الجيش المسائل المتعلقة بالإقطاعات، وعُرف ناظر[٣] هذا الديوان باسم ناظر الجيش ، وهى أهم الوظائف في الدولة ، ويعاونه بعض كبار الموظفين مثل صاحب ديوان الجيش وينوب عن الناظر في تصريف شئون الديوان ، ومستوفى الجيش ويقوم بتحديد الرواتب التي تصرف للجند وتسجيلها في كشوف خاصة بمساعدة مستوفى الإقطاعات ، ومستوفى الرزق ، ويشرف على صرف المرتبات للأجناد وأرزاقهم العينية ، واشترط في هؤلاء الأمانة التامة[٤].

«ديوان الإنشاء»:

كان من أهم اختصاصات تنظيم العلاقات الخارجية للدولة ، وتبادل المكاتبات الرسمية الخاصة للدولة ، وهو أول ديوان وُضع في الإسلام[٥] ، وقد نُظِّم في عهد المماليك بأسلوب يتناسب مع مقتضيات العصر ومتطلباته ، وكان مقره «قاعة الصاحب» بقلعة الجبل ، حيث ترد المكاتبات إليه من جميع أنحاء الولايات والممالك التي بينها وبين بلاد المسلمين علاقات سياسية ، كما كانت تحرر فيه الكتب التي كان يرسلها السلطان إلى الملوك والأمراء[٦] ، وقد لُقب صاحب ديوان الإنشاء بألقاب عديدة في أوائل عهد المماليك، فلقبوه تارة باسم: «صاحب الدست الشريف» ، وأخرى باسم: «كاتب الدرج» وثالثة باسم: «كاتب الدست» وبقيت هذه تسميته إلى أن تولى «القاضي فتح الدين بن عبد الظاهر» هذا الديوان في عهد السلطان «قلاوون» فتلقب بلقب «كاتب السر» ، لأنه كان يكتم سر السلطان ، وكانت

---

(١) القلقشندي: صبح الأعشى، ج ١١، ص ٣١٦ وما بعدها.

(٢) الشربيني: النظم المالية، ص ٣٧.

(٣) القلقشندي: صبح الأعشى، ج٤، ص ٣١.

(٤) القلقشندي: صبح الأعشى، ج١١، ص ٣٢١ ؛ المقريزي: المواعظ، ج٣، ص ٧٤ .

(٥) الشربيني: النظم المالية، ص ١١٤.

(٦) القلقشندي: صبح الأعشى، ج١٤، ص ٣٧١ ؛ طقوش: المماليك في مصر والشام، ص ٣١٠.

وظيفته[١] من أعظم الوظائف الديوانية وأجلِّها قدرًا ، وكان له معاونون يساعدونه في أداء ما عليه من التزامات وواجبات ، كان من أبرزهم : «نائب كاتب السر» ، ثم يليه في المرتبة كُتَّاب الدست المتصلون بديوان الإنشاء ، وكانوا يجلسون مع كاتب السر بمجلس السلطان بدار العدل [٢] .

«ديوان الأحباس»:

اهتمت به الدولة لأنه كان بمثابة رأس مال احتياطي تركن إليه الدولة وقت الأزمات ويقوم هو برعاية الشعب أوقات المحن، فيشبه وزارة الأوقاف في وقتنا الحالي، ويتولى صاحب هذا الديوان رعاية شئون المؤسسات الدينية والخيرية، والإشراف على المساجد والرُبط، والزوايا، والمدارس، والأراضي، والعقارات المحبوسة عليها، والإحسان إلى الفقراء والمحتاجين [٣] .

وتنقسم شئون الأحباس إلى عدة أقسام:

- **الأوقاف الحكيمة:** وهي الأوقاف المحبوسة على الحرمين وفداء أسرى المسلمين ، ويتولاها ناظر الأوقاف ، وغالبا قاضي قضاة الشافعية[٤].
- **الأوقاف الأهلية:** ولكل وقف منها ناظر خاص.

الأحباس الخاصة بالمساجد والزوايا وينفق من ريعها على المؤسسات الدينية، والفائض يتم تويعه على شكل صدقات وعطايا للمحتاجين، ويُشرف على هذا القسم الدوادار وناظر الخاص.

ولم تقتصر الأوقاف[٥] في عصر المماليك على الحوانيت والخانات والفنادق والأراضي الزراعية الواسعة كما الحال في العصور السابقة، وإنما اتسعت الأوقاف في ذلك العصر حتى شملت كثيراً من الأعيان الموقوفة مثل معاصر الزيت والقصب والحمامات والطواحين والأفران والمصابن ومصانع النسيج ومخازن الغلال[٦].

و«ديوان النظر» يشبه وزارة المالية حاليًا، وترجع إليه سائر الدواوين في كل ما يتعلق بالمسائل الخاصة بالإيرادات ومصروفاتها من أموال الدولة ، وله فوق ذلك الإشراف على حساب الدولة ، ومرتبات

---

(١) القلقشندي: صبح الأعشى، ج١١، ص ٣٣٠؛ المقريزي: المواعظ، ج٣، ص ٧٤.

(٢) الشربيني: النظم المالية، ص ١١٥ .

(٣) الشربيني: النظم المالية، ص ١١٨ .

(٤) القلقشندي: صبح الأعشى، ج٤، ص٣٤؛ المقريزي: المواعظ، ج٢، ص ٢٩٦.

(٥) الشربيني: النظم المالية، ص ١١٩ .

(٦) القلقشندي: صبح الأعشى، ج٤، ص ٣٨ ؛ المقريزي ، المواعظ ، ج ٣ ، ص ٩٢.

الموظفين الدائمين والمؤقتين ، وكان هذا الديوان يتخذ من القلعة مقرا له [١] ، أيضاً ووصف الإمام المقريزي[٢] ناظر هذا الديوان بأنه من أكبر موظفي الدولة وأهمهم عملاً وأعلاهم قدراً وله أمر ونهى وحال جليلة ، لكثرة الحمول الواردة والمصروفة لأهل الدولة ، لذلك قام بمساعدته جملة من الموظفين، أهمهم مستوفى الصحبة ، وهو بمثابة وكيل الديوان ، وشهود بيت المال ، وصيرفي بيت المال ، وذلك كله عدا الكتبة ، وتفرع على ديوان النظر منذ القرن الرابع عشر ديوان خاص في عهد الناصر محمد[٣].

«ديوان الخاص»:

وفى سنة ٧٢٧هـ/١٣٢٦م أنشأ السلطان «الناصر محمد» «الديوان الخاص» لإدارة الشئون المالية التي تتعلق بالسلطان، ومراقبة الخزانة السلطانية، ويتولى الإشراف عليه «ناصر الخاص» الذي عُرف من قبل في عهد الفاطميين والأيوبيين، ولكنه لم يبلغ من الأهمية القدر الذي بلغه في عصر المماليك خاصة في عهد «الناصر محمد» [٤] ،وكانت هناك دواوين أخرى – في العهد المملوكي – أقل شأنًا من تلك الدواوين السابق ذكرها، مثل «ديوان الأهراء» (وهى شئون الغلال السلطانية)، و «ديوان الطواحين»، ويتولى صاحبه الإشراف على طحن الغلال، و «ديوان المرتجعات»، ويشرف صاحبه على الأمور الخاصة بتركات الأمراء، وكذلك كانت هناك دواوين أخرى ذكرها «القلقشندي»[٥] على أنها دواوين مستقلة، ولكنها لم تكن – في حقيقة الأمر – سوى إدارات تتصل اتصالا مباشرًا بالقصر السلطاني، أو بأحد الدواوين الرئيسية السابقة، وذكر «القلقشندي»[٦] منها – مثلاً– «ديوان الإصطبلات»، و «ديوان المواريث»، و «ديوان الخزانة» و«ديوان العمائر»، و «ديوان المستأجرات»، هكذا صارت دواوين الحكومة في عصر المماليك على نسق واحد من حيث التنظيم الإداري، فكان على رأس كل ديوان موظف كبير هو «ناظر الديوان»، وكانت مهام عمله تشبه إلى حد كبير ما يقوم به الوزير حاليا، ويليه

---

(١) الشربيني: النظم المالية، ص ٣٧ .

(٢) المقريزي: المواعظ، ج٣، ص ٩٢.

(٣) القلقشندي: صبح الأعشى، ج٤، ص ٢٩ .

(٤) القلقشندي: صبح الأعشى، ج١١، ص ٣١٦؛ ج٤، ص ٣٠؛ المقريزي: المواعظ، ج٣، ص ٩٩.

(٥) صبح الأعشى، ج٤، ص ٣١؛ المقريزي: المواعظ، ج٣، ص ٩٣.

(٥) صبح الأعشى، ج٤، ص ٣٢-٣٣ .

في المرتبة «مستوفى الصحبة»[١]، و «مستوفى الدولة» ومهمتهما الإشراف على موظفي الدواوين المختلفة، ويلي هؤلاء طبقة الموظفين والكتاب وما يليهم[٢].

تنظيم البريد وشئون البلاد:-

تبين أن الدولة اهتمت بالبريد لربط الأقاليم بالعاصمة ومتابعة كل الأمور من أزمات سياسية أو اقتصادية فنظام البريد كان كفيلاً بتجنيب البلاد مخاطر اقتصادية عدة إذا ما وصل في موعده كالأخبار عن انهيار الجسر مثلاً أو هجوم جراد أو قلة وفاء النهر، وكان البريد أحد أهم إدارات «ديوان الإنشاء»، إذ كان واسطة الاتصال بين دولة المماليك في «مصر» ونياباتها في الشام وغيرها من الأقاليم[٣]، ولم يقتصر المماليك على البريد العادي في إرسال رسائلهم، بل عمدوا إلى استخدام الحمام الزاجل في نقلها، وجعلوا القلعة مركزًا لأبراجه، كما أقاموا مراكز معينة في جهات مختلفة لتكون مراكز للبريد البرى، وخصصوا لكل محطة منها عددًا من الحمام الزاجل، وجعلوا على رعاية شئونه عددًا من الموظفين المتخصصين في ذلك[٤]، وكان في كل محطة من هذه المحطات برج أو أكثر ليعيش فيه الحمام الذى سيقوم بنقل الرسائل إلى المحطة التالية، وقد عنى سلاطين المماليك عناية شديدة بما كانت تحمله هذه الحمائم من رسائل، لدرجة أن بعضهم أمر بإدخالها عليه حال وصولها، كما كان بعضهم يترك طعامه أو يستيقظ من نومه في الحال عند وصولها[٥].

وهكذا كان تنظيم الدواوين في عهد الدولة المملوكية غاية في الدقة، ومظهرًا من مظاهر الرقى الحضاري الذي وصلت إليه هذه الدولة بما صنعته وحققته[٦]، ومثلاً من أمثلة المتابعة الدقيقة التي آل سلاطين هذه الدولة على أنفسهم أن يتخذوها في مراقبة شئون الدولة، لتحقيق الاستقرار الداخلي، الذي ينعكس – بطبيعة الحال – على كل نواحي الحياة في الدولة المملوكية، التي تمتعت بشكل عام بقدر كير من الازدهار والأمن مما ساهم في اعادة تنظيم شئون الدولة المالية، ونظام المدفوعات العسكرية التي كانت على أسس منتظمة بعد أن قسمت العائدات الزراعية بين السلطان وأمراء المماليك، وتحديد عدد

(١) الشربيني: النظم المالية، ص ٥٨.
(٢) القلقشندي: صبح الأعشى، ج٤، ص ٣٤.
(٣) الشربيني: النظم المالية، ص ١١٤.
(٤) طقوش: المماليك في مصر والشام، ص ١٠٢ ؛ الشربيني: النظم المالية، ص ١١٦ .
(٥) القلقشندي: صبح الأعشى، ج١٤، ص ٣٧١ – ٣٧٢.
(٦) عاشور: مصر والشام في عهد الأيوبيين والمماليك، ص ٢٨٠ .

الجنود اللازمة ، كما حددت الرواتب لجميع الرتب ، وأدت عملية إعادة التنظيم إلى تركيز مراقبة القوات المسلحة، ووضع عائدات المكوس في يدي السلطان (١) ، ولكن أهميتها كانت أكبر لجهة مساهمتها في الاقتصاد العام إذ أن عائدات المكوس في الدولة كانت جزءاً أساسياً وهائلاً من ثروة المنطقة، فكان استقرار الرواتب ووجبات دافعي الضرائب من الأسس الثابتة لاقتصاد مستقر، كما أسهم الاستقرار في موازنة الدولة في خلق استقرار مالي استثنائي، وأدي الثبات الطويل الأجل في ثمن الذهب وقيمة الفضة وأسعار السلع الغذائية الأساسية كالقمح والشعير والحنطة إلى المساعدة على تأمين الازدهار الاقتصادي العام (٢) .

كبار الموظفين الإداريين:

كان الهدف من هذا التوظيف الهرمي تحكم الدولة في زمام الأمور خاصة مواردها المالية واقتصادها فنجد بين كبار الموظفين الوزير، ويتبعه موظفين ماليين كناظر بيت المال وغيره... بهدف ضبط شئون الدولة وحساباتها والتحكم في الإيرادات والنفقات لتجنيب الدولة الإنهيار والوقوع في أزمات اقتصادية.

وانقسم الموظفون في دولة المماليك من حيث النظام الإداري إلى قسمين هما:

أولاً: أرباب السيوف: (٣) وكانوا من طبقة المماليك أي لم يختاروا من المصريين وهم (نوعان):

النوع الأول: الأمراء وهم أربع طبقات:

- **الطبقة الأولى:** أمراء المئين مقدمو الألوف، وعدة كل منهم مائة فارس وربما زاد الواحد منهم العشرة والعشرين وهي أعلى مراتب الأمراء على تقارب درجاتهم، ومنهم يكون أكابر أرباب الوظائف والنواب.
- **الطبقة الثانية:** أمراء الطبلخانه، وعدة كل منهم في الغالب أربعون فارساً وربما يزيد إلى الضعف ، ومنها أرباب الوظائف والكشاف بالأعمال، وأكابر الولاة (٤) .

---

(١) الشربيني: النظم المالية، ص ١٤٠ .

(٢) لابدوس: مدن اسلامية، ص ٤٣.

(3) Ayalon: the Muslim city and the Mamluk Military Aristocracy. 2. P. 3119.

(٤) القلقشندي: صبح الأعشى، ج٤، ص ١٤.

- **الطبقة الثالثة:** وهي أمراء العشرات وربما يزيد العدد إلى العشرين ومنهم صغار الولاة ونحوهم من أرباب الوظائف.
- **الطبقة الرابعة:**

أمراء الخمسات، وهم أقل من القليل خصوصاً بالديار المصرية، وأكثرهم من أولاد الأمراء المندرجين بالوفاة رعايةً لسلفهم، وهم في الحقيقة كأكابر الأجناد.

النوع الثاني: الأجناد وهم طبقتين(١):

- **الطبقة الأولى:**

وهم المماليك السلطانية، وهم أعظم الأجناد شأناً، وأرفعهم قدراً. وأشدهم إلى السلطان قرباً، وأوفرهم إقطاعاً، ومنهم تُؤمر الأمراء رتبة بعد رتبة، وفي العدد حسب ما يُقره السلطان.

- **الطبقة الثانية:**

أجناد الحلقة، وهم عدد كثير وهم من المتعممين وغيرهم،

- **الطبقة الثالثة:**

تسمي المماليك البحرية الذين يقيمون بالقلعة وحول دهاليز السلطان في السفر كالحراس وأول من رتبهم وسماهم بهذا الاسم السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الكامل(٢) .

وظائف من هو بحضرة السلطان وعددها خمسة وعشرون وظيفة هي:

١. **وظيفة النيابة:** ويعبر عنها بالنائب الكافل، وكافل الممالك الإسلامية.
٢. **وظيفة الأتابك:** هو القائد العام للجيوش، وكلمة «أتابك» لفظة تركية مركبة من «أطا»، (وتعنى: أب) و «بك» (وتعنى: السيد أو الأمير) فيكون «الأتابك» هو: السيد الأب، أو الأمير الأب، أي أنه أبو الأمراء أو كبيرهم، وقد أُطلق هذا اللقب في عهد المماليك على مقدم العساكر، أو القائد؛ لأنه يعتبر أبًا للعساكر والأمراء جميعًا، وكثيراً ما خلع الأتابكة أبناء السلاطين من على العرش، واستولوا عليه وتولوه بدلا منهم(٣).
٣. **وظيفة رأس نوبة** وعملها الحكم على المماليك السلطانية.

---

(٢) القلقشندي: صبح الأعشى، ج٤، ص ١٥.

(٢) القلقشندي: صبح الأعشى، ج٤، ص ١٦ .

(٣) القلقشندي: صبح الأعشى، ج٤، ص ١٨؛ عاشور: مصر والشام في عهد الأيوبيين والمماليك، ص ٢٨١ .

٤. **وظيفة إمرة مجلس:** وعملها الأطباء والكحالين ومن مثلهم.

٥. **وظيفة إمرة سلاح:** عملها حمل السلاح للسلطان في الأماكن العامة، والمتحدث في السلاح خاناه السلطانية[١].

٦. **وظيفة إمرة أخورية:** وعملها اصطبل السلطان وخيوله.

٧. وظيفة **الدوادارية:** وعملها تبليغ الرسائل عن السلطان، وإبلاغ عامة الأمور، وتقديم القصص، والمشاورة فيمن يحضر إلى الباب الشريف، وتقديم البريد، وهو أمير جاندار، وكاتب السر، ولها عدد من الأمراء والجند[٢].

٨. **وظيفة الحاجب:** كان على «الحاجب» أن ينصف بين الأمراء والجند تارة بنفسه، وتارة بمراجعة النائب، ويقوم بما يقوم به «أمير جاندار» على أن يراعى مقامات الناس، وأهمية أعمالهم، وقد عظمت أهمية الحاجب في العصر المملوكي.

٩. **وظيفة إمرة جاندار:** وعملها أن يستأذن على دخول الأمراء للخدمة ويدخل للديوان أمامهم، ويقدم البريد مع الدوادار وكاتب السر وكان كالمستلم للباب [٣].

١٠. **وظيفة الأستادارية،** وعملها شئون بيوت السلطان، ويحكم في غلمانه، وباب داره، واليه أمر الجاشنكيرية، وكل ما يحتاجه بيت السلطان من نفقات وغيرها [٤].

١١. **وظيفة الجاشنكرية:** وظيفة متذوق طعام السلطان قبله مخافة وضع السم فيه.

١٢. **وظيفة الخازندراية:** وعملها شئون خزائن الأموال السلطانية ويشاركه في ذلك ناظر الخاص.

١٣. **وظيفة الشراب خاناه:** وعملها مشروبات السلطان والضيافة [٥]

١٤. **وظيفة أستادارية الصحبة:** وعملها المطبخ السلطاني والاشراف على الطعام وغيره.

١٥. **وظيفة تقدمة المماليك:** التحدث على المماليك السلطانية والحكم فيها.

١٦. **وظيفة زمامية الدور السلطانية:** وهو المعبر عنه بالزمام، وصاحبها من أكبر الخدام [٦] .

---

(١) القلقشندي: صبح الأعشى، ج١١، ص ٣٤٥؛ طقوش: المماليك في مصر والشام، ص ١٥١ .

(٢) القلقشندي: صبح الأعشى، ج٤، ص ١٩.

(٣) القلقشندي: صبح الأعشى، ج١١، ص ٣٤٨ ؛ عاشور: مصر والشام في عهد الأيوبيين والمماليك، ص ٣٠٩ .

(٤) القلقشندي: صبح الأعشى، ج١١، ص ٣٤٢.

(٥) طقوش: المماليك في مصر والشام، ص ١٠٠ .

(٦) القلقشندي: صبح الأعشى، ج٤، ص ٢١.

١٧. **وظيفة نقابة الجيوش** وعملها تحلية الجند في عرضهم ومعه يمشى النقباء إذا طلب السلطان أو النائب لأمير أو حاجب أو غيره. [١]

١٨. **وظيفة المهندارية:** وعملها تلقى الرسل الواردين، وأمراء العربان وغيرهم ممن يريد أهل المملكة.

١٩. **وظيفة شد الدواوين:** وعملها أن يكون صاحبها رفيقا للوزير. وهي إمرة عشرة.

٢٠. **وظيفة إمرة طبر:** وعملها أن يكون صاحبها حاملاً الطبر في المواكب وهي إمرة عشرة.

٢١. **وظيفة إمرة علم:**وعملها أن يكون صاحبها متحدثاًعلى الطبلخاناه السلطانية وأهلها وهي إمرة عشرة[٢].

٢٢. **وظيفة إمرة شكار:** وعملها الطيور والصيود السلطانية وهي إمرة عشرة.

٢٣. **وظيفة حراسة الطيور** في المزارع وغيرها وهي إمرة عشرة.

٢٤. **وظيفة شد العمائر:** وعملها العمائر السلطانية والقصور والمنازل والأسوار وهي إمرة عشرة.

٢٥. **الولاية:** والولاة بالحاضرة وهي نوعين:

- **ولاة الشرطة والحرب وهم ثلاثة:**(والى القاهرة، والى الفسطاط، والى القرافة) .
- **ولاة القلعة وهم نوعين:** (والى باب القلعة الكبير، ووالى باب القلة)[٣] .

وظائف من هو خارج عن حضرة السلطان وعددها ثلاثة طبقات :-

- **الأولي نواب السلطنة**

وهي ثلاثة :-

نيابة الإسكندرية ، نيابة الوجه القبلي ، نيابة الوجه البحري

الثانية الكشاف

وهي اثنان :- كاشف للوجه البحري ، وكاشف للوجه القبلي [٤].

الثالثة الولاة :-والي الوجه البحري ووالي الوجه القبلي .

- **والى القاهرة:**

---

(١) القلقشندي: صبح الأعشى، ج٤، ص ٢١ .

(٢) طقوش: المماليك في مصر والشام، ص ١٥٢ .

(٣) القلقشندي: صبح الأعشى، ج٤، ص ٢٣.

(٤) القلقشندي: صبح الأعشى، ج٤، ص ٢٢ .

استلزمت شئون الإدارة تعيين موظف كبير يُعدُّ في الواقع من أهم الموظفين الإداريين عرف باسم : «والى القاهرة» ، فهو الذي ينفذ الأحكام ويقيم الحدود ، ويتعقب المفسدين، ومثيري الفتن ، ومدمني الخمر، ويعاقب كلا منهم على حسب جريمته ، كما كانت عليه مراقبة أبواب «القاهرة»، والطواف بأحياء التجارة والمال فيها، لذا أُطلِق عليه أحيانًا: «صاحب العسس» أو «والى الطواف»، واقتصر نفوذه على العاصمة وضواحيها[١] .

- **ولاة الأقاليم:**

كانت فئة من الموظفين هي التي تشرف على كل عمل من أعمال الوجهين البحري والقبلي بمصر، وكان على رأس هذه الفئة «والى الإقليم»، الذي يمثل الإدارة المحلية، وكانت مهمته تتركز في العمل على استتباب الأمن والنظام، والمحافظة على أموال الناس وأرواحهم في الإقليم الذي أوكلت إليه إدارته[٢].

الوظائف الديوانية :-

الوزارة : تطور نظام الوزارة في «مصر» في عهد المماليك، ولم يتمتع وزراء هذا العصر بنفوذ مطلق؛ لاستقرار منصب «نائب السلطان» الذى استحدثه الأيوبيون وعمل به المماليك، وقد حرص «الظاهر بيبرس» على اختيار وزرائه من أرباب الأقلام والسيوف، فإذا كان الوزير من أرباب القلم أُطلق عليه اسم: «الصاحب» مضافًا إليه صفة الوزير فيصبح لقبه: «الصاحب الوزير» أو «وزير الصحبة»؛ وهو وزير متنقل يرافق السلطان في أسفاره وحروبه، وتكون مهام وظيفته مقصورة على تسيير شئون الوزارة في هذه الأثناء. أما إذا كان هذا الوزير من أرباب السيف اكتفى بتلقيبه بالوزير دون الصاحب، ويُعدُّ -بهذا- الوزير الأصلي الذي يحضر مجالس السلطان مع أمراء المائتين، وله حق التصرف في جميع أمور المملكة[٣] ، وكان الوزير يتقاضى راتبًا شهريا قدره مائتان وخمسون دينارًا، عدا ما خصص له كل يوم من مقادير وفيرة من الغلال واللحوم والخبز وسائر ما يحتاج إليه، وقد ألغى السلطان «الناصر محمد» منصبي «الوزير» و «نائب السلطان» في آنٍ واحد في سنة (٧٢٧هـ) .

(١) القلقشندي: صبح الأعشى، ج٤، ص ٢٣.

(٢) القلقشندي: صبح الأعشى، ج٤، ص ٢٦.

(٣) القلقشندي: صبح الأعشى، ج١١، ص ٢٧٠؛ ج٤، ص ٢٨ ؛ عاشور: العصر المماليكى، ص٢٨٤.

الثالث

السلطة القضائية والتنفيذية للدولة

السلطة القضائية وتتمثل في عدة وظائف منها :-

(القضاء – العدل والإفتاء – الحسبة)

السلطة التنفيذية وتتمثل في :-

(محاسبة المقصرين ومحاربة الغلاء وانتشار الزنا والشذوذ الجنسي ومحاربة الخمور والحشيش والرشوة وإلغاء المكوس المحرمة وتزييف العملة)

واجهت دولة المماليك كثير من الأزمات المؤثرة في الحالة الاقتصادية وأهمها حدوث الأزمات والمجاعات والأوبئة وانخفاض نهر النيل، مما أدي إلى حدوث خسائر كبيرة، فكانت تغلق الأسواق والحوانيت، ويتعرض البعض لهجوم العصابات(١) .

ولا يستطيع الباحث في عصر المماليك، أن ينكر أن المجتمع امتلأ بكثير من الأمراض الاجتماعية الخبيثة، والتي انتشرت بين جميع الطبقات حكاماً ومحكومين، من أهل الدنيا والدين، حقيقة أن ذلك العصر يمتاز بلمسه براقة من الصلاح والتقوى والحرص على إقامة المنشآت الدينية الفخمة والرغبة في المبالغة في إحياء شعائر الدين، إلا أن بداخله أمراض مستوطنة خبيثة تثير الاشمئزاز والنفور.

ولا بد من الاشارة إلى هذه الأمراض ومدى انتشارها وخطورة أثرها، وقاست الناس كثيراً من أنواع الجوع والفوضى والفزع ، فكانت تضطرب أحوال البلاد .

كذلك من الصعب أن يُنسب مولد الفساد الاجتماعي إلى أيام سلاطين المماليك وحدهم ، فالقاضي الفاضل يذكر في متجددات سنة ٥٨٧هـ/١١٩١م أنه رأى بمصر "من البغي ومن المعاصي ومن الجهر بالفسق والزنا واللواط وشهادة الزور وشرب الخمر، مالم يُسمع أو يُعهد مثله" وكان ذلك في أواخر عهد الناصر صلاح الدين الأيوبي(٢) لكن هذا كله لا يخفف المسئولية عن كاهل أمراء المماليك

---

(١) المقريزي: السلوك، ج٣، ص ١٦٤؛ لابدوس، مدن اسلامية، ص ٢٧٩ .

(٢) المقريزي: المواعظ، ج٢، ص ١٩٩؛ عاشور: المجتمع المصري، ص ٢٤٧ – ٢٤٨.

وسلاطينهم، بسبب ما أسهم به كثير منهم في حياة الفسق والمجون، حيث المعاناة من مرض ازدواج الشخصية لبعضهم ، فحرص الغالبية منهم على اظهار أكبر قدر ممكن من التقوى والورع والتدين في حياتهم العامة ، حيث لم يخلى عصرهم من ارتكاب أشد أنواع المنكر والموبقات ، وربما كان للثروة التي تدفقت على مصر في عصر المماليك أثراً في ذلك الفساد، على قول ابن خلدون(١)، والامراض الاجتماعية التي فشت في مصر عصر سلاطين المماليك، تمثلت في الفساد الخلقي مثل الزنا، والشذوذ الجنسي، وتعاطي الحشيش والخمور، والرشوة .

السلطة القضائية والتنفيذية: وتتمثل في عدة وظائف كما يلي:

١) القضاء:

اهتم سلاطين المماليك بشئون القضاء والفصل في القضايا اهتماماً كبيراً، اذ أن القضاء كان يتمثل في قاضي قضاة الشافعية لجميع شئون الدولة، وأدخل السلطان الظاهر بيبرس تغيير شامل، فقد تم تعيين أربعة من قضاة القضاة يمثلون المذاهب الأربعة، ويتضح مما ذكره المقريزي والقلقشندي، أن قاضي القضاة الشافعي كان بيده عزل بعض موظفي الدولة عن وظائفهم، فضلاً عما كان يتمتع به من نفوذ على نواب الحكم التابعين له، فظل هذا القضاء أرفع درجة ثم يليه القضاء الحنفي، ثم المالكي، ثم الحنبلي، وسن السلطان الظاهر بيبرس عدة تشريعات(٢) لتهذيب أخلاق المسلمين ، لعل أهمها الأمر الذي أصدره في عام (٦٦٤هـ/١٢٦٦م) ومنع بموجبه بيع الخمور، وأغلق الحانات في مصر والشام، ونفي كثيراً من المفسدين(٣).

٢) قضاء العسكر

أما الجيش المماليكي فكان له (قضاة العسكر) وهم مختصون بشئون الجند والفصل في قضايا العسكر والمدنيين، وليس لهم ولاية على غير العسكر، وكانوا يرافقوا السلطان في سفره.

---

(١) ابن خلدون: مقدمة، ج٢، ص ٤١٨.

(٢) ابن تغري بردي: بدائع الزهور، ج١، ق١ ص ٣٢٣ – ٣٢٥ .

(٣) القلقشندي: صبح الأعشى، ج٤، ص ٣٥؛ المقريزي: السلوك، ج١، ص ٥٦٢ .

وفى العموم كان للقضاء دور هام في المجتمع المماليكي لكثرة اختصاصاتهم وتنوع مسئولياتهم، التي لم تتوقف عند حد الأحوال الشخصية، وإنما امتدت إلى جميع أنواع القضايا مدنية وجنائية، وإمامة المسلمين، ونظر الوصايا والأحباس، وشئون اليتامى، والمحجور عليهم والتدريس بالمدارس، وكان الفصل في المنازعات يتم في جلسات المحاكم التي كانت تُعقد في أحياناً في المساجد أو دور القضايا إذا وجدت، وكل ذلك يتم وفق ترتيب خاص مع مراعاة النظام وحرمة القضاء(١).

٣) العدل والإفتاء

تتمثل في أربعة قضاء، شافعي، حنفي، مالكي، وحنبلي، ويحضرون بالجلوس في دار العدل دون قضاء العسكر(٢).

٤) وكالة بيت المال

وهي وظيفة عظيمة الشأن تتعلق بمبيعات بيت المال ومشترياته من أراض وأدر وغير ذلك وما يجري مثل ذلك، ولا يليها إلا أهل العلم والديانة، ومجلسه بدار العدل: تارة يكون دون المحتسب، وتارة فوقه المحتسب بحسب رفعة قدر كل منهما في نفسه(٣) وكان يوصي بأن لا يبيع شيئاً من أملاك بيت المال في بقائه منفعة للمسلمين، أما ما يختص بالمواريث الحشرية فعليه أن يسهل من له الحق فيها الحصول على نصيبه ويختار نوابه في البلاد، ويطالب بحقوق بيت المال(٤).

٥) الحسبة

الحسبة هي أحد النظم الإسلامية التي وضعها المسلمون منذ وقت طويل، ترجع إلى أواخر العصر الأموي (٥) في عهد الخليفة هشام بن عبد الملك (١٠٥هـ - ١٢٥هـ/٧٢٤ -٧٤٣ م)، وكانت وظيفة الحسبة قوية الصلة بالسلطة القضائية حتى أنه كان يسند القضاء والحسبة في كثير من الأحيان إلى فرد واحد، وهى وظيفة عظيمة رفيعة الشأن(٦) ولها الأمر والنهي، والمحاسبة، ويتوجب على المحتسب الإثبات وصحة الوقائع، وسرعة البت في المخالفات، التي تتعلق بالآداب والعامة ونظام الأسواق ومراعاة

---

(١) المقريزي: المواعظ، ج٣، ص ٥٤ .

(٢)القلقشندي: صبح الأعشى، ج٤، ص ٣٦؛ المقريزي: المواعظ، ج١، ص ٥٦٢ .

(٣) القلقشندي: صبح الأعشى، ج٤، ص ٣٦-٣٧ .

(٤) الشربيني: النظم المالية، ص ٥٩ .

(٥) الشربيني: النظم المالية، ص ١٢٣ .

(٦) ابن تغري بردي: بدائع الزهور، ج١، ق١، ص٣٢٤ .

الأمانة في المعاملات التجارية، وآداب الطريق ونحوها[١] وكان له نواب يساعدونه في التفتيش على مرور الطرقات ونظافة الحوانيت وسلامة ما يقدمه الباعة لعامة الشعب ومراقبة الأسواق والموازين والمكاييل والمقاييس والخانات، **وكانت الحسبة ثلاثة أنواع:**

أ- **حق الله:** أي على المحتسب منع ما ينافي الشرع كترك الصلاة وعدم أداء الزكاة.

ب-**حق العباد:** ويتمثل في مراعاة العقود والمعاملات والموازين والأثمان.

ج- **حق مشترك بين حقوق الله وحقوق العباد:** كالإشراف على الطرقات والأسواق وغيرها.

السلطة التنفيذية وتتمثل في :-

محاسبة المقصرين ومحاربة الغلاء :

ويتضح مما سبق أن المحتسب[٢] مطالباً بحث الناس على أداء الزكاة ، ويشارك ناظر الدولة في أعماله ، حيث كانت الزكاة أحد الموارد المالية لدولة المماليك ، وكان مكلفاً بضبط الموازين ، والتحكم في الأسعار خاصة وقت وقوع الغلاء وتحديدها ، وأيضاً عليه مراقبة الأسعار في الأسواق ، وفتح مخازن الدولة ، وإشرافه عليها ، وتوزيع الفقراء علي الأغنياء ، ومراقبة دار الضرب وضبط النقود، واختبار الذهب والفضة ، وكان دور المحتسب له الأثر الهام في العامة والدولة ، لتجنب حدوث الاضطرابات ، وتوفير المال للدولة ، وعدم فرض ضرائب جديدة ، أيضاً كان يضاف للمحتسبين بجانب عملهم نظر الأحباس والأوقاف والإشراف عليها، ووكالة بيت المال[٣] ، لأن تلك الوظائف من وظائف ذوي العلم ، ولذلك كان عمل المحتسب مبني على الشدة والسرعة في الفصل ، ومن أجل ذلك كان المحتسب يعين من قبل السلطان، ثم يقوم هو بعد ذلك باختيار أعوانه ومساعديه ، وتؤدي بنا تلك الكلمات إلى الإشارة بالعقوبات التي كانت توقع على المذنبين في عصر المماليك ، وأولى هذه العقوبات ، السجن وكانت في هذا الوقت كما وصفها المقريزي بالظلام وكثرة الوطاويط والروائح الكريهة والقبائح المهولة[٤] ، ثم تأتى

---

(١) القلقشندي: صبح الأعشى، ج٤، ص ٣٦ .

(٢) الشربيني: النظم المالية، ص ١٢٣ -١٢٤ .

(٣) الشربيني: النظم المالية، ص ١٢٥-١٢٦ .

(٤) المقريزي: المواعظ: ج٣، ص ٣٠٥ .

بعدها عقوبة التشهير، ثم عقوبة الضرب بالسياط أمام الناس ، وهناك أمثلة أخرى متنوعة من هذه العقوبات ، مثل عصر أعضاء المذنب ، أو خلع أضراسه أو أنيابه وغير ذلك[١].

محاربة الزنا :

انتشر الزنا في عصر سلاطين المماليك، حتى اعترفت الدولة بالبغايا ففرضت عليهن ضرائب مقررة، وجمعت من هذه الضرائب "جملة مستكثرة"[٢] ، كما جعلت الدولة للبغايا ضامنة تذهب إليها محترفة البغاء لتسجيل اسمها عندها. وهكذا انتشر البغاء في مصر المملوكية ، حتى وقفت البغايا بالأسواق تحت أعين المارة ، ولم يقتصر ذلك على القاهرة والمدن الكبرى ، بل عم بلاد الصعيد والوجه البحري حيث خصص للبغايا حارات مربيه معينة ، وكان ضمان المغاني من أبشع المحرمات التي ترتكب في عصر المماليك ، وبتصريح من الدولة ، مما جعل دولة المماليك تقترب كثيراً من الدول الشيوعية حالياً، وكان مضمون ذلك أن من حق كل امرأة سواء كانت جارية أو ملكة أن تمارس البغاء – الذي يسمي حالياً بالدعارة "ضامنة المغاني " وكان يساعدها عدة أعوان ولا يقدر أي حاكم من منعها من فعل الفاحشة[٣] ، وقد كانت هناك أماكن معروفة في أنحاء مصر يمارس فيها الزنا جهراً ، وإذا مر بتلك الأماكن أي شخص كانت تلك الخواطئ تجبرنه إما على الزنا – لكى لا يدفع مالاً – إما يحصلن منه على فديه تعينهن في دفع ما عليهن من ضرائب للضامنة[٤] ، وترتب على ذلك انحلال وتمزق أسري في المجتمع .

وكان لهذا المكس فرعان أخران يشتركان معه في مضمونه وماهيته هما:

١- **حقوق السودان:** وهو عبارة عن ضريبة معينة من المال تحضل من كل عبد أو جارية عند نزولهم بالحانات لعمل الفاحشة.

٢- **حقوق القينات:** وهى أيضاً ضريبة تحصل من الجارية التي ترغب في عمل الفاحشة، ولكن أبطل ذلك كله عام (٧١٥هـ/١٣١٥م) لما كان فيه من الضرر للناس [٥] .

---

(١) عاشور: المجتمع المصرى، ص ٩٨-١٠٠ .

(٢) المقريزي: السلوك، ج٣، ص ٢٦٦ – ٢٧٠، ص ٣٠.

(٣)ابن اياس: بدائع الزهور، ج١، ق١، ص ٤٨٦ .

(٤) ابن اياس: بدائع الزهور، ج١، ق٢، ص ١٦٧؛ الشربيني: النظم المالية، ص ٢٠٠ .

(٥) الشربيني: النظم المالية، ص ٢٠١ .

موقف الدولة في معالجة انتشار الزنا

حاول السلطان بيبرس أن يحد من البغاء في البلاد ، فأبطل المكوس المقررة على البغايا[١] – ومنع البغاء في القاهرة وسائر البلاد ، فقام السلطان بيبرس في عام ٦٧٧هـ/١٢٧٨م بإلغاء هذا المكس ومحاربة البغايا ، كما حبس البغايا حتى يتزوجن ، بحيث لا يزاد في مهورهن عن أربعمائة درهم يعجل منها مئتان رغبة في تيسير زواجهن[٢] ، كذلك كان من جملة الضرائب التي ألغاها الناصر محمد عقب الروك الناصري ضريبة حقوق الفتيات ، وهي ما يجمع من "الفواحش والمنكرات" والضريبة المقررة على كل جارية أو عبد حين نزولهم بالخانات لعمل الفاحشة[٣] .

ثم نشأ مرة أخري فأبطله السلطان الناصر محمد بن قلاوون عام ٧١٥هـ /١٣١٥م [٤] ثم أبطله مرة أخري في عام ٧٢٤هـ/١٣٢٣م ثم أبطل في عهد السلطان الأشرف شعبان عام ٧٧٥هـ/١٣٧٣م [٥] وأبطله مرة أخرى نفس السلطان عام ٧٧٨هـ/١٣٧٦م [٦] ثم أعيد فأبطله السلطان المنصور على عام ٧٨٢هـ/١٣٨٠م من حماة والكرك وبعض أعمال الصعيد[٧] .

ويمكن القول أن بقاء هذا المكس كان مورداً دائما للدولة المملوكية حتى نهايتها ، رغم ما به من إساءة إلى دولة المماليك راعية الخلافة الإسلامية في تلك الحقبة من الزمن .

الشذوذ الجنسي:

وابتلى المجتمع كذلك في عصر سلاطين المماليك بتفشي الشذوذ الجنسي ، وقد ذكر الدكتور سعيد[٨] عاشور في كتابه المجتمع المصري نقلاً عن أبو المحاسن أن هذا الداء انتشر في الشرق منذ

---

(١) ابن تغري بردي: بدائع الزهور، ج١، ق١، ص ٣٢٦.

(٢) المقريزي: السلوك، ج٢، ص ٥٩.

(٣) المقريزي: المواعظ، ج١، ص ١٤٥ – ١٤٦؛ ابن تغري: النجوم، ج٩، ص ٤٩–٥٠ .

(٤) ابن اياس: بدائع الزهور، ج١، ق١، ص ٤٨٦.

(٥) ابن اياس: بدائع الزهور، ج١، ق٢، ص ١٢٣ .

(٦) ابن اياس: بدائع الزهور، ج١، ق٢، ص ١٦٧ .

(٧) ابن اياس: بدائع الزهور، ج١، ق٢، ص ٢٨٠؛ عاشور: المجتمع المصري، ص ٢٤٩– ٢٥٠ .

(٨) المجتمع المصري، ص ٢٥٠ .

دخول الخراسانية إلى العراق سنة ١٣٢هـ/٧٤٩ م أي منذ أوائل الدولة العباسية ، وعبر المقريزي[١] تعبيراً صريحاً عن انتشار هذا المرض بين المماليك بمصر، فقال بأنه "فشي في أهل الدولة محبة الذكران" حتى عمدت النساء إلى التشبه بالذكور في ملبسهم "فتشبه البغايا لبوارهن بالغلمان" ليستملن قلوب الرجال ، وبلغ من استفحال هذا المرض أن السلطان حسن عرف بحبه للنساء فقيل فيه أنه "لم يكن له ميل للشباب كعادة الملوك من قبله"[٢]، ثم انتشر هذا المرض بين رجال القلم ، علاوة عن رجال السيف، واتهم ابن حجر[٣] بعض الكتّاب والفقراء (الصوفية) بل القضاة بحب الغلمان ومعاشرة الأحداث، وقبض على الشيخ خضر بن أبي بكر بن موسي شيخ السلطان، وكان السلطان قد استدعاه إلى القلعة، وأحضر جماعة للتحقيق معه على أشياء كبيرة بدت منه كاللواط والزنا وغيره، فأمر السلطان باعتقاله، وسجنه بقلعة الجبل[٤] .

الحشيش والخمور:

وكان للحشيش والخمور شأن كبير في عصر المماليك، العصر الذى يعتبر من أهم العصور المليئة بالمتناقضات الاجتماعية والأخلاقية ، ويرجع ذلك التناقض إلى سياسة السلاطين ونشأتهم[٥]، فمنهم من كان على جانب من الدين ويهتم بشئون دولته ، ويهتم بإبطال الضرائب المفروضة على النواحي المحرمة ، كالسلطان الناصر محمد ، الذي يتبع ذلك بمحاربة هذه النواحي وازالتها، بينما هناك من السلاطين من كان على جانب كبير من الفسق والمجون ، ولديهم حب المال مهما كان مصدره، ومنهم من جعل من الخمر شعاراً لدولته [٦]، فليس من الغريب أن يكون لهذه السلبيات ضمان ، وقال المقريزي[٧] عن الحشيش أنها شجرة خبيثة فشت فشواً كبيراً ، وتظاهروا بها من غير احتشام ، وفُرض على الحشيش في أوائل عصر المماليك ضريبة ، تمد الدولة بجملة كلفية حتى أُلغيت سنة

---

(١) السلوك: ج ٣، ص ١٧٣؛ المواعظ، ج١، ص ١٤٦ -١٤٧ ؛ عاشور: المجتمع المصري، ص ٢٥٠ .

(٢) المقريزي: السلوك، ج٣، ص ١٩٧ .

(٣) المقريزي: المواعظ، ج٢، ص ١٩٩ -٢٠٠ ؛ ابن حجر: الدرر الكامنة، ج١، ٢١٠ .

(٤) المقريزي: السلوك، ج٢، ص ٨٢.

(٥) الشربيني: النظم المالية، ص ١٩٩ .

(٦) المقريزي: السلوك، ج٣، ص ١٧٣ .

(٧) السلوك، ج٣، ص ٢٠٤ – ٢٠٥، ج٢، ص ٣٦.

٦٦٥هـ/١٢٦٦م [(١)] وذكر المقريزي[(٢)] أن الظاهر بيبرس ألغي الحشيش والخمور في حوادث سنة ٦٦٤هـ/١٢٦٥م ، ولم يقتصر تفشي الحشيش على الطبقات الدنيا من الشعب ، بل تخطاها إلى غيرها من الطبقات حتى شغف بها كثير من العلماء والقضاة، والصوفية ، والفقراء[(٣)]، كما فُضِّل الحشيش على الخمر، وكثر الفساد والفواحش وأمر سلاطين المماليك منهم السلطان الظاهر بيبرس والناصر محمد أمروا بإبطال ذلك في مصر وبلاد الشام[(٤)] .

واشتهرت أرض الطبالة بالقاهرة بزراعة الحشيش، وأيضاً اشتهر باب اللوق ، ولم يكن الحشيش فقط هو المخدر الوحيد الذى عرفه المصريون في عصر المماليك ، بل كان هناك قضاة من ذلك العصر اتهموا بتعاطي الأفيون ، وقد تعددت أنواع المخدرات والخمور إلى أنها كانت تُنسب أنواع من الخمور بأسماء بعض الأمراء المماليك مثل التمربغاوي نسبة إلى الأمير تمربغا، والبشتكي نسبة إلى الأمير بشتك[(٥)] .

وشاع شرب الخمر بين عامة الشعب حتى إذا وقع هجوم على كنايس أهل الذمة أو بيوتهم ، أسرع العامة إلى نهب ما بها من خمور واحتسائها في الحال قبل أن ينتزعها منهم أحد[(٦)] كذلك قيل عن أبى بكر بن محمد بن قلاوون (المنصور سيف الدين) أنه عكف في قصره على الشراب ومعه ندماؤه من الأمراء ، حتى لا يكاد الواحد منهم يفيق ساعة واحدة[(٧)] وقد لجأ سلاطين المماليك في أوقات الشدة إلى إراقة الخمور، وتحريمها في أنحاء مختلف البلاد إظهاراً للتوبة، كما حدث سنة ٧٠٩هـ/١٣٠٩ م وسنة ٧٨١هـ/١٣٧٩م ، ولكن هذه الأمور لم تستمر إلا مدة قصيرة من الزمن ، ثم يعود الناس بعدها إلى التظاهر بشرب الخمر ولم ينتهوا عما هم فيه[(٨)] بل ظل فرض مكس الخمر طوال عصر دولة المماليك أو ظل إلى نصفها الأخير وذلك بفعل ودسائس أهل الظلم والمكر والفساد[(٩)].

---

(١) ابن تغري بردي: بدائع الزهور، ج١، ق١، ص ٣٢٦ – ٣٢٧؛ عاشور: المجتمع، ص ٢٥٢.

(٢) المقريزي: السلوك، ج٢، ص ٣٤، ٣٦، ٣٨.

(٣) المقريزي: السلوك، ج٣، ص ٢٠٣؛ عاشور: المجتمع، ص ٢٥٢.

(٤) المقريزي: السلوك، ج٢، ص ٤٩، و ص ٥٩، و ص ٧٥ ؛ والمواعظ، ج٢، ص ١٩٩ –٢٠٠.

(٥) المقريزي: السلوك، ج٣،ص ٢٣٥ – ٢٣٦؛ عاشور: العصر المماليكى، ص ٣١٤ .

(٦) المقريزي: السلوك، ج٣، ص ٣٧ ؛ عاشور: المجتمع المصري، ص ٢٥٥ .

(٧) المقريزي: السلوك، ج٣، ص ٤٢٤.

(٨) عاشور: المجتمع المصري، ص٢٥٢.

(٩) ابن حجر: انباء الغمر، ج٣، ص ٣٩٩؛ الشربيني: النظم المالية، ص ١٩٩ .

تزييف النقود وإبطال المكوس المحرمة وموقف الدولة في معالجة ذلك :

من المنطقي أن يكون للنظام النقدي أثره الخطير على حركة أسواق دولة المماليك ، ففي بداية عصر المماليك كان رصيد الدولة من الذهب والفضة كثيراً ، وعلى مدى مائة وثلاثين عاماً تقريباً ، لم تحدث أزمة نقد خطيرة تسبب ارتفاعاً مفاجئاً في الأسعار، إذ كانت دور صك النقود تجد كفايتها من الذهب والفضة لصك الدنانير الذهبية والدراهم الفضية ، وكان الذهب يأتي أساساً من بلاد غانا والتكرور (مالي الحالية)[١] ، والتي كانت تربطها بمصر علاقات وطيدة في ذلك الحين على المستوي الاقتصادي والديني والثقافي ، أما الفضة تأتي من أوربا أو من وسط آسيا .

وبفضل توفر الفضة استطاع السلطان الظاهر بيبرس[٢]، أن يجعل نسبة الفضة في الدرهم سبعين في المائة من وزنه ، وقد تمكن سلاطين البحرية من سك دراهم فضية ثابتة القيمة وصل متوسط وزنها إلى ٢.٩٧ جم ، فكان النظام النقدي والسعري[٣] ، يستند على قاعدة ذهبية وفضية ، ضمنت للأسواق حالة من الاستقرار والرواج ، ولكن مع ظهور النقود النحاسية منذ وقت مبكر، ثم حلُولها محل النقود الذهبية والفضية كأساس للأسعار، كان عاملاً لإنتشار الفساد ، وغلاء الأسعار .

وتداول الغش في السلع التجارية ، وكساد الأسواق[٤]، ووجود الأزمات ، وتزييف النقود ، ففي سنة ٧٢٠هـ/١٣٢٠م تعرض السوق الداخلي لهزة مؤقتة بسبب الزغل (تزييف النقود) وقامت الدولة بتسعير الفلوس على أساس الوزن تارة ، وضرب وتشهير الباعة لإجبارهم على التعامل بهذه الفلوس تارة ، ثم الأمر بعدم تداول الفلوس ما لم تكن عليها علامة صك النقود تارة ، فظلت الأسعار ترتفع حتى عاد السلطان الناصر محمد بن قلاوون من سفره ، وتدخلت الدولة بقوة والعمل على التسعير ومحاربة المحتكرين ، وأمر بصك فلوس جديدة بسعر جديد ، كما تحدد سعر الفلوس القديمة على أساس الوزن فانفرجت الأزمة[٥] ، أيضاً في سنة ٧٢١هـ/١٣٢١م توقف حال الناس في أمر الفلوس لكثرة الزغل فيها

---

(١) قاسم عبده: التاريخ السياسي، ص ٨٠.

(٢) المقريزي: السلوك، ج٢، ص ١٠.

(٣) قاسم عبده: التاريخ السياسي، ص ٨١.

(٤) المقريزي: السلوك، ج٣، ص ٤٩.

(٥) المقريزي: السلوك، ج٣، ص ٢٦ –٣٠.

، ورسم السلطان أن تكون الفلوس بالميزان ، بعد ما ضرب كثيراً من الباعة[1] ، كذلك جدث في سنة ٧٢٥ هـ/١٣٢٤م أن كثر غش الفلوس، فتوقفت الناس عن التداول بها ، وكثر ردها ، وعقوبة الباعة على ذلك بالضرب والتجريس، إلى أن فسد الحال ، وأغلقت الحوانيت وارتفعت الأسعار، وتكررت مثل هذه الأزمة سنة أيضاً في سنة ٧٣٦هـ / ١٣٣٥م اشتد وطأة النشو على الناس، وابتكر مظلمة بأن أُلزم الصاغة وأهل الضرب إلا يبتاع أحد منهم ذهباً ، بل يُحمل الذهب جميعه إلى دار الضرب، ليُصك بصكه السلطان ويضرب دنانير هرجة، ثم تصرف بالدراهم ، واشتد الغلاء وارتفعت الأسعار ، وذلك أغضب السلطان كثيراً وعوقب على ذلك[2] .

وأيضاً في سنة ٧٤٥هـ/١٣٤٤م كثر الزغل وكانت العملة فيها بالعدد وخفت العملة واختلطت العملة بفلوس الشام وكانت واسعة وكانت تقطع ست قطع كل منها فلس إلى أن أفحش ذلك ، وكثر التعنت فطلب السلطان المحتسب والوالي وأنكر عليهما ، فقبضا على كثير من الباعة وتم عقابهم ، وتحسنت الأسعار وتمت المعاملة في الفلوس الخفيفة بالوزن وماعدا ذلك يؤخذ بحساب كل رطل درهمين ، ولا يقبل فيه نحاس ولا رصاص ، فشريت الفلوس ، وأُخذ منها ما عليه الصكة السلطانية[3] وسنة ٧٤٩هـ١٣٤٨م توقفت الأحوال بسبب الزغل بالرصاص والنحاس وغلقت الحوانيت ، فنودي ألاَّ يُؤخذ من الفلوس إلاَّ ما عليه صك السلطان ، ويُرد الرصاص والنحاس الأصفر، فمشت الأحوال[4].

الرشوة:

من أهم مظاهر الانحلال الخلقي في عصر المماليك انتشار الرشوة وكان يُعبر عنها (البراطيل) بين الحكام والمحكومين ، ولا جدل أن المال هو أصل البلاء فيما يشاع من زور وبهتان وفساد ، بين الخاص والعام ، وكان ذلك أصل الفساد حيث تتحكم الرشوة في ولاية الخطط السلطانية والمناصب الدينية كالوزارة والقضاء ، وولاية الأقاليم والحسبة وسائر الأعمال ، بحيث لا يمكن التوصل إلى شيء منها إلا بالمال الجزيل[5] ، وهناك أمثلة كثيرة من ذاك العصر لقضاة ومدرسين بلغوا مناصبهم عن طريق الرشوة، فإذا استقروا فيها استمروا في رشوة أهل الدولة بإعطائهم الأوقاف وتأجيرها لهم بأبخس الأثمان ، حتى

---

(١) المقريزي: السلوك، ج٣، ص ٤٩.

(٢) المقريزي: السلوك، ج٣، ص ١٩٨ – ١٩٩؛ عاشور: العصر المماليك، ص ٣١٦.

(٣) المقريزي: السلوك، ج٣، ص ٤١٨.

(٤) المقريزي: السلوك، ج٤، ص ٨٠.

(٥) المقريزي: السلوك، ج٣، ص ٢٣٦؛ عاشور: المجتمع المصري، ص ٢٥٥.

يضمنوا البقاء في مناصبهم ويأسف المقريزي الذى عاصر بعض من ذلك ، لأن التظاهر بالبراطيل صار عُرفاً غير منكر البتة[١] .

وكان لمنصب الحسبة أموراً كثيرة في الرشوة من أجل تولية المنصب ، وكان بعض المحتسبين ، يتغاضون عن بعض أصحاب الحسبة عن الباعة الذين يغشون الناس ، وذلك نظير ضرائب مقررة ، يجمعها المحتسب ، لكى يؤدى منها ما استدان به من المال الذى دفعه رشوة عند ولايته ، ويؤخر الباقي لهدايا أتباع السلطان ليكونوا أعواناً له على بقائه في المنصب ، وكان السلطان يقول " ولينا قضاة جياداً أفسدهم"[٢] .

وأدرك عامة الناس هذا الطريق لقضاء حوائجهم ، فإذا سمعوا أن شخصاً له مكانة ووجاهة عند السلطان ، أسرعوا إليه يقدمون الهدايا والرشاوى ويساومونه على قضاء حوائجهم ومطالبهم[٣] ، ثم تطور الأمر إلى بيع الوظائف الدينية نفسها ، فينزل الفقيه عن وظيفته في وقف من الأوقاف أو في الدروس أو في الخوانق أو القراءة أو المباشرة ، وذلك مقابل مبلغ يدفعه له طالب الوظيفة .

وهكذا يلى الوظائف غير أهلها، فصارت الوظائف مثل الأحوال المملوكة ، يبيعها صاحبها إذا شاء، ويرثها بعده صغار ولده ، وسري ذلك في التدريس ، ونظر الجوامع والمدارس ومشيخة التصوف[٤]. ومن ثم تم استحداث ادارات ووظائف جديدة لم تكن من قبل لمساعدة الدولة في مواجهة ذلك مثل ديوان الأزهر وغيره.

---

(١) المقريزي: السلوك، ج٣، ص ٢٣٨ – ٢٦٤ ؛ عاشور: المجتمع المصري، ص ٢٥٧.

(٢) المقريزي: السلوك، ج٣ ص ٢٣٩.

(٣) المقريزي: السلوك، ج٤، ص ١٣، ٦٣ – ٦٤؛ عبد الرازق: البذل والبرطلة، ص ٢٥.

(٤) المقريزي: السلوك، ج٤ ص ٧٨.

خاتمة الدراسة

خاتمة الدراسة

وفي ختام هذا البحث ومن خلال ما سبق يتضح لنا أن هذا الموضوع من الموضوعات الهامة المؤثرة في مجالات الحياة، فيجب الاهتمام به حتى نرتقي ونتقدم بوطننا العزيز مصرنا الغالية، كما نستطيع أن نتبين أن هذا الموضوع شديد الأهمية، وينبغي أن نبذل فيه كل الجهود الممكنة، وأن يحظى بكل العناية المتوفرة وكل الاهتمام المستطاع تقديمه، وينبغي علينا أخذ الدروس والعبرات التي تفيد المجتمع والأفراد، ومواجهة الأخطار الداخلية والخارجية، طبيعية كانت أو بشرية، للنهوض بالدولة والتقدم بحضارتها، ويتضح لنا من خلال البحث في تلك الفترة أنها تمثل إضافة ذات قيمة لدراسات الاتصال الحضاري، فهناك ثمة حقيقة يجمع عليها مؤرخو عصر دولة المماليك، سواء من كان منهم معاصراً للأحداث أو من الباحثين المُحدثين، ونقصد بهذه الحقيقة ذلك الفرق الواضح بين خط الصعود والنمو في عصر المماليك البحرية (٦٤٨-٧٨٤هـ/١٢٥٠- ١٣٨٢ م) وخط التدهور والاضمحلال في عصر المماليك الجراكسة (٧٨٤ – ٩٢٣هـ/١٣٨٢ – ١٥١٧ م) ويبدو أن واقع ما تمدنا به المصادر التاريخية المتاحة يكشف عن أن كافة مظاهر التدهور التي عانت منها مصر وبلاد الشام، تحت حكم الجراكسة، كانت موجودة بشكل أو بأخر منذ قيام دولة المماليك، ولكن الدولة في طور شبابها كانت قادرة على أن تتغلب على الأزمات بشكل أو بأخر، أو تكبتها إلى حين، وذلك بفضل بعض السلاطين الأقوياء القادرين وبفضل الموارد اللازمة، ويجدر بنا أن نشير إلى حقيقة هامة مؤداها أن غالبية الأزمات الاقتصادية، التي سببت المجاعات والأوبئة التي ألمت بمصر وبلاد الشام في ذلك الحين، إنما كانت مرتبطة بنهر النيل وفيضانه السنوي، الذي تعتمد عليه الزراعة في البلاد، ففي عصر المماليك كما في غيره من العصور، ظل النهر العظيم، قوام الحياة المصرية وعليه مدارها وعلى الرغم من الأرباح التي جنتها الدولة من تجارة المرور، إلا أن النيل ظل هو المؤثر الأول في كافة نواحي الحياة، كما أن المماليك وضعوا بصماتهم على التاريخ، وكان لهم مكانة خاصة بارزة، تجعل من عصر المماليك عصراً جديراً بمزيد من البحث والدراسة، بالإضافة إلى الأحداث الخارجية والداخلية التي ارتبطت بذلك العصر لا تنعكس أهميتها على مصر والشام فقط، وانما على تاريخ الشرق الأدنى عامة في العصور الوسطي فضلاً عن التيارات العالمية الكبرى – اقتصادية وغير اقتصادية – التي ارتبطت ارتباطاً مباشراً بتاريخ المماليك في مصر والشام.

نتائج الدراسة:

١- الحضارة المصرية عبر كل العصور حضارة نهرية قامت أساساً على نهر النيل، وفي عصر المماليك تميز ذلك النهر بكونه وسيلة مواصلات طبيعية لا نظير لها، بواسطتها أمكن تبادل منتجات البلاد بين أنحائها، ووسيلة للسفر، وجعل مصر آنذاك سوقاً طبيعية لتبادل منتجات أوربا وآسيا وأفريقيا، فكان فيضان النيل أو قصوره، من أهم الأسباب الطبيعية في خلق الأزمات الاقتصادية، والتي تتمثل في المجاعات والآفات والأوبئة في عصر المماليك.

٢- كان لهجوم الجراد والآفات الزراعية دور مهم وسبب طبيعي في خلق الأزمات الاقتصادية، مما كان له من تأثير على الزراعات، وندرة الغلال، وعدم وجود الأقوات، ورفع الأسعار وانتشار الفتن والغلاء، وحدوث المجاعات، واستغلال التجار واحتكار بعض الزراعات، وتبوير الأراضي الزراعية، وانتشار الأمراض بين طوائف الشعب.

٣- من أهم الأزمات في دولة المماليك انتشار الوباء والطاعون، وتفشي الأمراض، ونتج ذلك عن فيضان النيل أو قصوره، والذي كان سبباً طبيعياً في موت البشر وضعف الكثافة السكانية.

٤- الحروب الخارجية والداخلية أدت إلى فوضي عارمة في خلق الأزمات الاقتصادية، وتأثر البلاد بالخسائر في الأموال والأرواح، وفي انتقال الأمراض، وضعف الاقتصاد، وتتسبب في كثير من الأحداث التي تضر بالبلاد.

٥- أن للدولة المملوكية الحاكمة دور مهم في مواجهة الأزمات الاقتصادية، ويتمثل دورها في التحكم في زمام أمور الدولة، ومباشرة الأعمال الرقابية، وزيادة التوسع في المجالات الاقتصادية والتجارية، لكى تسد حاجة البلاد، ومواجهة الأزمات، والتغلب على المشكلات الناتجة من الطبيعة أو من البشر، خارجية كانت أو داخلية، فقامت الدولة بالاهتمام بإقامة الجسور والسدود، وحفر الخلجان والترع، وقاموا ببناء البيمارستانات، واكتشفوا كثيراً من العلاجات والعقاقير، واهتموا باستصلاح الأراضي الزراعية، والصناعات، وأنشئوا الأسواق، وعقدوا المعاهدات التجارية، وحموا الثغور، وحاربوا الغلاء، ومنعوا الرشوة، وأبطلوا المكوس، والضرائب، وحاسبوا المقصرين، وتحكموا في زمام الأمور ونهضوا بالحياة من كافة جوانبها وكانت الدولة المملوكية، قوة مستقلة

ذات قيمة حضارية عظيمة، يشهد لها تاريخ العصور الوسطى، ليس في مصر والشام فحسب، بل في تاريخ الشرق الأدنى كله.

التوصيات:

١- الاستفادة من حل ومعالجة دولة المماليك للأزمات الاقتصادية طبيعية كانت أو بشرية.

٢- استفادة الدول الحديثة من تاريخ الدول القديمة في مواجهة الأزمات وتفاديها عن طريق الاسترشاد بخبراتها.

٣- العمل على تحسين الجهاز الإداري للدولة والمصالح الحكومية ورعاية شئون البلاد لما له من أهمية في تجنيب البلاد المخاطر.

٤- الاهتمام بكافة الأزمات التي تتعرض لها الدولة والأفراد، ووضع خطط مناسبة لعلاجها.

٥- تعليم طلاب المدارس على مر المراحل تاريخ دولة المماليك وغيرها من الدول لتحصيل الفوائد المستنبطة من التاريخ على مر العصور .

٦- تنفيذ دورات علمية لتعليم النشء في المدارس والنوادي والأماكن العامة طرق مواجهة وحل الأزمات.

٧- الدراسة والبحث في الأزمات الاقتصادية تمثل إضافة ذات قيمة لدراسات الاتصال الحضاري للدولة ومواجهة الكوارث.

٨- ضرورة اعتراف الدولة بالأزمة والعمل على حلها ووضع خطة تتناسب مع نوع الأزمة فهذا في حد ذاته أولى خطوات مواجهة هذه الأزمة وغيرها من الأزمات.

ملاحق الدراسة

ملحق رقم (١)

أسماء السلاطين المماليك وفترة حكمهم

الاسم	فترة حكمه
عصمة الدين أم خليل شجر الدر الأرمينية	١٢٥٠-١٢٥٠
المعز عز الدين أيبك	١٢٥٧-١٢٥٠
المنصور نور الدين على بن أيبك	١٢٥٩-١٢٥٧
المظفر سيف الدين قطزالخوارزمي	١٢٦٠-١٢٥٩
الظاهر ركن الدين بيبرس البندقداري	١٢٧٧-١٢٦٠
السعيد ناصر الدين محمد بركة قان بن الظاهر بيبرس	١٢٧٩-١٢٧٧
العادل بدر الدين سُلامش بن الظاهر بيبرس	١٢٧٩-١٢٧٩
المنصور سيف الدين قلاوون	١٢٩٠-١٢٧٩
الأشرف صلاح الدين خليل	١٢٩٣-١٢٩٠
الناصر محمد بن قلاوون	١٢٩٤-١٢٩٣
العادل زين الدين كتبغا	١٢٩٦-١٢٩٤
المنصور حسام الدين لاجين	١٢٩٩-١٢٩٦
الناصر محمد بن قلاوون	١٣٠٨-١٢٩٨
المظفر ركن الدين بيبرس الجاشنكير	١٣٠٩-١٣٠٨
الناصر محمد بن قلاوون	١٣٤٠-١٣٠٩
المنصور سيف الدين أبو بكر بن الناصر محمد بن قلاوون	١٣٤١-١٣٤٠

الاسم	فترة حكمه
الأشرف علاء الدين كجك بن الناصر محمد	١٣٤١-١٣٤٢
الناصر شهاب الدين أحمد بن الناصر محمد	١٣٤٢-١٣٤٢
الصالح عماد الدين إسماعيل بن الناصر محمد	١٣٤٢-١٣٤٥
سيف الدين شعبان بن الناصر محمد	١٣٤٥-١٣٤٦
المظفر زين الدين حاجي بن الناصر محمد	١٣٤٦-١٣٤٧
الناصر بدر الدين أبو المعالي الحسن بن الناصر محمد	١٣٤٧-١٣٥١
الصالح صلاح الدين صالح بن الناصر محمد	١٣٥١-١٣٥٤
الناصر بدر الدين أبو المعالي الحسن بن الناصر محمد	١٣٥٤-١٣٦١
المنصور صلاح الدين محمد بن حاجي بن قلاوون	١٣٦١-١٣٦٣
الأشرف زين الدين شعبان بن حسن بن محمد بن قلاوون	١٣٦٣-١٣٧٦
المنصور علاء الدين على بن شعبان	١٣٧٦-١٣٨١
الصالح زين الدين حاجى	١٣٨١-١٣٨٢

ملحق رقم (٢)

ثبت المجاعات والأوبئة التي ألمت بمصر في عصر المماليك البحرية

التاريخ	ملاحظات حول المجاعة أو الو باء	المصدر أو المرجع
٦٢٢هـ/١٢٢٥م	غلاء ناتج عن قصور النيل، وأكل الناس أوراق اللفت والكرنب وأوراق الول الأخضر.	المقريزي: السلوك، ج٢، ص ٥-٦؛ النويري: نهاية الأرب، ج٣٠، ص، ٥٩-٦٠.
٦٧٢هـ/١٢٧٣م	وقع في مصر وباء وكان أكثر ضحاياه من النساء والأطفال.	المقريزي: السلوك، ج٢، ص ٨٧؛ العيني، عقد الجمان، ج ٢، ص ١٢٠.
٦٩٤هـ-٩٥هـ /١٢٩٤-١٢٩٥م	توقف النهر عن الزيادة، نتج غلاء ومجاعة وعقب ذلك وباء شامل حتى عجز الناس عن موارة موتاهم وخلت القري من سكانها	الذهبي: تاريخ الإسلام، ج ٥٢، ص ٣٧-٤٢؛ المقريزي، السلوك، ج ٢، ص ٢٦١- ٢٦٧؛ العيني: عقد الجمان، ج ٣، ص ٢٧٥ -٢٧٨.
٧٠٩هـ/١٣٠٩م	فشت في الناس أمراض حادة، ولكن لم تتسبب في موت الكثيرين، وصحب ذلك قصور النيل والغلاء بطبيعة الحال.	المقريزي: السلوك، ج ٢، ص ٤٣١؛ ابن تغري: النجوم، ج٨، ص ٢٤٣.
٧١٦هـ/١٣١٦م	هبت رياحاً سوداء وأعقبها مطر ثم الوباء بأرض أسوان واسنا	المقريزي: السلوك، ج ٢، ص ٥١٦.
٧٢٠هـ/١٣٢٠م	فشت الأمراض الكثيرة في مصر، وقل إن سلمت منه دار، ولكن كان المرض سليماً والموت قليلاً.	السيوطي: حسن المحاضرة، ج٢، ص ٣٠٢؛ ابن الوردي: تاريخ ابن الوردي، ج٢، ص ٢٦١.

التاريخ	ملاحظات حول المجاعة أو الو باء	المصدر أو المرجع
٧٣١هـ/١٣٣٠م	تفشى الوباء بمصر، ووصفه ابن أيبك بأنه كان يسيراً.	ابن أيبك: كنز الدرر، ج ٩، ص ٣٥٨ – ٣٥٩.
٧٣٦هـ/١٣٣٥م	توقف النهر عن الزيادة ونتج غلاء ومجاعة جعلت السلطان النار محمد يأمر بفتح شون الأمراء لإطعام الفقراء وكتب بجلب الغلال من الشام.	المقريزي: السلوك، ج ٣، ص ١٩٩–٢٠٠١. اليوسفي: نزهة الناظر، ص ٢٩٤ –٣٠١؛ ابن الجزري: تاريخ، ج ٣، ص ٨٦٤ – ٨٦٥.
٧٤٧هـ/١٣٤٦م	حدث غلاء في مصر، وحدث غلاء مماثل في حلب أيضاً.	المقريزي: السلوك، ج ٤، ص ٢٥ –٢٧؛ ابن الوردي: تاريخ، ص ٣٣٣.
٧٤٩هـ/١٣٤٨م	الفناء الكبير أو الوباء الأسود وهو وباء شمل كل أرجاء الكرة الأرضية لزحف بعض الأمراض الوبائية من مشارق آسيا غرباً تجاه مصر وأوروبا وهلك أعداد مهولة من المخلوقات.	ابن الوردي: التاريخ، ج ٢، ص ٣٣٩؛ ابن كثير: البداية، ج ١٤، ص ٢٦٠؛ المقريزي: السلوك، ج ٤، ص ٨٠ –٨١؛ ابن قاضي شهبة: التاريخ، ج ١، ص ٥٤١ – ٥٤٢؛ ابن حجر: بذل الماعون، ص ٢٣٠؛ المقريزي: السلوك، ج ٤، ص ٨٠.
٧٦١هـ/١٣٥٩م	انتشر الوباء بالقاهرة واستمر قائماً بالبلاد حتى عام ٧٦٢هـ ومات فيه كثير من الأعيان.	ابن تغري: النجوم، ج١٠، ص٣١١؛ ابن قاضي شهبة ج ٢ص ١٧٩؛ السخاوي، الذيل، ج ١، ص ١٧٨؛ ابن شاهين، نيل ج ١، ص ٣٢٠-٣٢٣.
٧٦٤هـ/١٣٦٢م	فشت الطواعين والأمراض الحادة بالناس في القاهرة ومصر وعامة الوجه البحري.	المقريزي: السلوك، ج ٤، ص ٢٦٧؛ السخاوي، الذيل، ج ١، ص ١٩٥، ابن قاضي شهبة: التاريخ، ج ٢، ص ٢١٩-٢٢٠.

التاريخ	ملاحظات حول المجاعة أو الو باء	المصدر أو المرجع

٧٦٩هـ/١٣٦٧م	انتشر الوباء الرهيب في القاهرة ومصر حيث بلغ عدد الموتى يومياً أكثر من مائة نفس واستمر كذلك حوالي أربعة أشهر.	المقريزي: السلوك، ج ٤، ص ٣١٩؛ ابن تغري بردي: النجوم، ج ١١، ص ٥٢؛ السخاوي: الذيل، ج ١، ص ٢٢٧؛ ابن شاهين: نيل الأمل، ج ١، ص ٤١٨.
٧٧٥هـ/١٣٧٣م	توقف النهر عن الزيادة واستسقي الناس و مات عدد كثير من ذوات الأربع وفشت الأمراض في الإسكندرية والمناطق المجاورة لها.	ابن قاضي شهبة: التاريخ، ج ٢، ص ٤٣٦؛ المقريزي: السلوك، ج ٤، ص٣٦٧؛ ابن شاهين: نيل الأمل، ج ٢، ص ٦٦.
٧٧٦هـ/١٣٧٤م	حدثت مجاعة في مصر، وصاحبها انتشار الوباء وخاصة في أغنياء الناس، وقُدر عدد ضحايا هذا الوباء في هذا الشهر ٥٠٠ شخص يومياً.	المقريزي: السلوك، ج ٤، ص ٣٧٣ – ٣٧٨؛ السخاوي: الذيل، ج١، ص ٢٧٣؛ ابن قاضي شهبة: تاريخ، ج ٢، ص ٤٤٧ – ٤٥٠.
٧٧٧هـ/١٣٧٥م	حدث غلاء بالشام ولجأ الناس إلى أكل الميتة والقطط والكلاب ويقال أن البعض باع أولاده وافتقر خلق كثير وتلى ذلك انتشار الوباء.	المقريزي: السلوك، ج ٤، ص ٣٩١.
٧٧٨هـ/١٣٧٧م	انتشر الوباء في مصر واستمر طول العام ومات في هذا الوباء أعداد كبيرة من الناس.	المقريزي: السلوك، ج ٥، ص ٢١.
٧٧٩هـ/١٣٧٧م	أهلت والأمراض في الناس فاشية فتزايد الوباء ومات خلق كثير من الناس بالطاعون.	المقريزي: السلوك، ج ٥، ص ٢٧.

التاريخ	ملاحظات حول المجاعة أو الو باء	المصدر أو المرجع
٧٨٢هـ/١٣٨٠م	تفشى الوباء في مدينة الإسكندرية وكان يموت كل يوم حوالى ١٥٠ إنسان.	المقريزي: السلوك، ج ٥، ص ٩٥؛ ابن حجر: أنباء الغمر، ج١، ص٢١٩.
٧٨٣هـ/١٣٨١م	تفشى الطاعون في مصر، واشتد أمره وقُدر عدد الموتى يومياً بحوالي ٣٠٠ شخص يومياً.	المقريزي: السلوك، ج ٥، ص ١٠١؛ ابن حجر: إنباء الغمر، ج ١، ص ٢٣١؛ ابن العراقي: الذيل، ج ٢، ص ٥٠٦؛ ابن شاهين: نيل الأمل، ج ٢، ص ١٧٤.
٧٨٤هـ/١٣٨٢م	وقع الغلاء بمصر وارتفعت الأسعار ووقع الطاعون بدمشق حتى قارب عدد الموتي ٣٠٠ نفس.	ابن حجر: إنباء الغمر، ج ١، ص ٢٥٣؛ المقريزي: السلوك، ج ٥، ص ١٣٥؛ السيوطي: حسن المحاضرة، ج٢، ص ٣٠٦.

قائمة المصادر والمراجع

أولاً: قائمة المصادر باللغة العربية:

- **ابن أبي أصيبعة: أبي العباس أحمد بن القاسم بن خليفة بن يونس الخزرجي (ت ٦٦٨هـ/١٣٦٦م)**

١- عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ٣ ج، تحقيق عامر النجار، ط١، الناشر: دار المعارف القاهرة ١٩٩٦م.

- **ابن أبي الفضائل: مفضل ابن العسال المصرى القبطى (ت ١٣٥٧/٧٥٩م)**

٢- النهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد، ج١، تحقيق محمد كمال الدين عز الدين، ط١، الناشر دار سعد الدين، دمشق سوريا، د ت

- **ابن الأثير: أبي الحسن على ابن أبي الكرم محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني (ت سنة ٦٣٠هـ/١٢٣٢م)**

٣- الكامل في التاريخ، ١١ج، تحقيق: أبو الفداء عبد الله القاضي، وراجعه وصححه محمد يوسف الدقاق عدد المجلدات ١١، ط٤، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، سنة ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م.

- **الأصفهاني: أبي عبد الله محمد بن محمد بن حامد (ت سنة ٥٩٧هـ/١٢٠٠م)**

٤- الفتح القسي في الفتح القدسي، ١ ج، الناشر دار المنار، سنة ٢٠٠٤م.

- **ابن اياس: محمد بن أحمد: (ت ٩٣٠هـ/١٥٢٣م)**

٥- بدائع الزهور في وقائع الدهور، ٥ ج، تحقيق محمد مصطفى، ط١، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، سنة ١٩٨٤م.

- **ابن أيبك: أبو بكر بن عبد الله ابن أيبك الدواداری: (ت٧٦٤هـ/١٣٦٢)**

٦- كنز الدرر وجامع الغرر، ٨ ج، تحقيق بيرند راتكه-إدوارد بدين-محمد السعيد جمال الدين- جونهيلد جراف- - دوروتيا كرافولسكي-صلاح الدين المنجد- أولرخ هارمان-هانس روبرت رويمر- سعيد عبد الفتاح عاشور، الناشر: عيسى البابي الحلبي، القاهرة (١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م).

• **ابن بطوطة: محمد بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم أبو عبد الله الطنجي (ت٧٧٩هـ/١٣٧٧م)**

٧- رحلة ابن بطوطة تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، ١ج، تحقيق محمد عبد المنعم العريان _ مصطفى القصاص، ط١، الناشر: دار إحياء العلوم – بيروت لبنان، سنة النشر: ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.

• **بيبرس المنصوري: ركن الدين بيبرس المنصوري الناصري الدوادار المصري (ت ٧٢٥هـ/١٣٢٤م)**

٨- التحفة الملوكية، تحقيق دكتور عبد الحميد صالح حمدان، ط١، الناشر الدار المصرية اللبنانية سنة ١٩٨٧م

٩- مختار الأخبار، تحقيق دكتور عبد الحميد صالح حمدان، ط ١، الناشر الدار المصرية اللبنانية سنة (١٤١٣هـ/١٩٩٣م).

• **ابن تغري بردى: جمال الدين أبو المحاسن الأتابكي (ت ٨٧٤هـ – ١٤٧٠ م)**

١٠- النجوم الزاهرة، ١٦ ج، الناشر: وزارة الثقافة – دار الكتب القاهرة سنة النشر: ١٣٨٣ – ١٩٦٣ .

١١- حوادث الدهور في مدى الايام والشهور، تحقيق محمد كمال الدين عز الدين، ٢ ج، ط ١ الناشر، دار عالم الكتب، سنة (١٤١٠هـ / ١٩٩٠م).

• **ابن جبير: محمد بن أحمد بن جبير الكناني الأندلسي، أبو الحسين (ت ٦١٤هـ/١٢١٧م)**

١٢- رحلة ابن جبير، ١ج، ط١، الناشر: دار صادر- بيروت.

• **ابن الجزري: شمس الدين أبي عبد الله محمد بن إبراهيم بن أبي بكر الجزري (ت ٧٣٨هـ/١٣٣٧م)**

١٣- تاريخ ابن الجزري (حوادث الزمان وأنبائه ووفيات الأكابر والأعيان من أبنائه)

٣ج، تحقيق دكتور عمر عبد السلام تدمري، ط ١، الناشر: المكتبة العصرية – صيدا بيروت، سنة ١٤١٩هـ/١٩٩٨م.

- **ابن الجوزي: أبو الفرج عبد الرحمن بن على بن محمد بن على بن الجوزي (ت ٥٩٧هـ/١٢٠٠م)**

١٤- المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، ١٧ ج، تحقيق محمد عبد القادر عطا – مصطفي عبد القادر عطا، ط ٢، الناشر دار الكتب العلمية بيروت – سنة: ١٤١٥هـ/١٩٩٥م.

- **ابن حبيب: بدر الدين الحسن بن عمر بن الحسن بن عمر (ت ٧٧٩هـ/١٣٧٧م)**

١٥- تذكرة النبيه في أيام المنصور وبنيه، ٣ ج، تحقيق: د. محمد محمد أمين، – الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب – مركز تحقيق التراث، سنة ١٩٨٢م.

- **ابن حجر: أبو الفضل أحمد بن على بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني (ت٨٥٢هـ/١٤٤٨م)**

١٦- إنباء الغمر بأبناء العمر، ٤ ج، تحقيق دكتور حسن حبشي، الناشر: تصوير لجنة إحياء التراث الإسلامي، مصر سنة النشر: ١٣٨٩هـ/١٩٦٩م.

١٧- الدرر الكامنة، ٤ ج، الناشر: دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد، تصوير إحياء التراث العربي، د ت.

١٨- بذل الماعون في فضل الطاعون، تحقيق الكاتب أحمد عصام عبد القادر الناشر دار العاصمة الرياض، د ت.

- **ابن الحمصي: أحمد بن محمد بن عمر الأنصاري، (ت ٩٣٤هـ/١٥٢٧م)**

١٩- حوادث الزمان ووفيات الشيوخ والأقران، ٣ ج، تحقيق عبد العزيز فياض حرفوش، ط ١، الناشر دار النفائس، بيروت، لبنان، سنة (١٤٢١هـ، ٢٠٠٠ م).

- **ابن خلدون: ولى الدين عبد الرحمن بن محمد (ت ٨٠٨هـ/١٤٠٥م)**

٢٠- مقدمة ابن خلدون، ٢ ج، تحقيق عبد الله محمد الدرويش، ط١، الناشر دار يعرب سنة ٢٠٠٤م.

- **ابن خلكان: أبي العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر (ت٦٨١هـ/١٢٨٢م)**

٢١- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ٨ ج، تحقيق إحسان عباس، الناشر دار صادر بيروت سنة ١٩٧٢م.

- **الدويهي: اسطفان بن ميخائيل بن موسي (ت ١١١٥هـ/١٧٠٤م)**

٢٢- تاريخ الأزمنة، تحقيق بطرس فهد، الناشر دار لحد بيروت لبنان ١٩٨٢م

- **الذهبي: شمس الدين أبى عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي (ت ٧٤٨هـ/١٣٤٧م)**

٢٣- سيرا اعلام النبلاء، ٢٥ ج، تحقيق الدكتور بشار عواد معروف، ط ١١، دار النشر، مؤسسة الرسالة – بيروت سنة ١٩٩٦م – ١٤١٧هـ.

٢٤- دول الاسلام، ٢ج، تحقيق حسن اسماعيل مروة ومحمود الأرناؤوط، ط١، دار صادر بيروت، سنة ١٩٩٩م .

٢٥- تاريخ الاسلام ووفيات المشاهير والاعلام، ٥٢ ج، تحقيق الدكتور بشار عواد معروف، الدكتور عمر عبد السلام تدمري، ط ١، دار الغرب الاسلامي سنة ٢٠٠٣م – ١٤٢٤هـ

٢٦- العبر في خبر من عبر، ٤ ج، تحقيق ابو هاجر محمد السعيد بن بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية بيروت سنة: ١٤٠٥هـ – ١٩٨٥م

- **ابن سباط: حمزة بن احمد بن عمر، ا(ت بعد سنة ٩٢٦هـ/١٥٢٠م)**

٢٧- تاريخ ابن سباط، ٢ ج، تحقيق عمر عبد السلام تدمري، ط ١، الناشر: جروس بريس ١٤١٣هـ/١٩٩٣م.

- **السبكي: تاج الدين عبد الوهاب (ت ٧٧١هـ/١٣٦٩م)**

٢٨- معيد النعم ومبيد النقم، ١ ج، ط ١، الناشر مؤسسة الكتب الثقافية بيروت لبنان سنة ١٩٨٦م.

- **السخاوي: شمس الدين أبي الخير محمد بن عبد الرحمن بن محمد (ت٩٠٢هـ/١٤٩٦م)**

٢٩- الذيل التام على دول الاسلام، ٣ ج، تحقيق دكتور حسن اسماعيل مروة، ومحمود الأرناؤوط، ط١، الناشر مكتبة العروبة الكويت، ودار ابن العماد بيروت لبنان، سنة (١٤١٣هـ – ١٩٩٢م)

٣٠- الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، ١٢ ج، الناشر: دار الجيل – بيروت (تصوير عن مكتبة القدسي بالقاهرة سنة ١٣٥٣هـ) سنة النشر: ١٤١٣هـ – ١٩٩٢م.

٣١- التبر المسبوك في ذيل السلوك، ٤ ج، تحقيق: نجوى مصطفى كامل، لبيبة إبراهيم مصطفى، الناشر، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢ م.

• **السيوطي: جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي أبو الفضل (ت ٩١١هـ/١٥٠٥م)**

٣٢- حسن المحاضرة، ٢ ج، تحقيق، محمد أبو الفضل إبراهيم، ط١، الناشر: دار إحياء الكتب العربية – عيسى البابي الحلبي سنة (١٣٨٧هـ/١٩٦٧م).

• **أبي شامة: شهاب الدين عبد الرحمن بن اسماعيل بن إبراهيم بن عثمان المقدسي الدمشقي الشافعي، المتوفي سنة (٦٦٥هـ/١٢٦٦م).**

٣٣- الروضتين في اخبار الدولتين النورية والصلاحية، ٥ ج، تحقيق إبراهيم شمس الدين، ط١، الناشر دار الكتب العلمية بيروت لبنان، سنة (١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م).

• **ابن شاهين: زين الدين عبد الباسط بن خليل (ت٩٢٠هـ/١٥١٤م)**

٣٤- نيل الامل في ذيل الدول، ٩ ج، تحقيق دكتور عمر عبد السلام تدمري، ط١، الناشر المكتبة العصرية صيدا بيروت، سنة (١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م).

• **ابن شداد: يوسف بن رافع بن تميم بن عتبة الأسدي الموصلي، (ت ٦٣٢هـ/١٢٣٤م)**

٣٥- النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية (سيرة صلاح الدين الأيوبي)، ١ ج، تحقيق جمال الدين الشيال، ط ٢، الناشر: مكتبة الخانجي، القاهرة، سنة ١٤١٥هـ- ١٩٩٤م.

• **شيخ الربوة: شمس الدين ابو عبد الله محمد بن أبى طالب الدمشقي (ت سنة ٧٢٧هـ/١٣٢٦م)**

٣٦- نخبة الدهر في عجائب البر والبحر. الناشر مطبعة الاكاديمية الامبراطورية، بطربورغ سنة ١٨٦٥م.

• **ابن صصري: محمد بن محمد (دت)**

٣٧- الدرة المضيئة فى الدولة الظاهرية، ج١، تحقيق خيري الذهبي، ط١، الناشر الهيئة السورية العامة للكتاب، سنة ٢٠٠٨م.

• **الصقاعي: فضل الله بن أبي الفخر الكاتب (النصراني) (ت٧٢٦هـ/١٣٢٥م)**

٣٨- تالي كتاب وفيات الأعيان، تحقيق: جاكلين سوبلة – منشورات المعهد الفرنسي بدمشق للدراسات العربية – دمشق ١٩٧٤م.

• **ابن الصفدي: صلاح الدين خليل بن أيبك (ت ٧٦٤هـ/١٣٦٢م)**

٣٩- أعيان العصر وأعوان النصر، ٦ ج، تحقيق دكتور على أبو زيد، نبيل أبو عشمة، محمد موعد، سالم محمد، ط١، الناشر دار الفكر، دمشق سنة (١٤١٨هـ/١٩٩٨م).

• **الصيرفي: الجوهري على بن داود، (ت٩٠٠هـ/١٤٩٤م)**

٤٠- نزهة النفوس والأبدان في تواريخ الزمان، تحقيق حسن حبشي، الناشر دار الكتب سنة ١٩٧٠م.

• **الطبري: ابو جعفر محمد بن جرير (ت٣١٠هـ/٩٢٣م)**

٤١- تاريخ الرسل والملوك، ١٣ ج، طبعة دي جويه De Goeje (ليدن ١٨٧٩/١٨٩٠).

• **ابن طولون: شمس الدين محمد بن على بن أحمد بن على (ت ٩٥٣هـ١٥٤٦م)**

٤٢- اللمعات البرقية في النكت التاريخية، الناشر مكتبة القدسي والبدير دمشق سنة ١٣٤٨هـ

٤٣- ضرب الحوطة على جميع الغوطة، ج ٣، ج ٤، تحقيق الدكتور محمد أسعد طلس، الناشر: مجلة المجمع العلمي العربي، (١٣٦٥هـ ١٩٤٦م).

٤٤- مفاكهة الخلان في حوادث الزمان، تحقيق خليل المنصور، ط١، الناشر دار الكتب العلمية بيروت سنة ١٩٩٨م.

• **ابن عبد الظاهر: محي الدين، (ت ٦٩٢هـ/١٢٩٢م)**

٤٥- تشريف الايام والعصور في سيرة الملك المنصور تحقيق مراد كامل – محمد على النجار، الناشر الشركة العربية للطباعة والنشر، الرياض سنة ١٩٦١م.

٤٦- الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر، ط ١، تحقيق ونشر، عبد العزيز الخويطر، الرياض سنة ١٣٩٦هـ – ١٩٧٦م.

• **ابن العراقي: ولى الدين أبو زُرعة أحمد بن عبد الرحيم بن الحسين بن عبد الرحمن بن إبراهيم الكردي المهراني القاهري (ت ٨٢٦هـ/١٤٢٢م)**

٤٧- الذيل على العبر في خبر من عبر، ٣ ج، تحقيق صالح مهدي عباس، ط ١، الناشر مؤسسة الرسالة بيروت لبنان، سنة ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م.

• **العليمي: عبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن العليمي الحنبلي، أبو اليمن، مجير الدين (ت ٩٢٨هـ/١٥٢١م)**

٤٨- الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، ٢ ج، تحقيق: عدنان يونس عبد المجيد نباتة، ط ١، الناشر: مكتبة دنديس – عمان سنة النشر (١٤٢٠هـ/١٩٩٩م).

- **ابن العماد الحنبلي: شهاب الدين أبي الفلاح عبد الحي بن أحمد بن محمد العكري الدمشقى الحنبلي، (ت ١٠٨٩هـ/١٦٧٨م)**

٤٩- شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ١٠ ج، تحقيق: عبد القادر الأرناؤوط - محمود الأرناؤوط، ط١، الناشر دار ابن كثير دمشق بيروت سنة ١٤١٠هـ /١٩٨٩م.

- **العيني: بدر الدين محمود (ت ٨٥٥هـ/١٤٥١م)**

٥٠- عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان (عصر سلاطين المماليك)، ٥ ج، تحقيق: محمد محمد أمين، الناشر، دار الكتب والوثائق القومية القاهرة ٢٠١٠م.

- **ابو الفدا: عماد الدين إسماعيل بن علي بن محمود بن محمد الملك المؤيد، (ت ٧٣٢هـ/١٣٣١م)**

٥١- المختصر في أخبار البشر، ٤ج، ط١، الناشر: المطبعة الحسينية المصرية، دت.

- **ابن الفرات: ناصرالدين محمد بن عبد الرحيم بن الفرات (ت ٨٠٧هـ/١٤٠٥م)**

٥٢- تاريخ ابن الفرات، ٩ ج، تحقيق دكتور قسطنطين زريق، الناشر المطبعة الأميركانية بيروت لبنان سنة ١٩٤٢م.

- **ابن فضل الله العمرى: شهاب الدين احمد بن يحي (ت٧٤٩هـ/١٣٤٨م)**

٥٣- مسالك الابصار، ٢٧ مجلد، تحقيق كامل سلمان الجبوري، الناشر دار الكتب العلمية بيروت لبنان ١٩٧١م.

- **ابن قاضي شهبة: تقي الدين أبي بكر بن أحمد بن قاضي شهبة الدمشقي (ت٨٥١هـ/١٤٤٧م)**

٥٤- تاريخ ابن قاضي شهبة، ٤ ج، تحقيق: عدنان درويش، نشر: المعهد العلمي الفرنسي للدراسات العربية دمشق سنة ١٩٩٤م.

- **القلقشندي: أبو العباس أحمد (ت ٨٢١هـ/١٤١٨م)**

٥٥- صبح الأعشى، ١٤ ج، دار الكتب العربية المصرية (١٣٤٠هـ/١٩٢٢م).

- **ابن كثير: أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي (ت ٧٧٤هـ/١٣٧٢م)**

٥٦- البداية والنهاية، ٢١ ج، تحقيق حسان عبد المنان، الناشر، بيت الأفكار الدولية، سنة ٢٠٠٤م، وتحقيق على شيري، ط ١، دار إحياء التراث العربي سنة ١٩٨٨م.

- **المقدسي: أبو عبد الله محمد بن أحمد (ت ٣٨٠هـ/٩٩٠م)**

٥٧- أحسن التقاسيم، ط ٣، مكتبة مدبولي، القاهرة ١٤١١هـ - ١٩٩١م.

• **المقريزي: تقى الدين احمد بن على توفى (٨٤٥هـ /١٤٤٢م)**

٥٨- السلوك لمعرفة دول الملوك، ٤ ج، تحقيق محمد مصطفى زيادة، ط٢، الناشر الهيئة العامة للكتب القاهرة ١٩٣٦م، وتحقيق محمد عبد القادر عطا، ٨ ج، ط١ الناشر دار الكتب العلمية الطبعة الأولى بيروت ١٩٩٧م.

٥٩- المواعظ والاعتبار (الخطط المقريزية)، ٣ ج، تحقيق محمد زينهم – مديحة الشرقاوي مكتبة مدبولي دار الأمين بالقاهرة الطبعة الاولى سنة ١٩٩٨م.

٦٠- درر العقود الفريدة، ٤ ج، تحقيق محمود الجليلي، ط١، الناشر دار الغرب الإسلامي سنة (١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م).

٦١- اغاثة الأمة بكشف الغمة، تحقيق كرم حلمي فرحات، ط١، الناشر عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية، سنة ٢٠٠٧م.

• **ابن منظور: أبو الفضل جمال الدين محمد ابن مكرم (ت ٧١١هـ/١٣١١م)**

٦٢- لسان العرب، ٦ ج، ط١، الناشر: دار المعارف القاهرة .

• **النعيمي: عبدالقادر بن محمد النعيمي الدمشقي (ت ٩٧٨هـ/١٥٧٠م)**

٦٣- الدارس في تاريخ المدارس، ٢ ج، تحقيق إبراهيم شمس الدين، ط١، الناشر دار الكتب العلمية بيروت لبنان سنة (١٤١٠هـ – ١٩٩٠م) .

• **النويري: شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري (ت٧٣٣هـ/١٣٣٢م)**

٦٤- نهاية الأرب، ٣٣ ج، تحقيق نجيب مصطفى فواز وحكمت كشلي فواز وابراهيم شمس الدين وعلى بو ملحم، ط١، الناشر دار الكتب العلمية بيروت لبنان سنة ٢٠٠٤م.

• **الهمذاني: رشيد الدين فضل الله (٧١٨هـ/١٣١٨م)**

٦٥- جامع التواريخ (تاريخ المغول) ٣ ج، راجعه يحيي الخشاب نقله إلى العربية محمد صادق – محمد موسي هنداوي – فؤاد عبد المعطي، الناشر دار احياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي القاهرة د.ت.

• **ابن واصل: جمال الدين محمد ابن سالم (ت ٦٩٧هـ/١٢٩٧م)**

٦٦- مفرج الكروب في أخبار بنى أيوب، ٥ ج، تحقيق: جمال الدين الشيال، حسنين محمد ربيع – سعيد عبد الفتاح عاشور، الناشر: دار الكتب والوثائق القومية – المطبعة الأميرية سنة النشر: ١٣٧٧ – ١٩٥٧.

• **ابن الوردي: زين الدين عمر بن مظفر (ت٧٤٩هـ/١٣٤٨م)**

٦٧- تاريخ ابن الوردي، ٢ ج، ط ١، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت لبنان، سنة ١٤١٧هـ – ١٩٩٦م.

• **اليافعي: أبو محمد عفيف الدين عبد الله بن أسعد بن على بن سليمان (ت ٧٦٨هـ/١٣٦٦م)**

٦٨- مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان، ٤ ج، وضع حواشيه: خليل المنصور، ط١، الناشر: دار الكتب العلمية بيروت – لبنان ١٤١٧هـ – ١٩٩٧ م.

• **ياقوت الحموي: شهاب الدين أبى عبد الله البغدادي الرومي (ت ٦٢٦هـ/١٢٢٨م)**

٦٩- معجم البلدان، ٥ ج، الناشر دار صادر، بيروت (١٣٩٧هـ/١٩٩٣م).

• **اليوسفي: موسي بن محمد بن يحيى، (ت ٧٥٩هـ/١٣٥٧م)**

٧٠- نزهة الناظر في سيرة الملك الناصر، تحقيق دكتور أحمد حطيط، ط١، الناشر دار عالم الكتب بيروت سنة ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م.

• **اليونينى: قطب الدين أبو الفتح موسى بن محمد اليونيني (ت ٧٢٦هـ/١٣٢٥م)**

٧١- ذيل مرآة الزمان، ٣ ج، تحقيق حمزة أحمد عباس، ط١، الناشر المجمع الثقافي هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث الامارات العربية المتحدة ٢٠٠٧م، و أيضاً ط٢، الناشر: دار الكتاب الإسلامي، القاهرة ١٤١٣هـ – ١٩٩٢ م.

ثانياً: قائمة المراجع باللغة العربية:

• **أباظة: فاروق عثمان (دكتور)**

١- أثر تحول التجارة العالمية إلى رأس الرجاء الصالح القرن السادس عشر، ط٢، الناشر دار المعارف القاهرة د ت.

- **أحمد: أحمد عبد الرازق (دكتور)**

٢- البذل والبرطلة زمن سلاطين المماليك دراسة عن الرشوة، الناشر الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٧٩م.

- **بدوى: عبد الرحمن (دكتور)**

٣- مناهج البحث العلمي، ط٣، الناشر وكالة المطبوعات شارع فهد السالم الكويت سنة ١٩٧٧م.

- **أبو الحب: جليل (دكتور)**

٤- الحشرات الناقلة للأمراض، عالم المعرفة، الكويت، ١٩٨٢ م.

- **الحريري: محمد عيسي (دكتور)**

٥- تاريخ المغرب الاسلامي والاندلس، ط ١، سنة ١٩٨٥م، ط٢، سنة النشر ١٩٨٧م الناشر دار القلم، الكويت .

٦- الدولة الرستمية، ط٣، الناشر دار القلم، الكويت، سنة ١٩٨٧م

- **الحميدي، الحديدي: فتحي سالم – فائز على بخيت، (دكتور)**

٧- جوانب من الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية في العصر المملوكي تفسير جديد، الطبعة الاولى ١٤٣٥هـ/٢٠١٤م.

- **خليل: نور الدين خليل (دكتور)**

٨- شجرة الدر، الناشر دار الكتب العربية ٢٠٠٤م.

- **دويدري: رجاء وحيد (دكتورة)**

٩- البحث العلمي، أساسياته النظرية وممارسته العلمية، ط١، الناشر دار الفكر دمشق سنة ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م.

- **رمزي: محمد (مفتش سابق بوزارة المالية)**

١٠- القاموس الجغرافي للبلاد المصرية، الناشر الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٩٤م

- **سرور: محمد جمال الدين (دكتور)**

١١- دولة بنى قلاوون في مصر، الناشر دار الفكر العربي القاهرة ١٩٤٧م/١٣٦٧هـ.

- **السرجاني: راغب (دكتور)**

١٢- قصة الحملات الصليبية ، ج١، دت

- **سعداوي: نظير حسان (دكتور)**

١٣- صور ومظالم من عصر المماليك، الناشر مكتبة النهضة العربية القاهرة سنة ١٩٦٦م.

- **أبو سمور: حسن، والخطيب: حامد (دكتور)**

١٤- جغرافية الموارد المائية، ط١، الناشر دار صفاء للنشر والتوزيع مدينة عمان سنة ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م.

- **الشربيني: البيومي إسماعيل (دكتور)**

١٥- النظم المالية في مصر والشام عصر سلاطين المماليك، الناشر الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٨م.

- **الشرقاوي: محمد عبد الله (دكتور)**

١٦- مناهج البحث والتفكير العلمي، ط٢، دار الثقافة العربية القاهرة مكتبة الأنجلو القاهرة ١٩٥٣م.

- **الشيال: جمال الدين (دكتور)**

١٧- تاريخ مصر الإسلامية، دار المعارف، القاهرة ١٩٦٦م.

- **الصلابي: على محمد (دكتور)**

١٨- موسوعة الحروب الصليبية ، ٥ج، ط١، الناشر مكتبة الايمان، سنة ٢٠٠٦ م .

١٩- قطز ومعركة عين جالوت، ج١، ط١، الناشر مؤسسة اقرأ، سنة ٢٠٠٩م .

- **طرخان: إبراهيم على (دكتور)**

٢٠- النظم الإقطاعية في الشرق الأوسط في العصور الوسطى، الناشر دار الكاتب العربي للطباعة والنشر القاهرة ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م.

- **طقوش: محمد سهيل (دكتور)**

٢١- تاريخ المماليك في مصر وبلاد الشام، ط ١، الناشر دار النفائس، بيروت، سنة ١٤١٨هـ/١٩٩٧م.

- **عاشور: سعيد عبد الفتاح عاشور: (دكتور)**

٢٢- العصر المماليكى في مصر والشام، ط١، النهضة العربية، القاهرة، ١٩٦٥م، ط٢، ١٩٧٦م.

٢٣- مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك، دار النهضة العربية، بيروت. ١٩٧٢م.

٢٤- المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، دار النهضة العربية، ١٩٩٢م.

- **العبادي: أحمد مختار العبادي (دكتور)**

٢٥- قيام دولة المماليك الأولى في مصر والشام، الناشر دار النهضة العربية، بيروت ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م.

- **عيسى: أحمد عيسى بك (دكتور)**

٢٦- تاريخ البيمارستانات في الإسلام، ١ ج، ط١، الناشر: دار الرائد العربي، سنة النشر: ١٤٠١هـ/١٩٨١م.

- **قاسم: قاسم عبده قاسم (دكتور)**

٢٧- النيل والمجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، ط١، الناشر دار المعارف القاهرة، سنة ١٩٧٨م.

٢٨- – التاريخ السياسي والاجتماعي عصر سلاطين المماليك، دار الشرق ط ١ سنة ١٩٩٤م.

- **قاسم: محمود (دكتور)**

٢٩- المنطق الحديث ومناهج البحث، ط٢، الناشر مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة سنة ١٩٥٣م.

- **لابدوس: ايرا (دكتور)**

٣٠- مدن اسلامية في عهد المماليك، نقله إلى العربية دكتور على ماضي، ط ٢، الناشر الاهلية للنشر والتوزيع بيروت لبنان سنة ١٩٨٧م.

- **محسوب، وأرباب، محمد صبري محسوب، ومحمد إبراهيم أرباب (دكتور)**

٣١- الأخطار والكوارث الطبيعية الحدث والمواجهة معالجة جغرافية، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٤٠٠هـ/٢٠٠٠ م.

- **محمد: صبحي عبد المنعم (دكتور)**

٣٢- سياسة المغول الايلخانيين الناشر دار العربي القاهرة ٢٠٠١م

- **محمود: على السيد على (دكتور)**

٣٣- الفناء الكبير والموت الأسود، المجلة التاريخية المصرية، ١٩٨٦م.

- **محمود: منى حسن أحمد (دكتور)**

٣٤- قاعدة نربونة ودورها فى الجهاد ضد الفرنجة، ط١، الناشر مؤسسة عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية، القاهرة، ١٩٩٩م

- **المرسي والشاذلى: علي علي المرسي، محمد محمد الشاذلي، (دكتور)**

٣٥- أساسيات علم الحشرات، ط ١، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٤٢٥ هـ / ٢٠٠٤ م.

- **مصطفى وآخرون، إبراهيم مصطفى، أحمد الزيات، حامد عبد القادر، محمد النجار،**

٣٦- المعجم الوسيط، تحقيق: مجمع اللغة العربية، ط٤، الناشر: مكتبة العروبة الدولية سنة ٢٠٠٤م.

- **مصطفى: نادية محمود (دكتورة)**

٣٧- العلاقات الدولية في التاريخ الإسلامي، ط١، الناشر دار البشير القاهرة سنة ١٤٣٦هـ/٢٠١٥م.

ثالثاً: المواقع الإلكترونية:

١- موقع المهندس محمد المصطفى، مقال عن السيول والفيضانات، موقع شخصي:
http://khalidabdallamohamed.jeeran.com

٢- موقع ندوة إدارة الكوارث:

http://disasters.momra.gov.sa

٣- موقع منظمة الإغاثة الإسلامية باليمن عبر العالم ومشروع مواجهة الكوارث وإدارتها بالدفاع المدني، فعاليات البرنامج التدريبي، وزارة الداخلية، اليمن:

https://islamic-relief.me/wherewework/yemen

٤- الدليل المرجعي للشباب العربي في مجال الحفاظ على البيئة، جامعة الدول العربية، المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة، برنامج الأمم المتحدة للبيئة، سبتمبر- ٢٠٠٦ م.

رابعاً: المراجع الأجنبية:

1- Ashtor. E: Miscellanea: Debat sur L'evolution Economico –sociale de L'egypte a la fin du Moyen Ags Apropos Dun Livre Recent, (Semenova L:A: Salah ad-dinet les Mamlouks en Egypte Moscou, 1966), (Journal of the Economic and Social History of the Orient Vol. 11, part. 1 Leiden, 1969).

2- Ayalon, D: The Muslim City and the Mamlouk Military Aristocracy, (I.A.S.H). 2, Jerusalem, 1968, pp. 311-329.

3- Dols: The black death in the Middle East, (Princeton university press, 1979).

4- Dozy. R: supplement aux Dictionnaires. Arabes (2 Vols. Bayreuth, 1968).

5- Lapidus, I. M: Muslim Cities in the Later Middle Ages, (Cambridge University, 1984).

6- Levanoni, A: Aturning point in Mamluk History, 1995.

7- Thorau, P.: The Lion of Egypt Sultan Baybars, I and the Near East in the thirteenth century, London 1992.

ملخص الدراسة باللغة العربية

ملخص الدراسة

قسمت الدراسة إلى مقدمة وتمهيد أربعة فصول رئيسية وخاتمة:

فــي التمهيـد: بينت الدراسة أهمية فترة حكم المماليك، ومسميات الدولة المملوكية، وأسماء السلاطين، ثم نبذة شاملة عن نظام الدولة المملوكية السياسي، والاقتصادي، والإقطاعي، والعلمي، وأهم التعريفات التي قالت بها المؤسسات والمنظمات العالمية لمفهوم الأزمة الاقتصادية في النظم الحديثة، وتوصلت لنتيجة مفادها أن معظم هذه الكوارث مردها إلى العقوبة الإلهية لبني الإنسان جراء ذنوبهم ومعاصيهم، وبينت الدراسة الأسباب العلمية لحدوث الأزمات الاقتصادية، كما أظهرت اهتمام الدولة بنهر النيل وحمايته، تجنباً حدوث الفيضانات التي تتسبب في حدوث المجاعات والأوبئة.

وفي الفصل الأول: تناولت الدراسة بالتفصيل أهم الأسباب الطبيعية التي كانت سبباً في حدوث الأزمات الاقتصادية التي تعرضت لها مصر وبلاد الشام خلال مرحلة الدراسة، وكان أهمها قصور النيل وفيضانه، حيث وضحت الدراسة أهم المجاعات و أهم السيول والفيضانات التي حدثت في مصر وبلاد الشام خلال مرحلة الدراسة بالتفصيل، وأظهرت موقف الدولة من هذه الأزمات، ووضحت فيه أهم الإجراءات التي قامت بها الدولة والسلطة الحاكمة في المناطق التي تضررت، وتمثل موقف الدولة في معظم الأحيان بإعادة إعمار ما تهدم جراء تلك الأزمات، كما وجهت الدولة الناس لأداء صلاة الاستسقاء عند حدوث حالات الجفاف، فتح مخازن الدولة، وبيع الغلال منها بأسعار مخفضة، ومراقبة ومتابعة عملية بيع المواد الغذائية، وتعزير المحتكرين و بائعي لحوم الميتات والكلاب والحمير، وآكلي لحوم البشر، عند حدوث حالات الجفاف والمجاعات، وتوزيع الفقراء على الأمراء والأغنياء والتجار للتكفل بإطعامهم في أوقات حدوث المجاعات، وتوزيع الأموال والطعام على الفقراء في بعض الأحيان.

كما بينت الدراسة في حالات الجفاف والمجاعات والآفات الزراعية وأهمها الجراد والفئران والطيور التي تعرضت لها مصر وبلاد الشام، وأظهرت الدراسة موقف الدولة من الجفاف والمجاعات والآفات الزراعية، والذي تمثل بقيامها بإجراءات عدة، **من أهمها:**

محاولة إيجاد حلول وطرق لمكافحة الآفات الزراعية، وتعويض المزارعين عن خسائرهم، ولجوء الدولة إلى جلب وتوفير المواد الغذائية الأساسية، إما عن طريق جلبها من المناطق الخاضعة لسيطرة

الدولة أو من الدول الإسلامية المجاورة أو الاستيراد من الدول الأجنبية، وغير ذلك من حلول تفادي الأزمة.

كما بينت الدراسة أهم الأوبئة والطواعين والموتان التي تفشت في مصر وبلاد الشام، ومدى فتكها بالأرواح، كما أظهرت موقف الدولة، والذي تمثل في معظم الأحيان بإنشاء البيمارستانات (المستشفيات) في جميع أنحاء مصر وبلاد الشام، والتي كانت تقدم خدمات طبية متنوعة، ومنها تقديم العلاج لمرضى الطاعون وغيره من الأمراض، واتخذت الدولة عدة إجراءات وقائية صحية لتفادي تكرار وقوع الأوبئة.

أما في الفصل الثاني: فقد بينت الدراسة الأسباب البشرية التي تسببت في حدوث الأزمات الاقتصادية التي تعرضت لها مصر وبلاد الشام خلال مرحلة الدراسة، وكان من أهمها الحروب الصليبية.

وأظهرت موقف الدولة، والذي تمثل بقيامها بإجراءات عدة، من أهمها: إعادة إعمار ما هدمته هذه الحروب من أماكن في بلاد الشام ومصر، وتضرر عدد كبير من المعالم العمرانية المختلفة من مساجد وكنائس ومدارس وبيمارستانات وأسوار وقلاع وأبراج ومبانٍ سكنية وغيرها من المرافق العامة، مما كان له أسوأ الأثر على الجانب الحضاري للإنسان والاقتصادي لدولة المماليك.

كما بينت الدراسة موقف الدولة من العربان، وكان من أهمها إلحاق أضرار فادحة بالشعب ونهب ممتلكاتهم، وإثارة الفتن والمشاغبات في كل نواحي الدولة، ومداهمة الدولة لهم حد الاكتفاء من شرهم.

أيضاً بينت الدراسة موقف الدولة في حماية الموانئ من القراصنة وحفظ الحدود والعمل على انتعاش التجارة مع الدول الخارجية للنهوض بالدولة اقتصادياً وتحسين مواردها الأساسية.

أما الفصل الثالث: بينت الدراسة دور الدولة الاقتصادي، ويتمثل دور الدولة في الاهتمام بالقطاع الزراعي والصناعي والتجاري، والذي كان له تأثير مباشر على غلاء أسعار مختلف المواد الغذائية وغيرها من السلع، في النشاط الزراعي ببناء الجسور والسدود وحفر الترع والخلجان لحماية الزراعة وزيادة الإنتاج، وعدم تضرر الثروة الحيوانية والسمكية، وفي الصناعة أدخلوا كثيراً من المحاصيل الزراعية في الصناعات، واهتموا بالموارد الخام لصناعة الشواني والأسلحة وصناعة المواد الغذائية وتوفيرها، لمواجهة الأزمات، وفي التجارة اهتمت الدولة بإنشاء الأسواق والتبادل التجاري وعقد المعاهدات التجارية لتنشيط التجارة داخلياً وخارجياً مما ساعد على حل الأزمات والنهضة الاقتصادية في ذلك العصر.

أما الفصل الرابع: بينت الدراسة دور الدولة السياسي في الإدارة والتحكم في أوضاع البلاد، من خلال تعيين موظفين أكفاء، وإقامة الدواوين ومباشرة الأعمال الرقابية، وزيادة التوسع في المجالات الاقتصادية والتجارية، لكي تسد حاجة البلاد، ومواجهة الأزمات، والتغلب على المشكلات الناتجة من الطبيعة أو من البشر، خارجية كانت أو داخلية، ويتمثل دور الدولة في محاربة غلاء الأسعار، والقضاء على الرشوة، و تحريم الفواحش، وإلغاء المكوس المحرمة، وتزييف النقود، والتي كانت تثير إحداث تغييرات في توزيع السكان، فقد كان ينتج عن بعض تلك الأزمات هجرات من المناطق المنكوبة إلى مناطق أخرى، وخاصة عند حدوث الجفاف، وحدوث تغييرات كبيرة على النمو السكاني، و تعطيل بعض المناسبات الاجتماعية كالزواج. وحث الناس إلى طلب العون والمساعدة من الله عز وجل ليعينهم ويزيل عنهم خطر هذه الأزمات.

Summary

Summary

The study was divided into four chapters:

The study showed the importance of the rule of the Mamluks, the names of the Mamluk state and the names of the sultans, and then a comprehensive overview of the Mamluk political, economic, feudal, and scientific state system. The most important definitions of the economic crisis in modern systems. Most of these disasters are due to the divine punishment of human beings because of their sins and sins. The study showed the scientific reasons for the occurrence of economic crises. It also showed the state's interest in protecting and protecting the Nile River to avoid floods that cause famine and epidemics.

In the first chapter: the study discussed in detail the most important natural causes that were the cause of the economic crises that were exposed to Egypt and the Levant during the study period، the most important of which were the Nile and its flood, where the study highlighted the most important famines and the most important floods and floods that occurred in Egypt and the Levant during The state's position on these crises, and explained the most important actions taken by the state and the ruling authority in the affected areas, and represents the state's position most of the time reconstruction of what was destroyed by these crises, and the State directed people to pray the ascites when the occurrence Drought machines, open state stores, The sale of grain at reduced prices, the monitoring and follow-up of the sale of food, and the promotion of monopolists and vendors of meat of dead and dogs and donkeys, and cannibals, in the event of drought and famine, and the distribution of the poor princes and the rich and traders to ensure their feeding in times of famine, and the distribution of funds and food on Sometimes poor.

The study also showed the drought، famine and agricultural pests, mainly locusts, mice and birds that were exposed to Egypt and the Levant. The study showed the state's position on drought، famine and agricultural pests.

Trying to find solutions and methods to control agricultural pests, compensate farmers for their losses, and resort to the state to fetch and provide basic foodstuffs, either by bringing them from areas under state control or from neighboring Islamic countries or importing from foreign countries, and other solutions to avoid the crisis.

The study also showed the most important epidemics, plagues and mutations that spread in Egypt and the Levant, and the extent of their deaths, as demonstrated by the position of the state، which is often represented by the establishment of the Bimarstanat (hospitals) throughout Egypt and the Levant، which provided various medical services, Treatment for plague and other diseases, and the State has taken several preventive health measures to avoid the recurrence of epidemics.

In the second chapter: the study showed the human causes that caused the economic crises that occurred in Egypt and the Levant during the study period, the most important of which were the Crusades.

It showed the position of the state, which is represented by several actions, the most important of which are: the reconstruction of the destruction of these wars from places in the Levant and Egypt, and damaged a large number of different physical features of mosques, churches, schools and Bimarstanat and fences, castles, towers and residential buildings and other public facilities, Has the worst impact on the civilized side of the human and economic state of the Mamluks.

The study also examines the position of the state on the Arabs، and the most important of which is to inflict severe damage on the people and plunder their property, and stir up strife and concerns in all aspects of the state, and the raid of the state to them enough to be satisfied with their evil.

The study also showed the position of the state in protecting ports from pirates and keeping borders and working on the recovery of trade with foreign countries to promote the state economically and improve its basic resources.

In the third chapter: the study showed the role of the economic state, and the role of the state in the agricultural, industrial and commercial sectors, which has a direct impact on the price of various foodstuffs and other commodities in the agricultural activity by building bridges and dams and digging trenches and bays to protect agriculture and increase production. Livestock and fisheries, and in the industry have introduced many agricultural crops in the industries, and have taken care of the raw resources of the industry, weapons, food industry and supply, to cope with crises, and in trade, the State has been concerned with the establishment of markets and trade exchange, J holding commercial treaties to activate the internal and external trade, which helped to resolve the crisis and economic renaissance in that era.

The fourth chapter of the study: shows the role of the political state in the management and control of the country's situation through the appointment of competent staff, the establishment of departments and the start of regulatory work, and the expansion of economic and trade fields in order to meet the country's need and to cope with crises and overcome problems resulting from nature or Human beings, external or internal, and the role of the state is to fight high prices, eliminate bribery, the prohibition of infamy, and the abolition of forbidden hacks, and counterfeiting money, which has been causing changes in the distribution of the population. Some of these crises have resulted in migrations from affected areas to other areas, particularly when drought occurs, major changes in population growth and disruption of social events such as marriage. And urged people to seek help and assistance from God Almighty to help them and remove the danger of these crises.